
بعد الغروب
محمد عبد الحليم عبد الله



بَعدَ الغُروبْ



مطبوعات مكتبة مصر

بعد الغروب

الجائزة الأولى الممتازة فى القصة
من وزارة المعارف سنة ١٩٤٩

محمد عبد الحليم عبد الله

الناشر
مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقى - الفجالة



١

كان آخر عهدى بالقرية التى قضيت فيها صباى وصدراً من شبابى ، فجرا لا أنساه .

كنا فى أخريات أكتوبر .. وفى وقت يتوازن فيه الصيف والشتاء ، ويعتدل الصبح والمساء ، ويتلفع جو القرى مع كل فجر بملاءة كثيفة من الضباب تنام تحتها الحقول والأكواخ وكل شيء إلا نسمات السحر .

ولم يكن هذا الجمال الشهى ليملأ أو ينفذ إلى قلبى ، على فرط حبى لهذا الجمال لأننى كنت ذاهلا عن كل شيء ..

ــ أنا نصف نائم : فقد نهضت من الفراش عجلان لأدرك قطارا يأتى مع الفجر .. وكأننى نصف سكران : لأن حرقة وداع أمى لايزال دوارها آخذا برأسى ، وما ودعتها قط وأنا مسافر إلا تركت على ظهر يمناها دمعة وقبلة ، ولم يكف ذهنى وأنا فى طريقى إلى المحط عن استحضار صورتها تحت نور مصباح ريفى ساذج خرجوا به ورائى لينير الطريق فى الحارة .

وكنت راكبا حمارا هزيلا أنف الزمان من منظره فلم يكتسحه مع ما اكتسح من ثروة أبى . لا يفتر عن الزحير ، وهو سائر .. يراسل أنينه وقع حوافره على التراب فتتألف منها نغمات حزينة . وإذا تحركت على برذعته تململ ظهره لما به من جروح ، لذلك كنت جامدا فى ركوبى كأنى تمثال ، وملقيا بما بقى من خاطرى لأنبهه إلى عثرات هذا الطريق الزراعى الضيق .

كل شيء من حولى كاسف متخاذل ، والخواطر فى رأسى سريعة الدوران تنتهى حيث تبدأ كأنها تيار كهربة يجرى فى حلقة جوفاء . ويسعى من ورائى على كره منى أخ لا يزال غلاما فى الثالثة عشرة اغتصبناه

من النوم ليؤنس وحشتى فى طريقى إلى محط سكة الحديد الذى يبعد عن القرية مسير نصف ساعة ، ثم ليعود بالحمار الذى تمنيت أن لو أعطاه الله من القوة ما يحمل به شخصين ولكنه كان ضائقا بحملى أنا وحدى .. و لم يرض هذا الأخ العنيد أن نتناوب الركوب ونقتسم الطريق .

لم يكلم أحدنا أخاه بشىء كأنما سرت فى نفوسنا هجعة السحر ، على أننى كنت مشغولا بنفسى عن كل ما حولى فلم يثب إلىّ رشدى إلا حينما أحسست أن الحمار يجاهد بى جهادا شاقا صاعدا مرتفعا من الأرض يؤذن بوصوله إلى سكة الحديد فسارعت بالنزول إشفاقا عليه .

وهكذا نفس الإنسان ، لا يفارقها شيطان الجبروت ولا تصفو من شوائب القسوة حتى تطهرها الهموم والآلام ، فتشفق لا على الإنسان وحده ، بل إنها لتحنو على الحيوان !! وقفل أخى راجعا بعد أن طبع على جبينه قبلة ، وأتبعته بصرى تحت جنح الليل المولى حتى اختفى عنى بياض جلبابه وأحسست شيئا من الراحة فى هذا السكون الذى لاتشوبه حركة إلا ما تسمع من خشخشة أوراق الذرة كما تتلاقى السيوف . ولست أدرى مصدرا لراحتى هذه : لعله من دمعة ذرفتها على بؤسى ويأسى وأنا فى فضاء طليق لايعكره إنسان ، أو لعله راجع إلى خلائقى بنفسى وقد عودتنى دائما أن تهدأ من غليانها إذا ما انتابها كرب ففررت بها عن الناس ، وجعلت أفكر فى هذا الكون الهاجع وبما يرفرف فوقه من راحة وسكينة ، ثم ماذا سيكون فيه بعد ساعات حين يسترد النوم سلطانه فتدور رحى الجهاد مع الشمس ويتزاحم الأحياء على المآرب .

اتخذت حقيبة سفرى مقعدا جلست عليه بحذر لأنها لم تكن متينة و لم يكن فى هذا المحط الجديد كرسى يستريح عليه المسافر ، وكنت متجها ببصرى نحو الشمال مرتقبا وصول القطار الذى سيقلنى إلى القاهرة .

ونفذت أنداء الخريف من نسيج حلتي الخفيفة إلى بدني الناحل فأحسست بردها ، لذلك آثرت أن أقطع الوقت جيئة وذهوبا على ممشى المحط حتى حمل إلى النسيم صفير القطار من بعد فزررت سترتي وحملت حقيبتي استعدادا للركوب .

* * *

بزغت الشمس على الأفق الشرقي فصاحت لمقدمها الحياة ، حتى كأنما زر كهربة عظيم تديره القدرة فيملأ الأرض حركة ونورا ، ونظرت إليها شاردا من إحدى النوافذ لأنها أول شمس في حياتي العملية فخيل إلى أنها غير التي كنت أراها فأبسم لها وأنا طفل ، ثم تناولت الحقيبة بحركة آلية وفتحتها لأخرج منها جريدة قديمة لففت فيها طعام فطوري وهو قطعة من العجة ونصف رغيف حملتهما على كره ، ثم وضعت الحقيبة على وركي وسندت إليها مرفقي وأخذت ألوك الطعام ولا أكاد أسيغه والقطار يجري بجسمي نحو الجنوب تاركا قلبي ولبي في قرية نحوالشمال .

وكنت أغص بطعامي الفينة بعد الفينة فأتلفت في حركة خفيفة غير شعورية كأنني أبحث عن ماء ، ثم أزدرد اللقمه ازدرادا دون أن أرفع طرفي إلى الجالسين أمامي من الركاب حتى لا أقرأ في عيونهم ما يزيد من أوصابي . أجل ، كنت مشغولا بيوم لا أزال أذكره وستبقى ذكراه منقوشة على فؤادي ما حييت ، يوم كنت راجعا من القاهرة منذ أسابيع بعد غيبة تقرب من عام والفرح يطير بي ، وأستعجل الوقت الذي ألقى فيه أبوي فأزف إليهما بشرى نجاحي وإتمامي الدراسة في كلية الزراعة ثم ألقاهما فأكاد أنكرهما ويردان على بشراي بابتسامة كاسفة يكاد الأسف يقطر منها ، فتداركت دقات قلبي وأيقنت أن خطرا حاق بالأسرة ، وخيل إليّ أن غبار الفقر يكسو كل شيء في البيت من أثاث وآنية وحيطان ، وسألت عن خادم عجوز كانت تلقاني دائما أول الناس عند مقدمي من السفر ، فسمعت

أمي تجيب بصوت خافت كأنما ترجو ألا أسمعه فتقول : لقد استغنينا عن خدمتها منذ زمن قريب . وبدا أبي غارقا فى قفطانه من فرط هزاله كأنه استعاره من رجل طويل جسيم ، وعاث فى شعره الشيب وخبا بريق عينيه و لم يعد يتكلم اللهجة المسيطرة الآمرة التى تخضع السامعين ، فأحزننى استخذاؤه وانكساره حتى كأن مدية تعمل فى قلبى . أما أمى : فقدرأيت فيها صلابة العنيد حين يقهر فلا يزيده القهر إلا شراسة وضراوة و لم يكن عليها إلا سفعة من الحزن تعلو وجوه البيض كأنها أثر اللطمة .

ولست أدرى لم أكبر أولئك الذين يثبتون على الصهر وتصلب أعوادهم أمام المصائب ؟ كم تمنيت أن أكون واحدا منهم، فهم ولا شك طراز من الناس فيه زيادة على الناس ، أما أنا فإننى لا أجزع من البلايا فحسب ولكن توقعها كفيل بأن يخيفنى .

وزاد جمودى فى مكانى كأننى صببت على الكرسى صبا وأظن أن شرودى كان آية من الآيات وأعجوبة من الأعاجيب تملاها الجالسون أمامى وأنا غير شاعر ، لأننى كنت أستعيد محادثة طويلة جرت بينى وبين أبى حين جلست بينه وبين أمى بعد عودتى إليهم بساعات ، وعلى وجهيهما سمات الحيرة واللهفة التى تكسو وجوه القواد حين يؤذن نجم نصرهم بالأفول . وهز أبى رأسه ثم مال إلى وقال بهمس يملأ القلب فزعا :

« اسمع يا بنى :كثيرا ما يحمل الأبناء أخطاء آبائهم وهم راغمون ، ولعل الله لم يغرس فى قلوبنا حب الولد والحرص على إيجاده إلا ليصل بشبابه شيخوخة أبيه ويصلح بصوابه خطأ والده فيحيا الأب بولده » .

فكان هذا كثيرا حين أحسست أن الرجل يقف منى موقف المعتذر ، فلم أستطع أن أمسك دمعى ، فتنفس الصعداء وقال :

« هذا حسن ، لقد كشفت عن برك بهذه الدموع ، ولامناص من أن تسمع هذه القصة » .



وجرى في جسدى تيار بارد وأحسست فداحة المسئولية

ولكنه سكت ثانيا و لم يتكلم ، وتحسس جيبه بحركة ذاهلة فأخرج علبة فيها تبغ وورق وأخذ يجهز لفيفة منه بأصابعه الطوال التى سرت فيها رعشة خفيفة ، وما أن فرغ من شأنه حتى بدأ يقول :

« كانت تجارتى فى القطن محدودة كما تعلم يرضينى منها ما أناله من أرباح ضئيلة تساعد إيراد عشرين فدانا أملكها ، فعشنا فى بحبوحة من الرزق حسدنا عليها كثير من الناس ، ولكن زين لى بعض معارفى من التجار أن أتوسع فى هذه التجارة و لم يكن عندى من المال ما أستطيع أن أدخل به السوق . فلجأت منذ أعوام إلى مصرف عقارى فأخذت منه مبلغا طائلا وأمنت على خمسة عشر فدانا ، وما أن فعلت حتى أصيبت السوق بالكساد وبدأت أيدى المضاربين تلعب بها فلم تعد ثمرات زرعى ولاتجارتى تكفى نفقات الأسرة وسداد الديون ، وأخذت أؤجل أقساط المصرف عاما بعد عام حتى تكاثر المطلوب . وكانت أرضنا تحت يدى على أننى مستأجر فحسب فجعلت أؤدى من ديونى ما أستطيع أداءه على الرغم من التذمر الذى رأيته من أولى الشأن فى المصرف .

ثم كان هذا العام ففوجئت بأن تقدم أحد المشترين من قريتنا على أثر نزاع دب بين أسرتنا وأسرته ، ودفع الثمن ونقلت إليه الملكية وأصبحت خمسة الأفدنة هى كل ما نملك يا بنى . وتبع هذا أننى تخلصت من الماشية التى كانت تستتبعها سعة الزراعة ورأيت أنه من الرأى أن نخضع للواقع وأن نجرى فى نطاقنا الضيق ما دام قد كتب علينا ضيق النطاق .

على أن كل هذا لا يحز فى نفسى بقدر ما يحز فيها أننى تحكمت فى مستقبلك وأجبرتك إجبارا على دخول كلية الزراعة ، لقد بنيت قصورا على الماء وتخيلت فيما مضى أن ولدى الأكبر سيجعل من أرضنا جنة من جنات الدنيا بعلمه وعمله .

ولكن الله لم يرد . فعلينا أن نرسل سفينتنا مع التيار وأن ندع خطانا حرة مسترسلة فى دروب المقادير ثم نرى ماذا يكون » .

وجرى فى جسدى تيار بارد ، وأحسست فداحة المسئولية . فكنت كالجندى الغر فرضت عليه ظروف القتال أن يصرف أمر موقعة ، كنت على وشك أن أقول : ليتكم تركتمونى أختار لنفسى . إذن لدخلت كلية الآداب . لكننى استرجعت كلماتى هذه ونظرت إليهما قائلا :

ـ والآن لابد من الوظيفة ؟!

فقالا معا :

ـ نعم لابد منها .

ثم كان أن خرجت مع الفجر ووقفت أمى تودعنى عند عتبة الباب حيث استبقت كفى فى كفها مدة غير قصيرة ، وهى تستودعنى اللّه رافعة إلى السماء عينين مخضلتين بالدمع ، فنزعت يدى بلطف بالغ قبل أن ترى الدموع على وجهى الناحل .

٢

لست أدرى ما مر على من الزمن فى جلستى هذه ، غير أن أطراف شعورى التى كانت بعيدة فى زحمة التفكير أدت إلىّ جعجعة القطار المنتظمة التى تجلب النعاس وتسرى فى البدن كالمخدر الخفيف . كما أدت إلىّ نظرات تختلسها أسرة تجلس تجاهى . ثم استطعت أن أسترد شعورى كاملا حين هددتنى دمعة خجلت أن يراها الناس فانتفضت لها وأفقت كما يفعل المغمى عليه حين تصب على رأسه الماء .

وأنا من الذين يؤلمهم أن يرى الناس آلامهم على حين يرتاح الكثيرون أن يثرثروا بمتاعبهم . ولا أحب شكوى الحال ولا شكوى المقال . وقد رأيت على وجه السيدة التى أمامى علامتى تعجب وتأثر فآذانى ما رأيت ــ وإن اعتبرتنى واهما فيما أقول ــ ففتحت حقيبتى وأخرجت كتابا سترت به وجهى وأنا أطالع فيه .

و لم يكن عنوان الكتاب بأكثر مرحا ولا أقل تشاؤما من مظهرى وعنوانى فقد كتبت على جلدته بحروف ضخمة كلمتان هما : « آلام ... » .

قرأوها ولا شك لأننى رفعت به كلتا يدى ودفنت وجهى بين صفحاته كما سبق أن قلت لك . وما لبثت أن أحسست رجل الجالس أمامى تحتك برجلى وهو يهم بالقيام كأنها حركة غير مقصودة وإن كنت واثقا أنه يقصدها ، فأخرجت وجهى من مخبئه ونظرت إليه نظرة استفهام مؤدب فطالعت على شفتيه ابتسامة حلوة قال على أثرها :

« أستأذنك فى فتح زجاج النافذة وأظن أن الجو الآن قد تخلص من رطوبة الفجر ، فهل تأذن ؟ »

فقلت : بلا شك . وأيقنت أن هذا مفتاح يديره فى باب الحديث لأنه استطرد يتكلم عن الجو :

ـ أتوافقنى على أن جو الخريف أكثر إنعاشا للنفوس من جو الربيع ؟

ثم ضحك نصف مقهقه لأنه خمن بأننى لا أوافق .

قلت : كيف ؟ والربيع فصل الأناشيد والألحان أما الخريف يا سيدى فهو فصل احتضار الجمال ؟

كان محدثى رجلا يخطو إلى الخمسين من عمره قوى البنيان ، تبدو على ملامحه قله المبالاة وعدم الاكتراث ، ويبدو لك سمينا جدا لأنه ملىء الجسم غير مديد القامة ، ويخيل إليك أن شحمه لم يوزع على بدنه بالمساواة لأن معظمه قد تكتل فى كرشه وشدقيه . وإذا تكلم هدر وخرجت الكلمات منه متتابعة متلاحقة يجرى وراءها السمع والذهن فلا يلحقانها إلا بمشقة وجهد . ولعل مظهره هذا قد جعل عليه شيئا من اللطف يستملحه بعض الناس ، ولا أنسى أن أقول : إنه قد أحس أنه ثقيل الجسم فعمد إلى أن يكون خفيف الحركة وكان هذا يكلفه عناء غير قليل . كان يلوح كلما تكلم بكف ثخينة بيضاء كأنها من صنع النجاد ، ثم يمسح بها بعد الكلام على فمه الزبد الذى تجمع عليه ، وكثيرا ما يرسل إليك إشعاعا من الضحك لأنه يضحك لا لشىء فتضحك أنت لأنه يضحك ، ثم ما تلبث أن تحس بعد قليل أنك تضحك من قلبك كالمتناعس الذى يأخذه النعاس .

قال لى كأنه يعرفنى منذ زمان :

ـ ما هذا الذى أراك مكبا عليه يا بنى ؟ .. « آلام ... » بحسبنا ما فى الحياة من آلام غير مصنوعة . أريد أن أقول : من آلام طبيعية .. أقصد .. إنها آلام من صنع الله وحده لا من صنع الإنسان .. وضحك ضحكة اهتززت لصداها فى مقعدى .

فابتسمت فى عجب وهممت أن أقول : إن الأزهار الطبيعية تملأ الرياض ولكن الإنسان الذى جبل على محاكاة كل شىء صنع أزهارا من

الورق . فلم يمهلني وتدفق يقول في هدير شديد :

ـ الآلام يابني تملأ الحياة فلا تفتش عنها في صفحات الكتب ، والدنيا التي يرسمها المؤلفون أشبه في نظري بالفاكهة التي يصنعها التلاميذ من الشمع والصلصال . ولقد كنت وأنا في مثل سنك مشغوفا بالقراءة حتى ظننت أن الحياة عدة محاضرات يطالعها المرء فيعرف كيف يحيا حياته ، ولكني فجعت في خيالي هذا يوم أن ولجت أبواب العمل فأدركت أني كنت أتعلم السباحة على رمل أو حصير .

ثم أخرج منديله ليجفف به عرقه في غير موسم العرق .

أما أنا فقد سبحت سبحة قصيرة في معاني كلامه وفطنت إلى أن هذا المظهر الأبلة قد يخفي من ورائه حكمة ، وتفرست في ملامح زوجته فقرأت فيها آيات من القلق والاشمئزاز ، إنها ضائقة بثرثرة زوجها .

ثم اتجهت إليه بعينين فيهما تعطش إلى الحديث فقد كان يبدو عليه أنه متأهب لأن يقص قصة . فقلت موجزا وأنا أطوي كتابي : صدقت .. فالحياة أعمق وأدق من أن تكون محاضرة يلقيها أستاذ .

ولم يبد على محدثي أنه سمع شيئا مما أقول أو أنه أحس تبرم زوجته فقد كان سلطان الكلام مستوليا عليه حتى أنساه كل ما حوله . فجعل يتابع حديثه كأن لم يقطعه عليه أحد :

ـ ولجت أبواب الحياة فتبين لي أن ما تعلمناه في المدارس كان سباحة على رمل أو حصير ، لأننا في مدارسنا لا نشرب الفرد حب الجماعة ، ولا نعلمه التنافس الكريم ، ولا نرصد المواهب فنوجهها ، وإنما يسير كل شيء منها كما اتفق ...

قلت متدخلا وقد استطعت أن أحول بينه وبين الكلام كما توفق في كبح حصان جامح :

ـ أجل ... أجل . وقد وقعت أنا شخصيا في هذه النقطة .

فضحكت أسارير وجهه بضياء من البشر لأنني صدقت رأيه ، وفترت

في نفسه شهوة الكلام ومـال فـي كرسيه إلى الأمـام فاستراح كرشه على وركيه وأدنى رأسه مني قليلا ثم قال بلهجة فاضت بتأثر بالغ : وأنت وقعت في هذه الغلطة ؟ مسكين يـا بنـي ... ستلفع ثمـن هـذه سنوات كثيرة مـن عمرك إن فكرت في الرجـوع . وقـد حـدث لى أننـى فكـرت فـى الرجـوع فلفعت خمس سنوات من أيام شبابي الزاهية ...

فابتلعت ريقي في عسر من هذا الفأل السيئ وأردت أن أقص عليه طرفـا من محنتي واثقا أنني سـأنال مـن وراء هـذا بعـض راحـة ينالهـا المكروبـون إذا أفاض كل بما في نفسه ، لكنني لم أوفق واستمعت إليه يقول :

ــ كان ذلك منـذ ثلاثين عامـا علـى التقريـب حـين بـدأت حيـاة العمـل مدرسا في إحدى مدارس التجارة ، وكان أبي صائغا عوده استعمال الدرهـم والقيراط أن يزن مشاكل الحياة بميزان علمي دقيق . فلمـا رآنـي متهللا لهـذه الوظيفة ضحك مني ضحكة سخرية لا أزال أذكرها حتى اليوم ، إذ كشفت عن تجويف فمه الخالي مـن الأسـنان والتمعـت معهـا عينـاه مـن وراء منظـاره السميك . وقد اعترضت عليه يومئـذ بـأنني محسـود مـن زملائـي علـى هـذه الوظيفة وبأن مستقبلا باهرا ينتظرني ، فقد كنت آية من آيات الله في عملي المدرسي .

قال أبي :

ــ أنا لا أحب تسفيه الرأى ولا الجـدل الطويـل العقيـم وإنمـا أقـول لـك يا بني وأنا رجل طالت صحبتـي للذهـب : إنـك إن أقدمـت علـى هـذا فلـن تكون غنيـا ، ستكـون أداة مـن لحـم ودم تسـتخدمك الدولـة وتمـدك بزيـت يسمونه قوتا ، فإذا ما فسدت الأداة دفعوا تعويضا يسمونه مكافـأة أو معاشـا وهو شيء لا يغني فتيلا عن شيخ ضعيف يـدب فـى طريقـه إلى القـبر . وقـد تكون كثير الأولاد كأبيك ، فلا تورث أبناءك إلا فقرا ويتما ، إيـاك والـبريق الكاذب .. خذها نصيحة والد أو تقبلها نصيحة صائغ .

ولكني لم أومن بما قاله أبي وبدأت حياتي مدرسا ، وتلقاني زملائـي فـي

المدرسة بما اعتبرت نفسي فيما بعد أهلا له ، لقاء غير كريم .. لقاء الخد للطمة .

فقد كنا هناك ثلاث فرق : فرقة المجتهدين الذين لا يعرفون إلا ما ندبوا له من عمل ، وكنت ــ وأسفاه ــ أمثلها وحدى ، وفرقة الذين حميت ظهورهم فلا يضربون على بطونهم كما يقولون في ريف مصر ، وكانوا أقلية ، أما الأكثرية فهم حاشية الناظر وتختلف درجات سعادتهم بمقدار قربهم أو بعدهم عن القطب الأعظم .

ومضى على ذلك عامان ، كنت فيهما بين إخوانى كالمنبوذ عند الهنود ، لأننى كنت على يقين أن كل مقدمة تنتج نتيجتها كما تجرى الماء فينبت العشب ، أو تثب من أعلى جدار فتجذبك الأرض ، ولم أكن أعلم أن هناك جزاء يسمى جزاء سنمار ، فى حكمه أن يصفق الناس للفاشل وأن يضحكوا من المجيد ساخرين . كنت مخلصا ولكننى مكروه . وأشق شىء على النفس أن تسير فى طريق رزقك حذرا تتلفت وتتوقع مع كل خطوة أن تحل بك كارثة . هناك لا يستقيم لك السير ولا تأمن سوء المصير .

ثم انتفخ شدقاه قبل أن يرسل زفرة طويلة حتى كأنه ينفخ فى ناى من القصب ، وفارق المرح ملامحه الساذجة الصريحة السهلة واستطرد يقول :

ــ نعم مضى عامان على حالى هذه ومات أبى وورثنى بين إخوتى الكثيرين مالا قليلا ، ووجدتنى فى الثانية والعشرين من عمرى فتزوجت ، ثم نظر إلى زوجته كأنه يستأذنها فى أن يتابع الحديث ويرجوها ألا تتضايق ، وقال :

ــ وإذا كنا فى وظائفنا نأخذ علاوة كل سنتين فإن اللّه كان يمن على بعلاوة كبرى فى كل عام ، فقد كان يحيينا مع كل ربيع طفل أو طفلة حتى إننا احتفلنا بذكرى زواجنا الخامسة يوم سبوع ولدنا الخامس . (فاحمر وجه السيدة خجلا وفرت ببصرها إلى نافذة القطار فى الناحية الأخرى . أما أنا فقد تبسمت فى أدب) .

ــ وهكذا صدقت فراسة أبى وبدأت أعانى ضائقة مالية ، ولا تسل يابنى

عن حال رجل مضطرب البال فى بيته وعمله ، والبيت دنيا صغيرة مستقلة عن دنيانا نلجأ إليه آخر النهار نطلب فيه راحة وسكنا ، فإذا كان غير مريح لسبب من الأسباب كان سعيره أشد من سعير جهنم ، لذلك فقدت توازنى فهويت مذعورا كالذى يمشى على حبل عال مد بين ساريتين .

ولست أنسى اليوم الذى ختمت به خمس سنوات فى حياة المدرسة ... لقد كان يوما عسيرا ، تركت فيه زوجتى تعانى مرضا شديدا من آثار الولادة وتركت ولدين كذلك مصابين بالحصبة وذهبت إلى المدرسة لأزاول مهنتى المحبوبة . وشاءت ظروفى ذلك اليوم العظيم أن أتأخر عن الحصة الأولى عشر دقائق ، وما اجتزت فناء المدرسة حتى استدعانى الناظر . دخلت ذابل العينين من طول ما سهرت ، وشعرى غير منتظم كما ينبغى . وعذارى نابت غزير ، ورباط عنقى مائل إلى اليمين أو الشمال قليلا فى بنيقة قميصى ، وشفتاى مشققتان ، لأننى لم أفطر ولونى حائل ومفاصلى مرتبكة وحالتى المعنوية هباء وهواء .. فرأيت سيدى الناظر ممسكا بقلم رصاص ومائلا بكرسيه إلى الأمام . وبادهنى حين دخلت عليه بأن طرق بطرف القلم غير المبرى عدة طرقات على ظاهر المكتب لينبهنى قبل بدء الحديث ثم قال : ليست هذه طريقة عمل يا أستاذ ... أسامع أنت هذه الجلبة التى فى فصلك ؟ .. فدخل فى نفسى أن أحد أتباعه قد أشعل الفصل ضوضاء ليهيئ أمرا يريده الناظر ، فاستشطت غضبا وتبادلت وإياه كلمات سباب تجمهر على رنينها أتباع من الإخوان الكرام ، ثم خرجت من المدرسة فى نهاية ذلك اليوم بعد أن أبرمت أمرا لايحل .

وسكت قليلا كأنه يشوقنى للبقية كما ينزل ستار المسرح فى آخر فصل عند مشكلة تشغل النظارة ، ولكن ما لبثنا أن خرجنا جميعا من جو قصته إلى حادثة تافهة وقعت فى القطار ولكنها لطرافتها وجدتها استردتنا من ذكرياته التى شغلتنى واياه .

كانت زوجه غارقة فى ضحك شديد على حين كان القطار آخذا فى

سرعته العادية بعد أن تهادى فترة وهو يغادر إحدى المحطات . أما الركاب من حولنا فبانت على وجوههم آثار انفعال مختلفة المعانى ، فمنهم من كان يضحك لسروره ، ومنهم من كان واجما فى صمت ، ومنهم من كان يناقش رجلا ريفى المظهر يقف إلى جانب إحدى النوافذ . وسمعت أحد الجالسين على مقربة منى يهمس :

ـ ليست هذه أخلاقا .

وتمتم آخر :

ـ إنها لاتعدو أن تكون حيلة لطيفة .

وقال صوت ثالث بصوت عال :

ـ لقد ضحكنا على كل حال ، إنه رجل ظريف .

قالت الزوجة :

ـ قبل أن يتحرك القطار من المحط السابق ، طلب هذا الرجل كوبا من عصير الليمون من بائع يقف على رصيف المحط ... انظروا إليه الآن تعرفوا بقية القصة .

ونظرنا فاذا الكوب لا يزال فى يده وإذا بصوت يقول له :

ـ عصير مثلج بعشرة مليمات ، وكوب بعشرين مليما على الأقل .. إنها حقا غنيمة باردة !

لم أعلق على ما رأيت إلا بنظرة احتقار سددتها إلى الرجل : أما محدثى فجعل يتململ فى كرسيه من وقدة الغيظ ، ويبصق من النافذة بين الفينة والفينة فى حركة عصبية ، كأنما وقعت عيناه على جيفة ، وقد كان صاحبى من قبل فى اكتئاب من أثر الذكرى ، فزاد من اكتئابه ما قد رأى ، فأعار الموضوع اهتماما خلقيا بالغا من المحتمل معه أن يؤدى إلى شجار لو أنه وجه إلى الريفى كلاما مباشرا ، ولكنه ما لبث أن مهد للتخلص من الحاضر والتراجع إلى الماضى الذى عشنا فيه فترة من سفرنا :

ـ نحن يا بنى فى زمن لا يدفع فيه أحد منكرا ، (ثم خفض من صوته كثيرا ليقول) :

ـ لو أن لى أن أعاقب هذا الرجل لحطمت الكوب على رأسه الشرير .
وهكذا كان إخوانى فى المدرسة ينظرون إلى ظلمى كما ننظر نحن الآن إلى ظلم صاحب الليمون ... ساخر ، وآسف ، ومحبذ ، أما أنا فقد قفلت إلى منزلى ظهر ذلك اليوم الذى اشتبكت فيه مع الناظر ، وقد أقسمت بينى وبين نفسى ألا أدخل أبواب المدارس بعد أن أمهد طريقا آخر لرزقى . وألفيت البيت مستشفى صغيرا خاصا ، درت فى أرجائه كارها كالممرض المغبون ، فجهزت الطعام بمعونة خادم صغيرة ، وأعطيت الدواء ، وقدمت الغذاء ، وسويت الفراش ، وأمرت كل مريض بأن يستجم ، وأويت إلى غرفة أوصدتها على لأفكر برهة فى هم نفسى .

وفى أصيل ذلك اليوم ارتديت ملابسى وركبت إلى أحد أطراف القاهرة وهناك فى جنوبها وفى أحضان جبل المقطم ترى بقعة واسعة جرداء تسطع فيها رائحة غريبة تملأ خياشيم المزكوم كأنها رائحة ريش يحترق ، وتمتاز أرض هذه البقعة بأنها كثيرة التراب ، أما سماؤها فلا تخلو ساعة من ساعات النهار من أسراب الحدأ التى تنقض على بقايا الجلود فى نهم وجرأة وشراسة .. ولعلك فهمت الآن أننى قصدت مكانا آهلا بالمدابغ .

واستقبلنى رجل كهل من أصدقاء والدى زاول هذه الصناعة منذ ريعان صباه وأفاد واستفاد . وعجب من أننى آثرت زيارته فى هذا المكان العطن ، ولكننى أخبرته أننى راغب فى أن أنشىء مدبغة وأننى جئت أستعين برأيه وخبرته . فقال صديق أبى : إن كنت تريد المال فتعال إلى هنا وإن اخترت الوجاهة فابق حيث أنت يا بنى .

قال محدثى :

ـ هناك يا بنى تنساب جداول الذهب من ثنايا الروائح المنتنة ومن تحت أقدام أناس يخوضون الخوابى وعلى جسد كل منهم نصف غرارة ، وما أشبه هؤلاء فى مصر بعمال مناجم الذهب فى أوربا !

وقصارى القول أننى نفذت واستقلت ، وكانت ألذ متعة طعمتها نفسى في حياتى أننى وقفت أمام الناظر آخر مرة وأنا أقدم استقالتى . وقلت له :

ـ أنت نقمة فى طيها نعمة ، وقد استضأت بنار ظلمك فاخترت من بين طرق الحياة ما يرضينى .. وداعا أيها الرؤساء ، من غد سأكون سيد نفسى . وقد كان .. ولما وقفت علاوة الوظيفة وقفت على أثرها العلاوة السنوية الكبرى ، فلم يزد عدد أولادى الخمسة الذين ذكرتهم وانفسح لى مجال العمل وأقبلت على الدنيا وتركنا العلم لمن يخدم العلم ، وهم أحد رجلين : إما مستغن ، وإما زاهد .

وضرب بكفه كفه الأخرى وهز رأسه وهو يقول هذه العبارة .

فقلت :

ـ شكرا ، أنت خير من كتاب ، وكأنك عرفت أننى على أبواب مستقبل ، بقى لى يا سيدى أن أتشرف باسمك فهذا يسعدنى .

وأكبر الظن أنه لم يكن معه بطاقة تحمل اسمه ، لأن كثيرا من أصحاب الأعمال لا يمنحون البطاقات أهمية تأسر كبار الموظفين ، الذين يحلون بطاقاتهم بذكر منصب أو عدة مناصب كما يزين الضابط صدره بالأوسمة . وذكر لى صاحبى اسمه ، ولكن أذنى لم تسمعاه ، وحافظتى لم تسجله لأن القطار كان آخذا حين بدأ بذكر اسمه فى عبور جسر على النيل قريب من القاهرة ، فعلت ضوضاؤه وارتفع صفيره حتى لم أستطع سماع ما يقول . وحجزنى الحياء أن أستعيد ذكر اسمه مرة أخرى .. قد تعجب من هذا ولكنه هو الذى حدث .

٣

كثير من الناس مثل « المثانة » التي يعبث بها الأطفال في الأعياد ، ينفخونها حتى تنبعج ، فإذا ما خلوا سبيلها نفثت ما فيها من الهواء دفعة واحدة . نعم كثير من الناس أشباه لتلك ، يحمل الواحد منهم قصة نفسه على مضض فإذا ساقت له الفرص شخصا غريبا عنه ، تخلص منها وألقاها بين يديه .

وقليلا ما يقص عليك أحدهم قصة غير مشرفة ، وإلا لقصصت أنا على صاحبي في القطار فجيعة والدى ، وغالبا ما نسمع في هذه الفرص مأساة خاتمتها النجاح ، ولعل هذا راجع إلى ولوع كل متحدث بأن يرى في مظهر الأبطال .

ولما هبطت القاهرة وجدتني في مدينة كأنني لا أعرفها ، غبت عنها شهرين كاملين ثم دخلتها في يومي هذا ، فألفيتني أتأمل مناظرها بنهم وظمأ كما تتأمل ملامح الحبيب الجميل بعد فرقة طويلة .

على أن نفسي كانت مفعمة بحديث صاحبي الذى كشف لى عن آفاق كنت أجهلها ، ولعل خيالى الخصب الشرود كان يرسمها في وقت من الأوقات سماء لا يبزغ فيها نجم نحس واحد ، أما بعد أن سمعت قصة ذلك الذى ما عرفت اسمه فإن فكرتي عن الوظائف تغيرت ، ولكنه ليس إلى الحد الى أن أقطع فيه بشيء .. وبماذا أقطع ؟؟ إنني لأسخر من نفسي .

لم يكن طريقي في الحياة واضح المعالم ، بل كنت كالمسافر الذى يحزم حقائبه ثم يركب قطارا يصادفه دون أن يأخذ تذكرة . أو كالذى يركب قطار المفاجآت تماما ؟ فإذا سألتني ماذا تنوى أن تكون ؟ قلبت لك

كفى وهززت لك كتفى ، فتعلم أن جوابى : لاأعلم !

أما إذا سألتنى : ماتحب أن تكون ؟ فإننى أستطيع أن أجيبك ، ولكنى لا أفعل إلا بعد أن أثق بك ، وسؤالك هذا يختلف عن سابقه ، لأن نيتك أمرا غير حبك أمرا ، فإذا وثقت بك وعلمت أنك لن تقتات على حيائى أجبتك وأنا محول بصرى إلى الناحية الأخرى ، ووجهى مصطبغ بحمرة خجل خفيفة قائلا : أحب أن أكون أديبا .

ولماذا ؟

لأنه ليس من ذنبى أن تخرجت فى كلية الزراعة ، وليس من ذنبى كذلك وأنا فى الثالثة والعشرين من عمرى الآن ، الاّ يعلم أحد عنى شيئا لأن فرصة واحدة لم تسنح لى .

وسأدع الخوض فى هذا الحديث ، لأنك ستعلم عنه الكثير بعد ذلك .

آثرت أن يكون مرورى على الحى الذى كنت أسكنه ، أول عمل آتيه ، فترجلت من الترام وحقيبتى المتوسطة الحجم فى يمينى وعلى شعرى وحلتى غبار خفيف من غبار السفر ، وسرت قاصدا تلك البقعة التى كانت آخر مطافى فى عهد تلمذتى ، ودخلتها فشعرت أن كأننى أحلم ، واضطرمت جوانحى بمعان غامضة لم أستبن منها إلا أن ماضى المتعثرين فى حبائل الحظ خير من مستقبلهم ، لأنه ماض قد وقع وانقضى ، وفرغنا من الإحساس بآلامه إلا من الذكرى ، أما المستقبل .. فياله من شبح !

كان الحى كما هو بصبيانه الكثيرين المختلفين فى سنهم ، كأنما أنتجتهم معامل التفريخ ، وشرفاته ونوافذه لاتخلو من المطلين كالعادة ، وحارته التى رصفت بأحجار مربعة متلاصقة ، كانت كذلك كما عهدتها . هنا ماء مراق تفوح منه رائحة الصابون ، وهناك قطة أو عدة قطط تتنازع فضلات سمك ملقاة على الطريق ، وغير هذا وذاك عربات بائعى الخضروات الجائلين ، وقفوا وحولهم النسوة ، وقد ارتفعت حولهم أصوات المساومة ، مناظر إن

فصلتها عن أحيائها الوطنية فقدت ماهيتها وضاع قوامها ، فلا تستطيع أن تتصور حيا بدونها ولاتقدر أن تتمثلها بغير الحى ، كأنهما المسرح والرواية كما يقولون .

وبطؤت خطاى فجأة من غير قصد لأننى واجهت منزلا كنت أنا ساكن طبقته الأولى ، ولذ لى كما يلذ لغيرى من الناس أن أرى وجها من وجوه أقامت فيه بعدى . وفى لمحة قصيرة المدى رسم خيالى وجوها سعيدة تنتقل بين حجرتين أو حجرة ونصف حجرة إن صح تعبيرى ، وألح هذا الخاطر على فؤادى حتى لم أستطع مقاومته و لم يكن من المألوف أن أقف وسط الحارة أرقب النوافذ من غير سبب فإنه شيء يلفت الأنظار ، فوضعت الحقيبة وأسندت عليها قدمى وفككت رباط حذائى ثم أعدت ربطه فى حركة بطيئة مصطنعة وعيناى تختلسان النظر نحو النوافذ ولكننى لم أر أحدا .

ماذا عسى أن يكون شأنى مع ساكن أطل فرأيت وجهه !

لاشيء .. إلا أن النفس كثيرا ما تهتم بمصير مستأجر أو مستعار كما تهتم بمصاير الملوك .

ثم اجتزت الحى ذاكرا كل صباح ومساء فيه من عامى المنصرم ، وكانت وجهتى منزل صديق قديم يبعد عن حينا هذا مسير ربع ساعة ، ونيتى أن أنزل عليه ضيفا غير ثقيل حتى يقضى الله فى أمرى قضاءه ، لأن المال الذى استصحبته لم يكن يقوى على احتمال أجر النزل ونفقات الطعام ، وما عسى أن يجد لى من سفر ، وكان صديقى هذا موظفا عازبا يزاول مهنة كتابية فى إحدى مصالح الحكومة ، ظريفا رقيق الطبع ، شابا فى الخامسة والعشرين ، ينظر إلى الدنيا نظرة خاصة به ، فلا يعتبرها أكثر من ابتسامة طويلة المدى ويقول لى : إن هذه الابتسامة سيكون طولها عنده هو ، خمسا وثلاثين سنة لا تزيد ، لأن قلبه أنبأه هذا ، كان بوهيميا مرتجلا فى كل تصرفاته ، معاديا لما يكسب لايفكر فى اليوم إلا إذا أطل من إحدى النوافذ وتحقق تماما أن شمسه قد أشرقت عليه ، وعندئذ يهيىء حساب هذا اليوم .

ووجدتنى على باب منزله ، فى الساعة التاسعة صباحا ، وهو وقت لايكون فيه فى البيت ، ولما صعدت السلم وانتهى بى إلى السطح ، قصدت من فورى إلى كوة عميقة فى إحدى حيطان شقته ، وأدخلت يدى فيها فأخرجت المفتاح ، ثم عبرت فضاء السطح الفسيح الواسع إلى حيث يقبع هذا المسكن الصغير الضيق فى إحدى زواياه كما تقبع الهرة المقرورة .

ولم يكن صديقى على استعداد لأن يشترى لمسكنه مفتاحا جديدا كل يوم ، لذلك تعود أن يتركه فى هذا المكان الذى يعرفه كما يعرفه خاصة الأصدقاء . وبعد دقائق كنت ممددا فى جلبابى على السرير أرقب قدومه بين ساعة وساعة تثب حركات ذهنى من المستقبل إلى الماضى ومن الماضى إلى المستقبل وثبات ناشزة سريعة كالذى يمشى حافيا على أرض محروثة ، حتى غلبنى النوم .

واستيقظت من نومى على صوت مفتاح يدور فى الباب ، ثم على دفعة شديدة أعقبها وقع أقدام ففركت عينى واعتدلت فى الفراش ، ولم يكن القادم غير صديقى « صالح » صاحب المسكن الذى نزلت فيه . فما بصر بى حتى صاح صيحة الفرح :

ـ عبد العزيز .. يالها من مفاجأة ، وهكذا وضعت المفتاح ثانية فى الكوة بعد أن دخلت لتهيىء لى مفاجأة سعيدة .. أه أيها الماكر .

وأقبل على يقبلنى فى شوق واعتزاز وسرور ، ثم قال :

ـ وأخيرا جئت ؟

وشرع يخلع ملابسه : يرمى بسترته على كرسى وسراويله على طرف السرير وبحذائه تحت منضدة ، وهو يسألنى عن شىء ، ولا ينتظر الإجابة ، فيسألنى عن شىء آخر :

ـ هل لذت لك الإقامة فى الريف ؟ .. هيه يا عبد العزيز ، .. كيف

صحتك ، لعلك بخير .. أوحشتنا وا لله .وكيف خلفت والديك .. ولكن قل لى : أما زلت مولعا بكتب الأدب ؟؟

كل هذا وهو فى شغل بخلع ملابسه وارتداء ثوبه المنزلى ، وما إن فرغ حتى اتجه إلى بكل ما فيه ، وأنا فى سريره راقد وقال :

ـ ما بك يا صديقى إننى أنكر حالك ؟

قلت :

ـ لا شىء ..

قال :

ـ من الجائز إذن أن تكون قد أرهقت نفسك فى مآسى القصص التى تبكيك ، وفى الناس ناس لا يبكون للواقع .

قلت :

ـ بل إنها قصتى .. قصة أبى .. وقصة إخوتى . وقصة المستقبل يا صالح .. قصة غزل نقض ، وصرح هدم ، وآمال تداعت ..

(ولست أعلم ما الذى كان يبدو على وجهى وأنا أقول هذا المقال ، لأن صديقى هذا الذى لا يبالى ولا يألم ، قطب جبينه وسارع إلى إسكاتى كما تمسك برجل قبل أن يلقى بنفسه فى اليم) قال :

ـ كفى .. كفى .. بحسبك . دع هذا العبارات الآن ، (ثم ابتسم ليخرجنى من مأساتى ، قائلا) : نعم دعها لأننى محتاج إليها فى رسالة غرام ستمليها على بعد قليل ، فقد كانت رسائلى إليها فى غيابك ضعيفة إلى حد بعيد .

واكتست ملامحه ثانيا أمارات الجد ، وجلس إلى جوارى على طرف الفراش وقال :

ـ أخبرنى بالأمر على هيئة سهلة . أريده صورة فى غير إطار لأنك كثيرا ما تبالغ .

فنفضت إليه ما حدث لأبى ، وما أنا بصدده الآن من بحث عن الوظيفة ، فإذا به يضحك ملء شدقيه ، يضحك حتى يستلقى رأسه إلى الخلف ، وحتى أرى لهاته ، فكدت أغضب ، لكننى ذكرت طبعه ، إنه كتاب عن البوهيمية .

قال صالح ، وقد مال إلى :

ــ استمع يا صديقى : أيحزنك ضياع مالك ؟

قلت مسرعا :

ــ بلا شك .

قال :

ــ أيها القارئ الحاسب الأديب ، ليس عندى ما أقوله إلا حادثة واحدة رأيتها فى أحد نوادى المقامرة .. وسكت ليرى فى عينى وقع هذه المقدمة التى ظننى لا أحمدها ، فلما لم أعترض عليه أكمل :

ــ تقدمت خطى الليل حتى لم يبق على المائدة الخضراء فى النادى غير رجلين ، ضايقت أحدهما الخسارة فأصر على اللعب الطويل ، حتى استنفد كل ما فى جيبه ، وأراد الكاسب آخر الأمر أن يضايق هذا الخاسر ويشعل نار غيظه ، فقال له قبل أن يقوما : أتدرى يا صديقى لم صنعت النقود قطعا فضية مستديرة هكذا ؟ (وعرض عليه قطعة منها) فقال الخاسر وهو يهز رأسه : لا أدرى . فقال الرابح : ليرصها الذى يكنزها مثلى بعضها فوق بعض هكذا ! (وجعل يجمع ما على المائدة ويضم القطعة إلى القطعة وهو يقهقه) .

ولكن الذى خسر قال له قبل أن يقوم : أخطأت يا صاحبى . أتدرى سببا آخر غير الذى قلته ، لصنعها مستديرة ؟ قال : لا . فقال : إنها سكت مستديرة على هيئة العجلات لتروح عاجلة من العالى إلى الخفيض أعنى من الكريم إلى اللئيم . فأعجبنى منطق الخاسر حتى اعتنقت مذهبه واحتقرت المال .

فكان مثال صاحبى هذا كقطرة الماء هدأت غليان قدر .

شئ لا يقبله المنطق ولكن النفس تسكن إليه .. آه .. إننا فى كل مراحل حياتنا أطفال ، تلهينا اللعب ، غير أنه لكل سن لعبة .

وبعد غداء خفيف تحمل صاحبى كل نفقاته ، جلسنا ندخن ونشرب القهوة ، وقد استطاع صالح بما أشاعه حولى من المرح أن ينقلنى إلى جو تنفست فيه بسهولة ، جو من التفاؤل النسبى ولو إلى حين .

جعل يحدثنى عن كتبى التى تركتها مع أثاثى الخفيف وديعة عنده ويقول :

ـ إنها لم تغن عنى شيئا فى كتابة رسائلى الغرامية . عجيب يا أخى أن يتحد وقع الحوادث على قلوب الناس وأن يختلف كل فى طريقة التعبير عنها . كنت أحس أن نفسى تجيش بمعان أريد أن أسطرها على صفحات الرسالة ولكننى لا أستطيع ، لذلك أريد أن تملى على عدة رسائل تتناول كل واحدة منها معنى أو حادثة من التى تكون عادة بين المحبين ، فإذا ما غبت عنى أو تخليت عن معاونتى استطعت بتغيير يسير أن أحصل على الرسالة المطلوبة فتتناول الأولى فناء الحبيب فى الحبيب ، وتتعرض الثانية للهجر والدلال ، والثالثة للاعتذار ، وهكذا .. وهكذا ..

كان الاهتمام آخذا عليه كل مشاعره كأنه يعالج مشكلة حيوية كبرى ، وكانت حقيقة موقفى أننى غير مرتاح لهذا المسلك الفج ولا لتناول الحياة بهذه الطريقة ، لكننى ــ ولا اكتمك ــ كنت أحسد هذا الإنسان ، والمرء إذا حفت أمانيه بالمخاوف وكان حريصا على النجاح ، ألفى نفسه حاسدا من هم على النقيض من موقفه .. يحسد الغافلين ويغبط المتواكلين .

وفرغنا من أمر رسائله المحبوبة ، ثم أذنت شمس يومنا بالمغيب ، فجمع صالح أشتات ثيابه من كل مكان ، وخرج إلى حيث تحلو له السهرات ، أما أنا فقد بقيت حيث أقلب أمر نفسى وأتسلى بالقراءة .

أويت إلى فراشى فى الساعة الحادية عشرة ، وجعل حلم يقذفنى إلى

حلم ، ولشد ما يرهقنى أننى من الذين يكمل ليلهم نهارهم وتتمم يقظتهم أحلامهم ، بشكل واضح وإلى حد بعيد ، على أن نوم بعض الناس انقطاع واستغراق يرتاحون فيه من سعير الحياة .

رأيتنى جالسا بين أبى وأمى وأبى غارق فى قفطانه كأنما استعاره من رجل طويل جسيم ، ورأيتنى فى القطار مستمعا إلى حديث جليسى السمين ، ورأيتنى ماثلا ـ مقدما ـ بين يدى من أرجو عنده الوساطة .. وغير هذا وذاك من أفعال وحركات قلق وارتباك .

واستخلصنى من حلمى المظلم الثقيل فتحة الباب وصوت صالح يقول فى أخريات الليل :

ـ عبد العزيز .. أنائم أنت ؟

وكانت نبرات صوته المتعثرة تدل على أنه مخمور ، فأفقت قليلا وبدد بقية النوم توهج مصباح الكهربة حين أدار زره ، وجعلت أتفرس ملامحه وأنا أقول فى نفسى : حسن .. لقد ابتدعوها طريقة للفرار من هموم الحياة وهم مقيمون على ظاهر الأرض . طريقة متوسطة . أدنى درجة من فرار المنتحرين ، ولكن أهى محمودة ؟ .. كلا .

ـ عبد العزيز .. أنائم أنت ؟ ها .. ها .. ها .. هاى . يقولون إن المرء ينام من عمره عشرين سنة .. ثم .. ثم يا صاحبى ينام بعد أن يموت .. سنوات لا أقول عددها .. حتى لا تتهمنى بالإلحاد .. وأنا مؤمن .. ربما ينام ملايين السنين ، لذلك ينبغى أن نذود النوم عنا ما استطعنا ..

عبد العزيز .. اسمع يا صاحبى (وقام من مقامه مقبلا علىّ باهتمام شديد حتى دخلنى الخوف ووقف أمامى كأنه يخطب) :

ـ لقد حزنت على ضياع ثروة أبيك ، أما أنا فإننى أحتقر دنياكم هذه ، أذبنا همومها فى النبيذ .. إياك أن تظننى سكران أهذى .. دنياكم هذه مومس هلوك ، أعرض عنها تقبل عليك .. لا تسألنى عن تفسير هذا فإننى لا أستطيع .. إن ذهنى الآن لا يدرك إلا المعانى الكلية المجردة

السامية فلا يتدلى إلى حضيض الجزئيات .

ثم ما لبث المسكين أن فارقته اللمعة الخارقة الحادة التى تنتاب أذهان السكارى فى قليل من الأحيان ، فعاد إلى طبيعة السكر وجعل يقول :

- كدت أضل الطريق وأنا راجع ، فقلت ساخرا : لولا شرطى المنطقة . لكنه قال وهو يقهقه :

- لولا أنه فى هذه الخزانة التى تراها زجاجة من النبيذ المعتق ، خمسة وثلاثون عاما .. أجل .. أجل . خمسة وثلاثون عاما سأحياها . بقى منها عشرة ..

قلت له :

- إن شمعة شبابك الموقدة قد تفتحت عليها نوافذ الملذات .. وعبث الهواء بشعلتها مدعاة إلى سرعة احتراقها .

(لقد داخلتنى فى هذه اللحظة حسرة عليه) فقال وهو يرمى بجسده المتهالك على الفراش بجانبى :

- دعها تنفد بسرعة فإننى أحتقر دنياكم ، وثق أنه لن يكون من ذوبها شمعة أخرى .. فلن أتزوج .

وما لبث أن غط فى النوم كأنما سحبه من تحت الوسادة .

٤

خرج صديقى فى الصباح إلى عمله متأخرا كعادته كـل يوم ، حتـى إنه لم يعقد رباط عنقه إلا وهو يهبط درج السـلم مسـرعا . وهنـاك بين أكداس الأضابير على المكتب يتناول الشاى وطعام فطوره .

أما أنا فقد استخرجت من حقيبة سفرى رسالة زودنى بها أبى ، مـن نائب الدائرة إلى موظف كبير فى وزارة الزراعة يستوصيه بى خيرا ، وقد حملت إلينا من أول الأمر مغلقة فلـم نقـرأ مـا فيهـا . وتملكنـى خـاطر لم أستطع دفعه وهو أن أفض الغلاف أقرأ الرسالة ، ثـم أغلقهـا مـن جديـد دون أن أكتب العنوان على غلافها مرة أخـرى واكتفيـت بـأننى حفظتـه وفعلت .

ومـا إن فرغـت مـن قراءتهـا حتـى وجمـت .. عجبـا لهـؤلاء النـاس ، لا أدرى كيف يفكرون ، لم تكن لى من كفاية يعتز بها النـائب ويجعلهـا وسيلته إلى الشفيع إلا أننى ابن فقير أناخ عليه الزمن ، هذه هـى المواهـب التى أيقن أننى سأزاول بهـا عملـى بنجـاح بـاهر ، أمـا أننـى مسـتقيم ، ذو كفاية يرجى فى أن أكـون موضـع تقديـر فـى وظيفتـى فذلـك شـىء جدير بأن ينسى .

وأحسست موضع ألمى بالضبط كما يصدمك حجر طائش فى مكـان مجروح من جسدك ، حتى خيل إلى بعـد أن خرجـت سـاعيا بين النـاس أنهم جميعا يعرفون قصة فقرى وأننى لا أخفى على أعينهم كالذى فر من السجن بملابس السجن وضح النهار . وأتلف هذا الخاطر كـل تصرفـاتى فلم تعد مستقيمة حتى صرت فى مدينة القاهرة أشد ارتباكا مـن الريفـى الذى أجبرته الظروف على استعمال شوكة الطعام للمرة الأولى فى مكان عام .

وفكرت فى أن أمزق هذه الرسالة ولا أذهب إلى الشفيع وأن أكتب إلى والدى زاعما أن مسعاى لم يوفق . ولكن هل أجرؤ ؟ لقد ربينا على أننا لا نكذب ، وكانت تصرفاتنا الكاذبة أنا وإخوتى تحمل معها دليل كذبها من حيرة فى العينين وارتجاف فى الأوصال يزيد أمرنا المكشوف وضوحا لفطنة أمى على الخصوص .

كانت قدماى تنهبان أرض الشارع فى حركة غير واعية وأنا أفكر فى كل هذا ، وخيل إلى أننى إن كتبت إلى أبى رسالة مفتراة فستحمل معها دليل اختلاقها فتكون على هذه الصورة :

« لم أستطع مقابلة الموظف الكبير يا أبى فى ديوانه لأنه فى شغل دائم بين العمل واللجان وأخيرا قابلته فى إحدى الأمسيات فى منزله ، .. فى الحديقة التى تجلى فيها فن رجل الزراعة ، بين زهر وبقل وحظائر دواجن ولكنه أيأسنى .. إن باب الوظائف مقفل ، وسأسعى فى عمل آخر » .

وهذه الرسالة فى متناول قريب من عقلية خريج الزراعة عن موظف كبير فى وزارة الزراعة ، ولكن أبى يعلم كما يعلم النائب أن من حدثته عن حديقته ودواجنه رجل نباتى لا يأكل اللحوم قضى عليه بعد وفاة زوجته الأولى ألا يتزوج ولا ينجب ، لأمر لا يعنينا منه شىء . وابتسمت ساخرا من خيالى ، وبدا لى أن أصلح من شعرى لأنه طويل ، ولأننى على عزم أن أقابل أناسا ، فعرجت على دكان حلاق ، ولما استويت على كرسيه أسلمت شعرى لضربات مقصه التى تبعث على الملل وجعلت أسلى ملالى بقراءة إحدى المجلات الأسبوعية التى تحفل بها عادة أمثال هذه الأماكن .

وهنا يحق على أن أقف قليلا لأنبهك إلى أن النفس تستسيغ من المشارب ما يوافق حالها فى كل ما يتعاورها من رضا واكتئاب وقد كنت مكتئبا ، فلا تعجب أن رأيتنى أتوقف طويلا أمام هذا العنوان خاصة لأقرأ ما تحته .

كانت حادثة انتحار عصرية لعبت فيها الحضارة والاقتصاد معا دورا مرموقا طريفا : أصبحت الأسرة التي تتكون من أم وثلاث بنات كبيرات قعيدات البيت وغلام صغير لا يزال يتردد على باب المدرسة ، أصبحوا جميعا فاستبطئوا يقظة الأب من النوم فلما فتحوا عليه حجرة نومه تراجعوا مذعورين .

كان راقدا في سريره والملاءة من تحته أرجوانية اللون لأنها تشبعت بدمه ، وعلى أرض الحجرة منه شيء غير قليل ، ووجهه في مثل بياض الثلج ورأسه جلله المشيب مائل على الوسادة وهو مستلق على ظهره وإحدى ذراعيه متدلاة من السرير في تراخ لا حياة فيها كأنها غصن طرى ذابل . وبين صيحات الفزع ولطمات الخدود رأت كبرى البنات خطابا في مكان ظاهر بجانبه في الفراش كأنه ينادى الناظرين إليه ، فاختطفته في ذهول وشرود وقرأت فيه : « بنى وبناتى » .

أعتذر إليكم لأنه لم يكن بيننا وداع متبادل ، فقد كان منى وحدى ، أعنى من طرف واحد ، وأعتذر إليكم لأننى فزعتكم ونشرت فى أفقكم سواد الحزن وحمرة الدم ، أعتذر إليكم قبل أن أثب فجاة إلى العالم الثانى وأبعث إليكم القبلات .

إن إسرافى فى حياتى التى لم تكن قصيرة أدى بنا إلى الإفلاس ، وكان حمقى كحمق الذى زعم أنه يخرق مكانه فى السفينة فأغرق كل من فيها ، وأصبحت غير قادر على كسب يرضيكم ويحيط مستقبلكم فأسلت دمى قربانا على مذبح الأسرة .

أما المحكمة التى سأمثل أمامها حين يكون كتابى هذا بين أيديكم فأنا أومن بأنها عادلة ، بل عادلة رحيمة ، وإنى مطمئن إلى قضائها ، لقد قطعت شريانى لأموت وستدفع لكم شركة التأمين بعد مواراة جثمانى ألفين من الجنيهات . وهذا هو المال . رزقكم الله حنانا . ورزقنى غفرانا . وداعا أخيرا » .

والنفس الكسيرة المكدودة أشبه شيء بالجسم الذى لاحصانة فيه ، هذا تعرض له الأمراض ، وتلك تعرض لها المآسى ، أو عللها بما شئت .. وتجمدت نظراتى على الصفحة وبدا على الشرود ، وكان الحلاق ولا شك يراقب منظرى فى المرآة . وجعلت أناقش الموضوع :

أهو انتحار ، أم هذه تضحية ، أم هو استشهاد ؟ المسألة فى رأيى فيها نظر .. عضو من الجسم أدى معظم رسالته ثم بتر نفسه ليحيا سائر الجسد .. جندى شجاع ابتلع سما فمات لساعته قبل أن يظفر بسره الأعداء .. شخص واحد أنقذ مجموعا من الغرق ثم ابتلعه اليم .. إنسان كان سببا فى وجود أناس ولذلك كفلهم ثم اقتضته الكفالة حياته . ما الفرق بين قولنا لتحى الأسرة وبين قولنا لتحى الأمة ، وما الأمة إلا مجموعة من الأسرات ، لقد مات فى سبيل الأسرة ، أو قد مات فى سبيل الأمة ، فماذا أنتم قائلون يا علماء الأخلاق ؟

ــ نعيما .

ــ .....

ــ نعيما يا سيدى .

ــ أنعم الله عليك .

وانتفضت على الكرسى كما تفيق من حلم مخيف ، ثم ما لبثت أن دخلت فى غمار السائرين فى الشارع ، وأنا أقول : هل أستطيع أن أقدم على هذا ؟ لقد قلت عن « صالح » ليلة امس : إن السكارى يفرون من هموم الحياة وهم على ظاهر الأرض ، فهم إذن أدنى درجة من المنتحرين ، وكنت ساخطا على كلا الموقفين فما الذى حملنى أن أرضى عن موقف هذا المنتحر ؟ يخيل إلى أن حكمنا على جسام القضايا فى التخيل يختلف عن حكمنا عليها فى عالم الواقع ، وكثير من الحوادث يفرض نفسه على عقولنا بعد أن يقع .

ولا أستطيع الآن أن أحدد لك موقفى ، تماما ، فقد بلبلت هذه

الحادثة التى قراتها بقية خاطرى ، فأصبحت لا أنظر إلى الأجر والعمل على أنهما وحدة متصلة ، بل أصبحت كفة الأجر عندى أكثر رجوحا .. أريد المال .. نعم ، كل جارحة من جوارحى ، وكل ناحية من نواحى نفسى تعج وتتنزى .. أريد المال لأنقذ الأسرة .

وقلت لك : إن توقع الكوارث لا وقوعها كفيل بأن يخيفنى . وليست هناك كارثة أشد على أمثالى من الشباب من أن يدفعوا عن باب الوظيفة التى تعلقت بها أفئدتهم .

ومن العجيب أننى اليوم أصبحت لا أرتاع إن توقعت ردى غير موفق لأن مسألة الحصول على المال من أى عمل شريف قد احتكرت كل اهتمامى .

كنت بعد قليل أسحب قدمى بحذر على أرض إحدى الردهات فى وزارة الزراعة ، لأن ارتباكى صور لى أن خشبها الناعم اللامع المدهون سيكون مدعاة لزللى إن لم أقدر لرجلى موضعها كمن يمشى فى الوحل .

ثم تصورت السعاة فى حللهم الصفر يضحكون من سقطتى وقد وضع كل منهم أمام باب حجرة مقفلة وبهيئة خمنت أن للنظام دخلا فيها ، ولم يحدث فى حياة تلمذتى ما دعانى مرة واحدة أن تقع عيناى على مثل هذا المنظر فتذكرت فى هذه اللحظة المتاحف المصرية القديمة ، حيث يتثاءب على جانبى كل باب من أبوابها تمثال أو تمثالان .

ودنوت وجلا متعثرا من أحد هؤلاء الجالسين ويدى فى جيب سترتى ممسكة بغلاف الرسالة كما تحرص على جواز المرور ، ثم سألت عن الموظف الذى أريده فرد على الساعى وهو جالس يعبث بأطراف شاربه الطويل :

— فى لجنة ..

(ألقاها بسرعة الذى يريد أن ينتهى من عمل) .

— إننى أحمل إليه رسالة .

ـ فى لجنة يا سيدى . (ولا أدرى لم ابتسم) .

أما وأنا أعبر الردهة المدهونة الخشب وأنا راجع فقد كنت لا أخشى التعثر ، وصدقنى أنه لو كانت أرضها من الجليد لتزحلقت عليها بمهارة بحيث لا تزل قدمى . كنت أريد أن انشق هواء الشارع ، وكم حمدت الله أن الموقف لم يطل على ..

ونشقت الهواء شذيا نديا فى متنزه واسع قريب ، كنت أخطو على عشبه فيميد تحت قدمى برفق لكن خطوات تفكيرى لم تكن كذلك وكنت أقول مثلا : أليس من الجائز أن يكون هذا الساعى مكلفا رد أصحاب الرسائل ، ومطلبى منقوش على جبينى بحيث يعرفه أشد الناس غفلة ، ولكن من الخير أن أنتظر هنا ساعة ثم أعود عله يكون قد فرغ من اللجنة .

ونفضت عن ثيابى حبات من السمسم تناثرت عليها بعد أن فرغت من أكل كعكة اشتريتها وكانت فطورى وانا جالس على الحشيش ، ثم جعلت أدخن وفى عزمى أن أعود إلى الوزارة التى كانت منى على مرمى البصر بعد أن أفرغ من لفيفتى هذه . ثم فرغت ولكنى لم أزايل مكانى بل جعلت أرقب تقلص ظلال الشجر والنخيل من مكان إلى مكان على أرض الحديقة ، وكان ظلا غير كثيف . فأوحى إلى أن فى الدنيا رجالا لو خلقوا ظلالا لكانوا هكذا .

وما لبثت أن وثب إلى خاطرى نص الخطاب الذى تصورت أننى كتبته إلى أبى مدعيا فيه أن الموظف الكبير فى شغل دائم بين العمل واللجان ، فابتسمت ابتسامة يائسة وقلت : لقد تحقق شطر منه .

كانت إرادتى نهبا بين حاجتى وحيائى ، يتجاذبانها فيما بينهما كما تشد خيطا من المطاط بين ذراعيك فيمتد ثم ينقطع متى فرغت طاقته .. وأخيرا كان للحاجة النصيب الأكبر من إرادتى لأننى استرجعت الصورة المؤثرة التى ودعتنى بها أسرتى ، وتمثلت بوارق الرجاء التى رأيتها علىَّ

وجه أبوى فى نور المصباح الريفى الساذج ، فسرت متثاقلا . وما إن دخلت فناء الوزارة حتى سمعت من ينادينى باسمى فأحسست شيئا من الأنس يحسه الضالون فى الغابة إذا ما سمعوا صوت إنسان ، لأنى كنت فى وحشة شديدة . ودرت على عقبى فإذا بالذى ينادينى زميل تخرج معى هذا العام فأقبلت عليه متهللا مسلما ، ودار بيننا حديث فهمت منه أنه عين مهندسا زراعيا فى الصعيد ، ثم قال لى :

ــ وأنت ؟

قلت :

ــ لا أزال حتى الساعة خريج كلية الزراعة فقط .

قال :

ــ وهل تسير وحدك فى هذه الطريق الغامضة ، إن طريق الوظائف الآن يحتاج إلى دليل .

فقلت له :

ــ عسى أن يوفقنى الله (وتصافحنا وافترقنا) .

لم يكن الساعى قد غير مكانه من كرسيه فى الردهة ولم يكن قد كف عن العبث بشاربه ، ولم تكن نفسى فى حالة خير من التى كانت عليها فى هذه المرة الأولى . ولما خطوت نحوه لم يكن متجها إلى لكن وقع أقدامى القريب نبهه لقدومى :

ــ من فضلك ، هل انفضت اللجنة ؟

ــ انفضت اللجنة .

ــ أريد أن أقابل البك .

ــ غدا إن شاء الله .

ــ ولماذا لا أدخل اليوم ؟

ــ لأنه انصرف .

ــ أشكرك .

— .....

آه يا أبى !! لقد أردت أن تصنعنى بيديك أنت كما تشاء ، فـأنزلتنى من سماء الشعر وأخرجتنى من جنة السحر فى عالم الأدب ثم دفعتنـى إلى المعمل حيث المخبار والسحاحة ، وإلى الحقل حيـث الـزروع والآفـات ، فأخرجت منى مسخا مشوها لا هو الزارع ولا هـو الأديـب ، مـن أجـل ذلك يا أبى لم تتسع لى مداخل الحياة !!

٥

أريد أن أرتاح ولو راحة يأس لأن أملي كان حملا فادحا أرهق قـواى .. كنـت كمـن يتوقـع عقوبـة صارمـة لا يعـرف مداهـا ، فتلهـف إلى حركات شفتي القاضي وهو ينطق بالحكم .

وأظلني مساء وأنا واقف لـدى بـاب بيـت جميـل أسأل البـواب عـن ساكنة الكريـم ، أمعـك بطاقـة ؟ فتخلصـت مـن الرسـالة التـى حملتهـا وقدمتها إليه ، فما لبث أن غاب عني ثم عاد يقول لى : تفضل .

وصعدت سلما قليل الدرج وأنا في غمرة من الأسى ، لأني تصورت الموظف الكبير يلقي على نظرة عطف أونظرة احتقار بعـد أن قـرأ رسـالة النائب ــ وقد علمت أمرها ـــ ومعنـى هـذا أننـى إن رددت فلـن أكـون راضيا . عوملت بلطف أو عوملت بعنـف فلكـل عنـدى تـأويل سـيئ .. لأنني فقير .

وآنستنى منه ابتسامة خفيفة قابلنى بها ساعة دخلت كانت سببا حال بين قدمـى وبـين العثـور فـى طـرف السـجادة التـى بسـطت علـى أرض حجرته . و لم يكلف نفسه عناء التصافح بعد أن رد على تحية المسـاء بـل أشار إلى كرسي قريب آذنا لى بالجلوس .

وجلسـت على طرف المقعد جلسة غير متمكنة ، جلسة الذين يريدون القيام العاجل السريع . ثـم جمعـت أشـتات أعصـابى وغـالبت اضطرابى حتى لا تخرج الكلمات مـن فمـي لاهثـة مرتجلـة فـأفلحت فـى ذلـك إلى حد ما ، وألقى الموظف نظرة على الرسالة التى كان لا يزال ممسكا إياهـا بين سبابته وإبهامه ثم عاد فنظر إلى ليقول :

ــ ليس لحضرة النائب يا بنى أن يرجو فحسب ، ولكن من حقه علينا ان يأمرنا ، ونحن في خدمته ..

فتتابعت دقات قلبى ، وكاد الفرح يبكينى ولكن عينى لم تتحولا إليه وتشاغلت بتأمل نقوش السجادة وأنا مطرق ، وتركته يتابع الحديث :

- نعم نحن فى خدمته ، ولكن أحب أن أستوضحك شيئا فى هذه الرسالة .

قلت :

- مر يا سيدى (وزحفت ظلال اليأس إلى قلبى) .

- لم يوضح حضرة النائب ما إذا كانت هناك وظيفة خالية بالذات جئت تستعين على أن تشغلها ، أو أنه يطلب منى البحث والتوظيف فى وقت واحد ؟

- إن لم أكن مخطئا يا سيدى ، فإنه يقصد المعنى الأخير .

قال وهو يبتسم :

- هذا حسن ولكنها طريقة غير عملية .

ومن الخير فى مثل هذه المواقف أن نبخل بالجهد الذى نبعثره فى البحث عن المكان الخالى لننفقه ساعين فى أن نشغل المكان الخالى . وهنا تظهر يا بنى مشكلة الوقت ، ووقتى ليس ملكى كما تعلم إنما هو ملك للدولة .. أعمال .. ولجان .. وأسفار .. وغير هذا وذاك . ولولا أن بى وعكة خفيفة ألزمتنى بيتى الليلة ما وجدتنى .. إنه من حسن حظك .

فنهضت واقفا ، وهبطت على شجاعة غير عادية لعل لليأس دخلا فيها واستطعت بها أن أسأله قبل انصرافى :

- هل يستطيع سيدى بأن يبصرنى : أى الثلاثة فينا أصلح للبحث عن المكان الخالى : أنا ؟ أم والدى ؟ أم حضرة النائب ؟

فنظر إلى نظرة لمع فيها بريق غضب خفيف ، ولم أكن ليغيب عنى أنه سيغضب ، ولكنى ما رضيت لنفسى أن يظننى غبيا . قال :

- المهمة شطران كما ترى فتصرفوا فى شطركم كماتشاءون .

قلت :

ــ شكرا .

ودرت على عقبى فارا من الحجرة في بيته بنفس حالتى التى فررت بها من الردهة فى الوزارة .. لقد كنت أريد أن أنشق الهواء .

* * *

اصطحبت معى عشائى وأنا فى طريقى إلى البيت ، وما كان غير ثلاث قطع أو أربع من سمك السوق ورغيف وحزمة من الجرجير ثم جلست أتعشى هادئا متشهيا بنفس الراحة والإقبال اللذين يتناول بهما الطعام فى غرفات السجون من أيقنوا أن الموت غايتهم . ولم يكن باب الشقة موصدا تماما فسمح لقطة من القطط أن تلج على الباب وأن تقف قريبا منه وهى تموء مرة أو مرتين قبل أن تغادر مكانها وكأنها تستأذن ، فلما لم تر منى زجرا ولا أذى تقدمت نحوى تتملقنى فى سكينة وتمسح جسدها الناعم فى ساقى فألقيت إليها قطعة صغيرة حذفتها من عشائى . ثم فرغت من أكلها وفرغت فوثبت إلى حجرى وأنا جالس ثم جثمت تهر ، وجعلت يدى تمسح شعرها ورأسها فى رفق وحنان ...

معذورون !! معذرون هؤلاء الذين يصطفون من الحيوان ألوانا يسبغون عليها من النعم والعطف ما لا يسبغون على إنسان ، لابد أن نفوسهم شقيت زمانا بوحشة أو اضطهاد أو ظلم من الناس ، لأننى فى هذه اللحظة ساعة اطمأنت إلى الهرة ــ بعد أن نالت من عشائى ــ كنت على استعداد لأن أقتسم معها نعيم طارئ جديد .

ثم فررت إلى دنيا الكتب التى وصفها لى صديق القطار وصفا لا أومن به فقال : إنها فاكهة شمع أو صلصال .

وجدت كثيرا ممن وعى التاريخ أسماءهم ونصبوا على الأزمان منارات هداية للبشرية ، قد وقفوا على عتبة المجد طويلا يحسدون من سبقوهم من الأمجاد ، ثم يحاولون الدخول مرة بعد مرة فيدفعون ، ثم يتبدل الموقف فى لحظة قصيرة حتى نراهم من الماجدين . وليست الغرابة فى هذا ، بل

الغرابة فى أن يقول عنهم الناس بعد ذلك : لِمَ لم يكونوا أول الأمر كذلك ؟!

هذا شاعر شاب حيي متردد يأوى بقصيدة من قصائده إلى صاحب مجلة ويدخل عليه متعثرا فى أذيال حيائه : يقدم القصيدة وهو غارق فى عرق خجله ، ثم يعود إليه بعد زمن ليرى رأيه ، فيقول له الأديب صاحب المجلة : إن طريقتك يا بنى ليست كطريقة أحد من فحول الشعر فى عصرنا الحاضر ، إنها نسل مشوه غريب من زوجين ليسا من نوع واحد ، وأنصح لك يا بنى أن تسلك نهج أحد الشعراء الذين ذاع صيتهم وسحرت الأسماع أنغامهم فذلك خير لك ، فيأخذ الفتى قصيدته والجزع يمزق فؤاده ، ويقفل بها راجعا إلى بيته وهو يكفكف عبرته فى الطريق ويقول : لقد اغترفت شعورى من فؤادى !!! وما إن تضمه غرفته حتى يوصد عليه بابها ويشعل فى أوراقه نارا ، ثم يرقبها وهى تحترق ، بوجه ساهم ودمع واكف ...

وهذا قصصى ردت عليه المطابع والممثلون ثمانى قصص ألفها فنضد بعضها فوق بعض على مكتب صغير ليكسوها تراب النسيان ، وحلف ألا يكتب بعدها شيئا إلا قصة تاسعة يصور فيها مرارة فشله .

وهذا مصلح يقولون له : أيها الملحد ، فيفر من مكان إلى مكان ...

وأخيرا يصفق المجتمع لهؤلاء جميعا ثم يفتح لهم ذراعيه ، ويفتح التاريخ سجله الكبير ليكتب فيه بقلمه العتيق أسماء هؤلاء العباقرة الذين أملوا عليه أسماءهم ، ولا يلبث الناس بعد قليل أن يشيعوا أحدهم إلى القبر ، فى أسى وحسرة ، ويعودوا ليمتعوا عقولهم بتراثه ، ولكن عيونهم تحن إلى صورته فيقيمون له تمثالا ..

قلت : هذه قصة كل عبقرى ، أجل ، وهذه قصة كل تمثال أقيم فى ميادين العالم ، إن فى المجتمع شبها كبيرا من المرأة ، تمتع ودلال وصدود ، ثم وصل غير محدود قد يمله الموصولون أنفسهم .

ثم دخل على « صالح » نصف مخمور ، فحياني تحية المساء ، وفاجأني بقوله :

- وبعد هذا ستقول لى إنك لا تعرف الحب يأيها الخبيث .. لقد رأيتك معها والله .

- مع من يا صالح ؟

- مع حبيبتك ، لا تقل إنها ابنة عمك فليس بينكما وجه شبه ، ولا تقل إنها غريبة ضلت طريقها فإنها بنت الطريق .

- لا ؛ بل أقول إنك سكران .

- ولا هذا أيضا ، ليس من الصواب أن تقوله ، لأننى كنت فى حالة استيقنت فيها ملامحها واضحة : خضراء العينين ناعمة الصوت ... رقيقة ... وديعة .

فنظرت تحت قدمى وضحكت وأنا أقول :

- وتناجينى بالمواء والهرير وتقاسمنى عشائى القليل .

لا زلت أعجب يا صالح من الذين تعجز مشاكل العيش على أن تسد أمام قلوبهم طريق الحب . لقد قرأت عن كثير من أبطال الفنون أن الحب روى عبقريتهم الثابتة فنمت وازدهرت حتى عطر الأزمان شذاها ، وقد كانوا يعثرون فى طريق الرزق ، أما أنا الآن بعد أن حلت بأسرتى هذه النكبة المالية ، فأعتقد أننى أفر من حب قد يعرض لى .

على أننى رقيق القلب بحيث ينفذ من شغافه كل مس خفيف ، وقد كان لى أيام تلمذتى هوى مثالى طاهر عذرى خلقته المجاورة أو المصادفات ، ثم جرى لغير غاية واضحة ثم سكت الحب وتكلم الرغيف ، فنسيت .

وأستطيع أن أعود فأقول : إنه حب الأسرة ، ألغى كل حب وقام يدعونى .

قال صالح :

- تحيا الأنانية ، إن الأنانيين مستريحون .

قلت :

- لقد أخطأت فهم الأنانية إذا قصدت بها أن المرء يعيش فى نطاق نفسه ، بحيث تكون نفسه وحدها هى الدنيا بحذافيرها ، فيحقق لها الخير ولو أركب غيره مراكب الهلاك . هذا لا يسمى أنانيا إنما هو شرير .

أنا أنانى حين أريد أحقق خيرا لأسرتى ، وأنانى حين أسدى النفع لصديقى ، وأنانى حين أغزو بلادا أخرى فى جيش وطنى ... أنانى فى كل هذا لأنه مضاف إلى شخصى وتعود على منه منفعة مباشرة أو غير مباشرة . فالصداقة ، والقرابة ، والوطنية ، كل منها صورة من صور الأنانية التى أفهمها أنا . أما أنت فقد ضغطت معناها وضيقته إلى حد أحاله إلى شىء جديد ، ولكى أزيد الأمر وضوحا لك يا صديقى ، أقول إن الأنانية عندى تقابلها الإنسانية ، فإذا أردت ألا تكون أنانيا فأحب كل إنسان ، وكل وطن ، ولكن ، هل تستطيع ؟

٦

وانقضى على إقامتى فى القاهرة ثلاثون يوما أخبرت خلالها والدى بحقيقة موقفى وبما نصح لى به الموظف الكبير ، وكانت بينى وبين أبى مراسلات قلت له فيها : يجب ألا تفكر فى أمر نفقاتى فإننى سأدبرها ، وقال لى : إن حضرة النائب قليل السفر إلى القاهرة فى هذه الأيام ، لأنه يجب ان يراقب بنفسه جمع المحاصيل ، وعندما ينتهى من جمعها وبيعها سيتفضل فيبحث عن وظيفة خالية ، قلت فى نفسى حين قرأت هذا فى أحد خطاباته : هذا كذب صراح ، لكنى وأبى نستريح إليه ونتعلق به كما نركن إلى المنجمين وقارئى الكف ، ونحن نعلم أنهم كاذبون .

وبدأ جيبى ينذرنى ، وتسربت الدراهم شيئا فشيئا و لم يبق منها إلا القليل ، وصديقى صالح من الذين لا يترددون أن يشاطروا صديقهم كل شيء لكننى عزمت على ألا أرهقه من أمرى عسرا . فصرت إذا جمعنى وإياه موعد الطعام أدعى أننى راجع لتوى من الخارج وأننى تناولت غدائى فى أحد المطاعم . وقد أكون طاوى البطن فأقضى فترة طعامه وأنا أدافع نظرات عينى وتحلب ريقى ، وأصطلى خجلا من نفسى ، لكن رغبات الجسم الحيوية لا تتغلب عليها الإرادة ، ثم لا ألبث أن أتشاغل بأى عمل بعيدا عن مكانه حتى ينتهى من طعامه . ولا أنسى ذلك الصباح الذى خرجت فيه من بيت صديقى بعد أن ذهب هو إلى عمله وأنا أحس وخزا من ضميرى كالذى يحسه الشرفاء حين يدفعون إلى جريمة .. كنت سائرا أتلفت وأنا أحمل على ذراعى حزمة ضخمة ، وانتهى بى المسير إلى إحدى المكتبات ، فوقفت أمام صاحبها وحللت الحزمة دون ان أرفع إليه طرفا ، ثم ذكرت فى هذه اللحظة أنه لا يزال اسمى مكتوبا على زوايا الصفحات التى تحمل عنوان الكتاب ،

فجعلت أمزق بسرعة أطرافها لأحذف اسمى ، ويدى مرتجفة وقلبى كسير ... آه ... ما أشق هذا على نفس الأديب !! يخيل إلى أننى كنت الساعة فى حقارة من ينبش القبر عن كفن ميت .

ونظر إلى الكتبى نظرة يجيد تمثيلها أمثاله ، ألقاها قبل ذلك ولا شك على أناس كثيرين غيرى ، وجعل يقلب الكتب واحدا واحدا وهو يقول بلهجة المستغنى :

ـ هذا لا يزال فى خزانتى منه عدد كبير ، أما هذا فهو غير رائج لأن لمؤلفه سمعة خاصة ، وذلك يا صاحبى ، فإن مطبعة كذا ستغمر السوق بعشرة آلاف نسخة منه ، فأنت ترى أن حاجتى إلى كتبك ليست كبيرة ..

وانصرف عنى إلى مشتر جاء يسأل عن كتاب ، ثم إلى صبى فى المكتبة ليلقى إليه بعض الأوامر ، كل هذا ليرى مقدار حرصى على البيع ، لم أنصرف ولم أتكلم حتى فرغ إلى وأقبل على يقول :

ـ رأيك يا سيدى ؟ فقلت مستعجلا إنهاء هذا الموقف السيء : بل رأيك أنت ، فنقدنى ما نقدنى ، مبلغا تافها لكنه يسد حاجة بطن ، وسرت على « الطوار » أنقله من كف إلى كف وأقول : شتان بين المادة والروح وبين الرأس والمعدة ! وقد كنت لا أستكثر الكثير أيام اشتريت هذه الكتب لعقلى ، واليوم أرانى أرضى بالقليل لأننى أبيعها لبطنى !. أبيع تراث العباقرة .. برغيف .. وقطعة من السمك .. وحزمة من الجرجير .. !! وتنهدت .. ولم تتكرر هذه الحادثة مرة أخرى لأننى سهرت طوال الليلة التى عزمت على بيع هذه الكتب بعد شروق شمسها ، سهرت أقلب صفحاتها وأثبت من أفكارها ، كما كنا نفعل بكتب المدرسة قبل دخولنا الامتحان بدقائق ، ثم كان موقفى مع الكتبى فى الضحى تجربة قاسية لم تعد نفسى على استعداد لتحملها مرة أخرى .

وأخذت الأيام تمضى مرة ثقيلة وأنا عند موقفى لا أتحول كأننى خارج عن دورة الفلك ، وليس هناك ما هو أطول من ليل الساهر ونهار المتبطل ، لذلك عمدت إلى أن أقضى كثيرا من الساعات فى معظم الأيام منزويا بكرسى فى ركن من أركان قاعة المطالعة بدار الكتب أتأمل الصفحات وأتأمل الوجوه كأننى غريب عن هذه الدنيا ، وبينما أنا راجع منها ذات يوم متخذا طريقى فى شارع ضيق مزدحم رأيتنى وجها لوجه أمام زميل ربطت بينى وبينه روابط الدراسة ، وطرأت على فكرة هى أن أتغافل عنه وأمضى ، لأننى كنت أحس خجلا وحيرة حيث ألتقى بواحد منهم ، لكن الموقف لم يسعفنى فقد رأيته مقبلا على باهتمام من دفعت المصادفة فى طريقه بصديق ، وسلمنا وانتحى بى ناحية عن طريق المارة ، لأنه أراد أن يطيل الحديث ، قال باسما :

ــ وكيف أنت ؟ وماذا فعلت بك الأيام ؟

ــ كما ترى أيها الأخ ، ليس هناك من عمل .. باب الوظائف مقفل فى وجه أمثالنا ، ويقول الخليون : دعك من الوظائف ، وغامر فى عمل حر فذلك أجدى على الشباب ، أين رأس المال ؟

ــ نعم رأس المال ، ولا يغيب عنك أن الذين يملكون رءوس الأموال لهم من الوجاهة ما يمكنهم أن يختاروا بين الوظيفة والعمل الحر ، وكثيرا ما يفضلون الوظيفة ، لأن الوجاهة تحوطهم فى وظائفهم بأكثر مما تحوطهم به فى العمل الحر ، وبذلك نفقد نحن الوظيفة ورأس المال فى وقت معا . شد ما تغيرت يا صديقى . لقد كنت فى أيامك الخالية على حال خير من هذه الحال !

ــ كنت فى حلم سعيد فلما انتبهت منه شقيت به .

وهنا ضغط على يدى برفق وقال لى :

ــ اسمع يا أخى .. هناك عمل ، ولكنه مؤقت ، أقصد أنه عمل يقتل الوقت ويسد ضرورة الحاجة ، شىء يلجأ إليه مثلى من الذين لم ينبتوا

في الخصب (وضحك) فإن كنت من غرس حقلنا استطعت أن تقابلني غدا .

ولم تمض إلا فترة وجيزة أطرقت فيها إلى الأرض ، ثم رفعت إليه طرفي وأنا أقول :

— نعم .. وشكرا .. وسألقاك .

وقضيت ليلتي هذه أستبطئ الصباح ، وعراني نوع جديد من القلق لم أكن أعرفه لأن صديقي لم يشأ أن يخبرني بمقدار أجري ، ولم أستطع أنا أن أسأله عنه ، فجعلت أقدر الغاية لما عسى أن أمنحه ، ثم أحسب النفقات فإذا بها لا تكفيني مقيما في المدينة إذا مددت يدي بشيء لأسرة تريد أن تعيش وأن تبني مستقبلا لبنين وبنات ، فأتألم ، فلا ألبث أن أرفع أجر نفسي جنيها أو جنيهن وأعد قائمة الحساب من جديد ، ولم أزل هكذا بين إضافة وحذف وحل وربط حتى غلبني المنام .

أشرقت علي الشمس خارج المدينة وأنا أمشي في طريق زراعي ضيق مترب يشق الحقول إلى أحد معامل المنتجات الزراعية . واستأثر ذلك البناء الأبيض الزاهي بانتباهي فكنت أسعى إليه كأنني مسحور . سيكون هذا المكان نقطة التحول في حياتي ولو إلى حين ، سآمن منذ أن أعمل فيه أن أرهق أبي بنفقاتي ، وأن أحمل شيئا من كتبي مرة اخرى إلى ذلك التاجر الجشع ، وسأضمن أن أخرج ولو شيئا من النطاق الضيق الذي فرضته علي نفقاتي ، وأن .. وأن ..

واستخلصني من أفكاري وأنا على كثب من المعمل تلك الحركة النشيطة التي تدب حول موطن الصناعات كل صباح ، ولم أكن منتبها إلى آنية اللبن وأقفاص الفاكهة التي يحملها الحمالون إلى الداخل ، ولا منتبها إلى علب المعدن والورق وزجاجات الشراب التي يحملها صبية المعمل إلى الخارج ، وإنما كنت أفكر وأعمل ذهني ليصور لي هيئة صاحب العمل وهو يلقاني وأخمن ما عسى أن يبدأني به من حديث ،

وسألت عن صديقي الذى لقيني بالأمس ، فما لبث أن جاء ورأيته مسرعا نحوى فى معطف من التيل لبسه فوق قميصه وسراويله . واصطحبنى إلى الداخل وتركنى واقفا على باب حجرة ذى مفصل دوار ودخل هو ومكث فترة لا أذكر مداها لأنها كانت فى مدى الأزلية ، ثم انفتح الباب وخرج إلى صديقى بقوامه الفارع النحيف وعلى شفتيه ابتسامة قرأت فيها الخير والتوفيق .

وما كاد المصراع يستقر فى مكانه بعد تراقص مفصله الدوار حتى قال صاحبى :

ــ والآن لتدخل عليه ، وأنصحك أن تقبل ما يفرضه ولو مؤقتا وبعد ذلك نرى فى أمرنا رأينا .

دخلت مستأذنا بطرقة خفيفة على بلور الباب ، فألفيتنى أمام رجل تبدو على محياه أثار الزبد والفاكهة ، طرى ندى يخدعك وجهه فتظنه فى الخامسة والثلاثين مثلا حتى إذا لحظت عبث المشيب فى رأسه ، ورأيت التجعدات الدقيقة فى أسفل عينيه علمت أنه فى الخامسة والأربعين ، وليس يعنينى إلا أنه صبوح بسام ، فقد أزال وحشة رانت على قلبى قبل دخولى عليه ، وسمعته يلقانى بكلمات الترحيب قبل أن ألقى عليه تحية الصباح ، ثم جلست ، وما كدت أفعل حتى ضغط زرا اندفع الباب فى أثر ضغطته ودخل الخادم فأمر لى بالقهوة ، ولا أكتمك أننى ارتحت كثيرا لهذا اللقاء لأننى كنت فى حاجة جد عظيمة إلى أن تدعم شخصيتى المنهارة بشىء من الاحترام وقد حظيت بقدر منه ، وبدأ هو الحديث فقال بوجه باسم ونبرة رقيقة :

ــ أرجو قبل كل شىء ألا تؤاخذنى حين أنفض المسألة بين يديك بصراحة تستوجبها مصلحة العمل . ولست أقصد بما سأقوله أن أنقص من كفايتك أو أحقر قدر شهادتك . ولكن حقيقة الموقف هو أننا لا نأبه كثيرا بالشهادات ، فهناك أناس عركهم العمل وأكسبتهم الآلات مهارة

ودراية فاقوا بها أصحاب الشهادات بكثير ، وهم لا يطلبون من الأجر القدر العالى الذى يتشبث به خريجو الزراعة .

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فأنت ترى الأزمة الاقتصادية الشديدة التى يعانيها العالم بأسره مما جعل الحكومة أن تتحرج أشد التحرج فى قبول موظف جديد ، فتوالت على المنتجين الطلبات الكثيرة ، قلت برفق :

ــ نعم .. هو كذلك .

قال :

ــ وعلى الرغم من كل ذلك فأنا أرحب بك ، لما حدثنى به زميلك عن كرم خلقك وإخلاصك ، وقد قدرت له أجرا أعتبره حسنا . وسكت وحدقت عيناه فى وجهى بنظرة طويلة لا تطرف كأنه منتظر أن أقول : وكم يكون هذا الأجر ؟ ولكننى لم أفعل .. فخرجت من بين شفتيه المبتسمتين كلمة ارتجفت لها أوصالى وتطامنت عندها آمالى ولكننى قبلتها :

ــ ستة جنيهات !؟

ــ أشكرك يا سيدى ، قبلت .

ــ يسرنى أنك قبلت ، تستطيع أن تتسلم عملك منذ الآن .

لم تكن حياتى فى هذه الفترة حياة كاسب ولا متعطل ، فقد كانت فى مرحلة بين بين وأنا شخصيا لا تعجبنى هذه الحياة ، كنت أعود آخر النهار متعبا مرهقا حتى عافت نفسى القراءة ، فأرمى بجسدى فى فراشى بعد العشاء فى تهالك شديد ، ثم لا ألبث أن أغط فى النوم .

وهنالك فى أخريات الليل يقلقنى مقدم صالح ذلك الصديق الذى أرانى فى طرف من الدنيا وأراه فى طرف آخر ، كل منا يمثل فكرة فلا يستطيع أحدنا أن يمد صاحبه بمعونة عقلية .

ولم يكن لى فى حياتى صديق ولا قريب أرجو عنده المشورة ولا المعونة فقد جعلنى فرط حيائى قليل الأخلاء .

لذلك ثقلت على وطأة الأيام وأحسست أننى أشق طريق مستقبلى بالفأس فى جبل من الصخر ، وهذه المرحلة الخامدة المتثائبة تخلق فى النفس فى كثير من الأحيان قلقا وضيقا مزعجين ، حتى أصبحت أتشهى المفاجآت ... أرجو أية مفاجأة ولو كانت سيئة ، أتتصور هذا ؟

على أننى لا أكتمك أن غبطة وقتية حادة اختلجت فى أنحاء قلبى حين نقدنى صاحب العمل أجرى الشهرى . وقد كنا نأخذ منه زبدا وجبنا ومربى بتكاليف الإنتاج ودخلت هذه فى غذائى على الرغم منى ، فحذفت من نفقاتى ثمن اللحم واستطعت أن أمد أسرتى بمبلغ من المال ..

امتدت بى هذه الفترة خمسة شهور متشابهة الصباح والمساء ، لم أكون لها ذكريات كأنما طرحتنى الحياة بعيدا عن رحاها ، ضقت فيها بكل شيء : بأصوات آلات المعمل ، وبيقظتى كل يوم مع طلوع الشمس وعودتى مع المساء ، وبزملاء ليسوا أشباها أنا بينهم كالغريب ، وضقت حتى بالزبد والمربى وكانت حياة صديقى صالح قد خطت أخيرا خطوة خطوة ، إذ تعرف بإحدى اللاتى يقلن عن أنفسهن إنهن من أرباب الفنون وقد أقسم لى أنه أحبها .

كان ذلك فى ليلة ظللت أذكرها لأنها كانت خاتمة ليالينا ، كانت بداية النهاية لى من ناحية إقامتى بالقاهرة وبداية النهاية له من ناحية بوهيميته الطليقة ، كانت هذه أولى حبيباته اللاتى عرفت عنهن الكثير ، فتاة فى الثامنة عشرة قذفت بها عتبة بيت فقير إلى المراقص حيث يسطع النور الزاهى وتفوح رائحة الخمر وتنعقد سحب الدخان الخفيفة على رءوس الثملين ، ولابد أنها تعثرت طويلا فى ذيول الفقر ، فلما انبسطت لها الوجوه وانفتحت لها الجيوب صبت سوط نقمتها على جلود الناس ، وتحركت فيها عقارب الحقد على المجتمع .

ولا أطيل عليك فى أمرها لأن نفس هذه الفتاة ونفوس غيرها من قريناتها متشابهة ، كأنها صبت فى قالب واحد . ولقفت أخانا صالحا عصا سحرها ، وكان مشعث الشعر منتفخ الأوداج وهو يقول فى ليلتنا تلك :

ـ خير ما يفعل المرء فى حياته يا أخى أن يمد يده لينقذ نفسا تردت فى مستنقع الخطيئة على الرغم منها .. أحببتها ، وأحبتنى ، ولن أزال فى أثرها عالقا بخطاها ؛ حتى أعود بها سالكين طريق النور .

وبدأ كلامه سليما ، ولكننى أعرف نفسيته ، قلت :

ـ هؤلاء لا يحببن يا صالح .

قال :

ـ لا أفهم هذا ، إلا إذا كانت القلوب تستأصل بالجراحة كما تستأصل اللوزتان .

قلت :

ـ ولكن الرجوع أسلم لك ، أخشى أن تكون يدها أقوى من يدك فتجرك أنت إلى المستنقع .

فضحك ملء شدقيه ، وسخر من هذا التشاؤم . وسلك بنا الحديث مسالك شتى ، فلم ننم لأنه من المحتم على أن أنهض مبكرا ، ويبيت صديقى صالح على نية السفر إلى مسقط رأسه ليبيع هناك جزءا من عقار قديم .

٧

ما كدت أصل إلى معمل المنتجات الزراعية فى هذا الصباح حتى انتحيت بصديقى ناحية ونشرت بين يديه إحدى صحف اليوم لنقرأ معا هذا الإعلان :

« مطلوب ناظر زراعة له مؤهلات أو كفاية خاصة ، ويفضل المتمرن ، والمقابلة شخصيا بالعنوان المذكور » .

ورفعنا بصرينا معا عن الصحيفة فى وقت واحد ثم التقت أعيننا لنتساءل ، قلت لصديقى :

ــ ما رأيك ؟

فهز كتفيه فى يأس ، وقال لى :

ــ ويفضل المتمرن .

قلت :

ــ هذا فى نظرى لا يمنع من أن نطرق الباب ، لقد حملتنى أنت إلى هذا المكان فليس من النبل إذن أن أستأثر بخير دونك .

فما كان جوابه إلا أن قال :

ــ لا يا صديقى ليس فى الأمر مغنم يثير الأنانية على ما أعتقد ، والإعلانات عن الوظائف كالإعلانات عن الأدوية كثيرا ما تكون عن شيء لا قيمة له ، على أننى لا أكتمك أنى لا أرضى بمقامى فى القاهرة بديلا ، ستة جنيهات هنا خير من عشرة فى الريف ، وأنا مقيم بين أبوى ملقى هم نفسى عن كتفى ، ولست أرى من المصلحة أن أشرد فى الريف فى سبيل نظارة زراعية ، هذا وذاك ظلام ، فأبقى فى ظلام ألفته . أما أنت فلك أن تفعل ما تشاء .

ودخلت من فورى إلى مدير المعمل أستأذنه فى غياب النصف الأخير من هذا اليوم . وتناولت الغداء فى المنزل واسترحت قليلا واتخذت سمتى إلى حيث موطن العيش الذى أرجوه . وكان قطار الضواحى ينهب الأرض بى نهبا وأنا ملق برأسى على أعلى الكرسى متطلعا إلى الركاب من حولى ومتخيلا أنهم جميعا طلاب وظيفة ، وأن عربة من القطار على الأقل ستفرغ فى الضاحية التى أقصدها . كنت مشتهيا أى مفاجأة كما قلت لك . من أجل ذلك لم أكن خائفا .

بدت لعينى الضاحية بعد أن نزلت من القطار ممدودة وادعة تحت شمس أبريل يتحدث كل مبنى فيها عن الاستقلال والترف ، ولم يكن فيها صبيان إلا فى الحدائق أما الماء الذى تفوح منه رائحة الصابون ، والقطط التى تتنازع فضلات السمك فلم يكن لها من وجود ، لذلك أحسست أننى فى مكان غريب .

وعرجت على دكان بدال وسألته عن الشارع الذى يهمنى من هذه الجنة فوصفه لى ، وجعلت حديقة تسلمنى لحديقة حتى رأيتنى أمام بيت صغير ضل فى حديقته الواسعة كما يضل الكوخ فى وسط المزرعة ، ورأيت ببابه غلاما يرشد القاصدين إلى حيث يستريحون حتى يطلبهم صاحب العزبة وكان منظرا نادرا .

كنا فى بهو مكشوف أمام ثلاث حجرات مستقلة عن المسكن تقوم فى وسط الحديقة ، وقد تجمع فى هذا البهو عشرون لا أدرى لَمَ لَمْ أجد فيهم واحدا من زملائى ، وعندئذ تذكرت قول زميلى فى المعمل ، فقلت لعلهم معرضون . كنا رجالا وشبانا فى أسنان مختلفة وأزياء متباينة ، فينا من يرتدى الملابس الإفرنجية ، وفينا من يرتدى الملابس البلدية ، وبيننا من لبس الجلباب والمعطف ، وجلسنا ينظر كل إلى من حوله وهو يقول : ترى من هو المختار ؟ واتفق لى أن كان

بمجلسى إلى جوار رجل إخاله فى الستين من عمره عليه جلباب من الصوف الرمادى وعمامة لا توارى ناصيته من الأمام ، غائر الخدين من تساقط أضراسه وفى يده عصا من الأبنوس جعل ينقر بها الأرض نقرات متساوية ليقطع بها الصمت الذى خيم على الجالسين ، ثم مال إلى يسألنى :

ـ وأنت يا بنى من طلاب النظارة ؟

فقلت :

ـ نعـم .

وخجلت كأننى أبتغى شيئا غير مشروع ، فتابع كلامه :

ـ أنت طبعا من أرباب المؤهلات .

فأومأت برأسى موافقا على حين انبرى الجالس إلى جوارى من الناحية الأخرى ، وكان قوى البنيان تبدو على وجهه الصرامة تخيلته قد هضم ريع عشرين ضيعة ، انبرى وقال :

ـ سيفضلون المتمرن بلا شك .

فكان هذا بداية لاضطراب الحديث بين الجالسين فأخذ كل يروى ما عده ميزة لنفسه ، أما أنا فقد لزمت الصمت .

ومرت فترة الانتظار ثقيلة آذنتنا بانقضائها حين رأيت فى ممشى الحديقة رجلا يخطو إلينا فى بطء وخيلاء وخلفه صبية لا تعدو الثانية عشرة ، تريثت مرة أو مرتين لتقطف بعض الأزهار ثم لحقت به وبدآ يصعدان معا درج البهو الرخامى الواسع ، فقمنا وقوفا فحيانا بانحناءة من رأسه ثم دخل .

تململ بعضنا على كرسيه ووقف بعضنا ليتمطى ويملأ رئتيه بالهواء ، أما الشيخ الذى كان إلى جوارى فإنه عاد ينقر الأرض بعصاه نقرات مضطربة خافتة سقيمة دلت على خيانة الأعصاب ، وأما أنا فكنت جامدا متبلدا .

وجعلنا ندخل بترتيب الجلوس ، ويمكث الداخل هناك بعض دقائق ثم يخرج ، فإذا ما كان بيننا فى البهو ركب على شفتيه ابتسامة لا يشك راءوها فى أنه المختار ثم يحيى أو لا يحيى ويسلك ممشى الحديقة إلى الباب الخارجى .

ودق قلبى وأنا أفارق مقعدى دقة ما كنت أتوقعها حين آن لى أن أدخل على السيد .

دخلت مستحى الخطا إلى حجرة فسيحة النواحى فهمت حين أخذتها عيناى أنها جزء من المكتبة ، وتقوم فى وسطها منضدة طويلة تعلوها ظهارة خضراء من الجوخ وتناثرت عليها فى نظام عدة مجلدات فى أطراف مختلفة ، تدل على أن صاحبها كان يقرأ قبل الغداء وقد أهمل الخادم ترتيبها ، وكان الرجل جالسا إلى المنضدة وبجواره الصبية وأمامها ورقة وفى يدها قلم ، كانت نظرة واحدة تنبئك أنها بنته لأن أديم خديهما كان من وردة واحدة . وقد جرى ماء النعيم فى وجهه رغم السن ، مستطيل الوجه فى بياض شديد تسرى فى نصاعته حيوية ، يبدو كليل العينين لكنهما صافيتان سليمتان ، يتوج رأسه شعر سهل ناعم فضى المشيب ، هادىء فيما بدا لى ، رقيق الصوت ، رقيق الجسم ، سبط الأنامل .

آه ... وأحسست أننى فى كنى ، فى حضرة رجل قريب منى ، فى مكان عشقه خيالى وحوم فيه ، فى مكتبه أديب ، وبمحضر من أديب ، ولم يكن فى الإعلان شيء سوى عنوان مسكنه .

واحتوانى كرسى إلى الجانب الآخر من المنضدة تجاههما وهما جالسان ، وأخذت عينى تدور فيما نشر أمامى من الكتب فأقرأ عنوانها بحركة سريعة نهمة صرفتنى عن موقفى لحظة قصيرة ، ولكن السيد ابتسم ابتسامة مشرقة وقال بلهجة يشوبها شيء من التعب :

ــ هل تسمح بالانتباه ؟

فطفر دمى كله إلى وجهى الأسمر وألهب الخجل مشاعرى ، واندفعت من

فمى عبارة أحكمت صوغها الأقدار :

ـ عفوا يا سيدى فما أتشاغل ، وإنما هى نظرة ود لا نملك دفعها ، ألقيتها على أصدقاء .

ـ زراعى وأديب ؟!

ـ هما غذاءان ليس بينهما تناقض : مطلب للجسم ، ومطلب للروح ، وقد جمع « تولستوى » بين الفأس والقلم ، وأجاد « البارودى » نظم القصيدة والمعركة ، ووزن « الجزار » اللحم والقريض .

فضحك والتمعت عيناه ببريق الشفقة وسألنى :

ـ وما الذى دفع بك إلى طريق الحقل يا بنى ؟!

فكدت أغص بريقى ، واستعرض ذهنى سريعا تفاصيل مأساة أبى وأنا أرسل إلى السيد نظرة جامدة لا تطرف ، وملكتنى رغبة شديدة فى أن أقص عليه شيء لكننى أنفت واكتفيت بأن قلت :

ـ لا شيء يا سيدى ... إلا أن آباءنا يريدون أن يصنعونا بأيديهم ! وقد تخرجت فى كلية الزراعة هذا العام .

ـ أكنت ترجو لنفسك مستقبلا خيرا من هذا لو أنك اخترت ؟

فعجبت لهذا الاستطراد ولكننى أجبت :

ـ ربما صادف !!

ـ أتؤمن بالمصادفة ؟

فسكت قليلا لأعمل ذهنى :

ـ على أنها كظاهرة جوية يخطئها حساب المرصد ، تقع مفاجئة فتصلح أرضا وتتلف أرضا .. ثم أليس .. ثم أليس من المصادفة البحتة أننى قرأت اليوم إعلانكم ؟

ـ حسن يا بنى ، ولنعد إلى شأننا ، هل تشغل عملا ما ؟

فرأيت من الأكرم أن أقول :

ـ لا .

ـ وعلى استعداد لأن تقيم فى الريف غير كاره ؟

ـ إننى ابن فلاح !

ـ وتقبل عشرة جنيهات فى الشهر ؟

ـ أقبل !

ـ أتحب أن تزرع لحسابك شيئا من الأرض ؟

ـ لست فى حاجة إلى هذا .

ـ أشكرك ويكفينا هذا القدر .

ومال إلى ابنته يقول :

ـ اكتبى يا ليلى اسمه وعنوانه (ثم مد يده مصافحا) .

وخرجت من البهو فقرأت آيات الملل والسآمة على وجوه بقية المنتظرين ، لأن مدة مكثى مع السيد جاوزت بكثير مددا قضاها مع غيرى ، ويممت من فورى الطريق اللاحب بين أعشاب الحديقة قاصدا إلى الباب .

كانت الشمس على ارتفاع ثلاث قامات من الأفق الغربى وأنا أمشى فى شوارع الضاحية قاصدا محط سكة الحديد وذهنى يسترجع الحادثة التى جرت بينى وبين صاحب الضيعة ، وأحسست راحة فى صدرى جعلت ألتمس سببها حتى عرفته ، وقد كان راجعا إلى أننى وجدت إنسانا بثثته أعظم هم فى حياتى ولو على سبيل التلميح .. هبه لم يقف منى موقف المنقذ لكننى شكوت ألمى حيث يجب أن يشكى الألم كما يئن المريض بين يدى طبيب .

وقضيت طول الوقت وأنا راجع بالقطار ملقيا رأسى إلى ظهر الكرسى من وراء وملقيا بصرى إلى المصباح فى السقف وأنا أحسب :

عشرة جنيهات فى الشهر .. نعم عشرة . ليس فيهـا أجـر المسـكن ، ولا مطالب المدينة ، وليست فى كف مسرف ، يكفينى منهـا خمسـة ، وللأسـرة خمسة ... و ... ثم أفقت مبتسما .. إنها لا تزال فى خزائن الغيب .

لم يقلقنى صديقى صالح هذه الليلة لأنه فى مسقط رأسـه يدبر أمر مـال يدعم به غرامه الجديد ، ومن الحب حب لا يسقيه إلا المال ، لذلـك لم يكـن هناك من ينقذنى من أحلامى ، فقضيت الليل كله ناظر زراعة ، آمـر وأنهـى وأزرع وأحصد ، وقد جمعت فى ليلة واحدة محصول عام كامل .

ونفضت عنى غطائى فى الصباح الباكر ، وألقيت فى جوفى بغير شـهية عدة لقم من مربى معملنا قبل أن أقصد إليه ، ولقينـى هنـاك أول مـا دخلـت زميلى الذى قرأ معى الإعلان أمس وكان متلهفا لأخبارى ، وهمس بعـد أن انتحينا ناحية يقول بلهجة آذتنى :

ـ هيه .. أأدعوك من الآن بحضرة الناظر ؟

ـ لا تعجل يا صاحبى فليسـت هنـاك بشـائر ، والأمـر كلـه لا يعـدو أن تركت اسمى وعنوانى .

فقال مزهوا بفراسته :

ـ ليتك صدقت .. ها .. ها .. لعلهم يتفكهون !!

فأومأت برأسى موافقا .. ثم تلهى كل بعمله .

وهكذا يعز على قرناء ضمهـم البـؤس فـى قيـد واحـد أن يفلـت أحدهـم ويترك الآخرين ..

وانقضى الأسبوع ، ولم يعـد صـالح مـن سـفره ، ولم يـأتنى خطـاب ، وبدأت ذكريـات ذلـك الموقـف المريـح تبـوخ فـى نفسـى ، وفـارقنى الهـدوء المؤقت وأوشكت أن أعود إلى طبيعتى المظلمة ، ولم أنهض من فراشـى اليـوم مبكرا لأننى فى عطلة الأحد ، أى فى عطلة العمل الحر ، ودق ساعى البريد

دقته العنيفة المألوفة فدوى بها مسقط السلم ، فوثبت أعدو إلى الخارج حافى القدمين علّى أن أسمعه ينادينى . ولست أدرى كم درجة من الدرجات كنت أقطعها فى الوثبة الواحدة وأنا أهبط إليه فى ثوب نوم يعتبر من العورات . و لم أكن على يقين من الجهة التى بعثت إلى بالرسالة ، لأنها قد تكون من أبى ، فلما ألفيتها مسجلة قطع الشك اليقين ، و لم يكن القلم مستريحا بين أناملى وأنا أوقع ، كأننى أكتب به للمرة الأولى ، كان رأسى يدور من حميا الفرح ومن هبوط السلم الطويل فى أعقاب النوم ولكننى كنت لا أشعر بشىء إلا بهذا الخطاب .

حضرة ...

يشرفنى أن أخبرك أنه قد وقع اختيارى عليك من بين من تقدموا لنظارة ضيعتى ، يسرنى أنك قبلت الشروط ، وأن تسارع إلى مقابلتى فى أول فرصة » .

* * *

شد ما ساءنى أننى لم أجد أحدا إلى جوارى من يحمل عنى شيئا من المسرة لأنها ترهق الأعصاب فى كثير من المواقف .. أين أبى ؟ أين أمى ؟ أين صالح على الأقل ؟ أين المرة التى نالت من عشائى قليلا لأفردها بطعامى الساعة ؟ أرانى الآن ضائقا بالوحدة !!

وخيل إلى أن أرتدى ملابسى من فورى وأن أذهب لألقى صاحب الخطاب ، ولكن هذه الفكرة لم ترقنى بعد أن فحصتها قليلا ، وآثرت أن أذهب إليه عصر اليوم .

ولقيته فى المكتبة كما حدث فى المرة الأولى إلا أنه لم يكن على بابها نظار ، ولقينى الأستاذ فريد لقاء جميلا فقد صافحنى اليوم هو واقف تماما

وجلسنا معا ، ثم ما لبث الخادم أن دخل بالقهوة ، وكان يمسك عن رشفه من الفنجان الكبير بين لحظة ولحظة ليقول :

ـــ أما عزبتى يا حضرة الناظر فليست كبيرة : وهى ثلاثمائة فدان فحسب ، وليست بعيدة : سفر ساعة واحدة بالقطار أو السيارة من العاصمة ، وليست سيئة الجو ، فهى جنة تريد « رضوانا » أرجو أن تكون « رضوانها » لا « مالكها » وضحكنا ، ولكنها كانت دائما سيئة النظار ، بحيث كانوا يتعاقبون عليها بمعدل ناظر فى كل عامين ، ولعلك تفكر أننى سألتك : أتحب أن تزرع لحسابك شيئا من الأرض ؟ ولذلك سبب هو أن الناظر كان يستغلنا استغلالا واسع النطاق ، بحيث يقف نصف مجهوده على خمسة أفدنة مثلا يزرعها لنفسه ويبقى نصف مجهوده فحسب لزرعنا نحن ، وقد أعلنت أننى سأفضل المتمرن ، لكنى وجدت أنهم مرنوا على الخيانة أكثر مما مرنوا على الزراعة . وبعد فإن هذا المتمرن لم يولد متمرنا ولك من شبابك قوة وفسحة تكسبنا وإياك الخير والبركات .

ثم قال وهو ينفخ دخان لفيفته غزيرا إلى أعلى :

ـــ ولقد لمحت فيك يا بنى رقة الطبع وصفاء النفس وخمنت أن الخير عالق بخطاك ، وأنت من شباب قد يفهمون نفسية الأدباء . إن عقلنا مغموس فى عواطفنا ، ولكننا قلما نخطئ . هناك مسكن جميل مستقل يخليه لك بعد وصولك ناظر مؤقت ، وسنلحق بك جميعا بعد أيام ، فمتى تسافر ؟

قلت :

ـــ أريد مهلة غير طويلة .

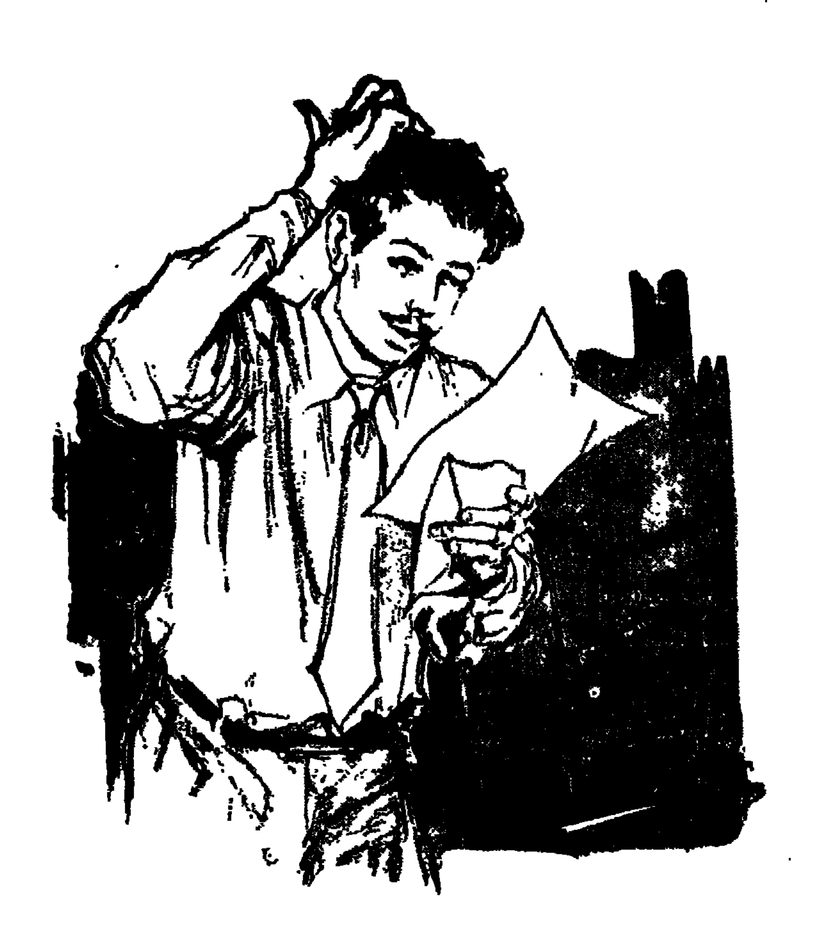
قال :

ـــ أيكفيك أسبوع ؟

ـــ يكفينى .

ـــ حسن . وأشكرك .

ـــ وداعا يا سيدى .



وكنت لا أشعر إلا بهذا الخطاب

ــ وإلى اللقاء .

« أخى صالح : هـل ألقـاك ؟ تـرى مـن المقسـوم لى أن أراك ؟ مـنَّ علـى الزمـان بعمـل أعتـبره حسـنا .. نـاظر زراعـة بعزبـة الأسـتاذ فريـد . المفتـاح والكوة ، لا تغير المكان » .

« أكتب إليك وأنا على سفر إلى بلدى لأودع أسرتى ، وقد أحمل متاعى إن طالت غيبتك فلا نلتقى إلا فى الرسائل » .

« تركت لك علبا مـن المربـى مـن بقايـا عهـدى الخـالى عسـى أن تفكـر فتتناول فطورك فى البيت يوما واحدا ، وأؤكد لك أن فيها أكسيرا يشفى من الشقاء .. ومن الحب ، فهل تسمع ؟! » « من الجائز ألا نلتقـى فـى القريـب .. أقبلك ، وأذكرك بنفسك .. وداعا » .

وكفكفت دمعة بعد أن قرأت ما كتبت فقد تخيلت ذلك الشخص الوفى يطويه ظلام البلاء ، وحملت حقيبتى ، وأوصدت المسـكن وأودعـت مفتاحـه الكوة وتسللت فى ظلام السلم لأدرك قطار الليل .

٨

« وداعا يا مدينة القلب وإن قسوت على فترة من الزمن !! » .

« ليس رغيفى بين قصورك ، إنما هو هناك بين الحقول !! » .

وأشبعت ناظرى من الثريات البنفسجية التى تغمر مبنى المحط بنور هادىء مريح قبل أن يتحرك القطار بى نحو الشمال للمرة الأولى من ستة شهور .

وبعد ساعات هبطت القرية ، وخفت الأسرة كلها للقائى فى باحة الدار بعد أن طرقت الباب فهتفت أمى : أحسبها طرقته .. إنه ولدى !!

ولما استقر بنا المكان تناولت عشاء شهيا طيبته يد الأم وظلت جالسة طول وقتها إلى جوارى تملأ عينيها منى وتنتقى لى بيدها ما أطعمه ، ثم امتد بنا السمر إلى هزيع متأخر من الليل حدثت فيه أبوى بكل ما صادفنى واستهديت من عيونهما نظرات خلتها تحت متاعبى . ابتدأ الحديث عن وساطة النائب ، ثم مماطلته ، وانتقل إلى الموظف الكبير وما لقيته على بابه ، ثم تناول معمل المنتجات الزراعية حتى انتهى إلى الأستاذ فريد وعزبته ، وكسيت ملامحى فى كل فترة من فترات قصتى ما كان يعروها فيما مضى من ألم وبؤس ويأس رأيت صداها جميعا على وجه أبى وفى عينى أمى ، وأخيرا تنفسنا كلنا تنفس الراحة وهتف أبى :

ـ حمدا لله !!

وقضيت أسبوعا نعمت فيه بالحنان ، خلقت أمى فيه من أجلى من جدب المعيشة خصبا لا يعرف طرائقه إلا قلوب الأمهات ، وكنا سعداء بأحلام المستقبل . فمضت الأيام بسرعة ووقفوا يودعوننى ، لكنه لم يكن وداعا حزينا كالذى كان فى المرة الأولى .

وعدت إلى القاهرة ، إلى مسكن صديقى عند ارتفاع الضحى ، وما إن دخلته حتى عرفت من فراشه ومتاعه أنه قد رجع من بلده لأنه لم يكن بين

تلك الأشياء شيء واحد وضع حيث يجب أن يكون إلا المفتاح فإنه كان فى الكوة ، واستأثرت بناظرى ورقة مكشوفة كبيرة وضعها على السرير هى خطاب من ذلك الصديق الغريب ، قال لى فيها :

– سرنى أنك لم تعد متعطلا كما سرنى أن وفقت أنا مبدئيا فى بيع العقار وقد نقدت جزءا من المبلغ ، وقد أرانى مضطرا إلى السفر مرة أخرى لاستكمال إجراءات البيع ، لكنى لا أدرى أأسافر اليوم أم غدا أم بعد غد لذلك أستودعك اللّه من بعيد أن لم تتح لى فرصة اللقاء .

ولم يزد على هذا شيئا لكنه أدهشنى أن ورقة مالية بخمسة جنيهات شبكت مع الخطاب بدبوس وقد كتب فى حاشيتها البيضاء المستطيلة بقلم أزرق : إن المسافر يحتاج إلى نقود . فطفرت من عينى دمعة لوقع هذا الوفاء على قلبى .

وبدأت يداى تعملان فى رص كتبى وجمع متاعى القليل ، وجهزت كل شيء للسفر . ثم تركت البيت إلى حيث ألقى صالحا فى عمله ، وهناك بين زحمة الموظفين وجلبة آلات الكتابة وهمس ذوى الحاجات رأيته جالسا إلى مكتب من المكاتب الأبدية التى يرثها جيل بعد جيل ، يحدق فى أوراقه بعينين أضناهما السهر وعلى يمينه لفيفة تحترق وحدها لأنه فى شغل عنها . وهنا ذكرت قول صاحبى فى القطار غداة قال لى : إنهم آلات من لحم ودم . ثم ربّتُ كتفه برفق وأنا إلى جوار كرسيه فانتبه وقام يقبلنى ، ولم يطل مكثى عنده حتى ودعته ثم شيعنى إلى الباب ووقف يرقبنى حتى اختفيت عن عينيه بين السائرين .

ما كنت لأرفض مبلغا امتدت لى به يد هذا الصديق لأننى لم أصطحب يوم سفرى إلا ما يسد مر الحاجة ، ولأنى مقدم على معيشة لست أدرى ما هى ، ولأن أبى وعدنى أن يحاول بعد سفرى اعتصار شيء من المال من غلاته المحدودة ، ولأننى أيقنت أن مبلغا مثل هذا سيرد إلى صالح فى ساعة عسرة من أيامه المفلسة ، من أجل ذلك كله قبلته شاكرا .

ووقفت بالباب بعد قليل عربة نقل صغيرة نضدت عليها المتاع واستوصيت صاحبها بكتبي خيرا ثم سبقته إلى المحط لأهيئ أمر شحنه .

* * *

لم يقتلني الفرح يوم وفقت إلى عملي كما كنت أتوقع ولم تكن نفسي في جيشان من السرور كما قد خيل إليك ، ولكنني كنت في هدوء خامد أقرب شيء إلى الذهول . إن الأماني نفسها قد تكون في قلوبنا أحلى مذاقا من تحققها ، أو لعل ذلك خاص بقلبي وحدي .

ووقف القطار لاهث الأنفاس في عاصمة إحدى مديريات الوجه البحري ، والوقت عصر ، والربيع في إدباره ، ونزلت مع النازلين أحمل الضروري الخفيف من متاعي ، ولم ألبث أن عرجت على ناظر المحط أسأله عن أقرب طريق يوصلني إلى العزبة ، فأدخلني إلى حجرته واتجه نحو نافذة شرقية وتناول قلما اعتاد أن يضعه خلف أذنه حتى لا يضيع وأخذ يشير ويقول :

ــ انظر يا سيدي : إني أرى وإن كنت ضعيف البصر ، هناك على بعد غير قريب ترى خمائل ونخلا وشجرا ، يبدو في خلالها بناء أبيض ، أترى ؟ وهذه المدخنة المشرفة . هناك العزبة ، نصف ساعة على قدمك ، وإن شئت اكتريت سيارة هل لك في تناول القهوة ؟

ــ أشكرك .

ــ أضيف أنت على الأستاذ فريد ؟ إنه رجل كريم ؟

ــ لا (ثم قلت بعد فترة) بل ناظر زراعته .

فعاد يصافحني بحرارة وهو يبتسم ابتسامة عريضة :

ــ أهلا .. إن في حدائقه فواكه ممتازة ، أرجو لك التوفيق ، وأرجو أن تتفضل بزيارتنا بين حين وحين .

سرت في الطريق إلى العزبة أحمل متاعي كأنني ابن سبيل ولم يكن من اليسير أن أقنع باستئجار سيارة بسرعة وسهولة وأخذت الحديقة والمباني

تقترب منى شيئا فشيئا حتى صرت على مدى قريب .

ووقفت لأن سيارة لاحت فى الطريق مقبلة من الناحية الأخرى ، فجعلت أنفض حذائى من التراب حتى قاربتنى فأوقفتها وركبت ونظر السائق يسأل عن وجهتى فقلت :

ــ إلى هذه العزبة القريبة .. (ومحوت بريق العجب من عينيه ، فأردفت) لأنى متعب .

وانحرفنا إلى طريق جانبى خاص غير واسع تقوم على جانبيه أشجار من اللبخ لتعطر نسيمه بشذاها الطيب ، وكنت أرقب أشعة الأصيل على زهرها الأصفر نضارا على نضار وأقول فى نفسى : لقد صدق صاحبها !! هذا مدخل الجنة ؟؟ وما زلنا حتى وقفنا فى باحة واسعة عجت آخر النهار بالفلاحين وعلا لغطهم فيها وهم مزدحمون بماشيتهم يسقونها من حوض الماء .

وسحرتنى المناظر فخلت أننى أحلم ولا ادرى بأى يد نقدت السائق أجره على الأمتار التى قطعها بى لكى أدخل العزبة فى سيارة ، إلا أننى كنت أسمع عن بعد وعن قرب أصوات رجال ونساء وصبيان يتهامسون :

ــ الناظر الجديد .. الناظر ، إنه صغير السن !!

وقوبلت من الزراع بتودد واحترام يحسنون اصطناعهما ، ثم دخلنا إلى حجرة عامة تدار فيها شئون المزرعة وجلست بينهم أرد ألف تحية وأشرب أقداحا من القهوة والشاى الثقيل .

كان القمح سيد غلات الموسم أيام هبطت هذه الضيعة تقوم أعواده فى كل ناحية مسترسلة مع الهواء متناوحة فى كل جانب ، وهناك خضروات كان أهمها البطيخ ، ولو كنت واقفا فى هذه الباحة التى نزلنا فيها حيث ينتهى الطريق الخصوصى ، لرأيت عن يمينك منزلا صغيرا من طبقتين موصد النوافذ والأبواب تحيط به حديقة غير واسعة أهم ما فيها الزهر والرياحين ، فإذا أخذه بصرك فهمت أنه مسكن المالك من أول

وهلة . وإذا نظرت إلى شمالك رأيت حديقة مسورة واسعة تهدى إليك رائحة الفواكه ، وفى نهاية الساحة حيث ينقطع الطريق غابة صناعية فى خمسة أفدنة يدل عمر أشجارها على أنها زرعت من جيل وأن مماشيها وخمائلها مهبط سحر وشعر ، وبين حديقة الفاكهة والغابة مسلك ضيق يمشى إزاء جدول وينتهى إلى الحقول حيث ينتهى طول الغابة وعرض الحديقة ، ثم يتعرج نحو الشرق فى صعود يؤدى بالسائر إلى ترعة واسعة ، عليها بناء عتيق ذو مدخنة سوداء الذؤابة ، هو « وابور » مياه خرب معطل .

أما منزل لناظر فهو مؤلف من طبقتين يقوم فى أقصى الشرق تجاه منزل المالك ، وبينهما متسع غير ضيق ، نثرت فيه نخلات وبضع شجرات من التوت ، وتقع الغابة إلى شماله على مدى غير بعيد . وفى جنوبه عن بعد أقيمت حظائر الماشية وإصطبلات الخيل .

أما منازل الفلاحين فهى هناك فى أقصى الجنوب تحلم وحدها فى خلاء المزارع يحنو عليها سور من اللبن يحمى ماشيتها ودواجنها من سباع الحقول .

تسلمت مفتاح مسكنى فسرنى أن الطبقة العليا فيه خليقة بأن يسكنها شاعر . ثلاث حجرات تنظر نوافذها جميعا إلى فضاء غير محدود ، فتحت نافذة إلى الشمال ، فحيتنى النسائم تهمس فى ذوائب الغابة ، وفتحت نافذة إلى الشرق فإذا المياه تتدفق فى الترعة على مرمى بصرى ، وإذا خضرة الحقول ممتدة حتى نهاية الأفق ، وأطللت نحو الغرب ، فبدا مسكن صاحب الضيعة من خلال غصون التوت وسعف النخل ، فأحسست راحة كالتى يحسها المكدودون بعد سفر طويل ، ومنيت نفسى الأمانى ، أن أسهر ليالى المقبلة قارئا متمليا جمال الكون فى هذا العش الجميل .

نظمت الليلة فراشى ورتبت مسكنى بعد أن وصل متاعى فى أحد

قطارات البضاعة ، وقفلت زينب إلى مسكنها وهى فتاة ريفية تقيم في العزبة مسحت عليها كبرى بنات الأستاذ فريد بيد الحضارة فى عدة مناسبات ، فعلمتها فنا أو أكثر من فنون الطهى أضافت به ثروة جديدة إلى معلوماتها القروية ، وقد تعهدت هذه الفتاة بمحضر من « حامد » أن تقوم بشئون بيتى ، وأن تكفينى مؤونة التفكير فى الخبز والغسل والطعام .

كانت طويلة القوام كأنها نبتت فى الغابة ، سمراء لفاء ، بسيطة المظهر فاتنته ، كأنها زهرة برية ، تغلب عاطفتها على عقلها فى كل ما تأتى من تصرفات ، وقد رأيت لحامد شبه سلطان عليها ، ولعل ذلك راجع إلى غرام خفى بين هاتين الروحين لم يتح خفاؤه فرصة لسكان العزبة أن يتحدثوا به .

وبقيت أنا وحامد لنتحدث ونشرب الشاى الذى حتمت على ظروف إقامتى هنا أن أشربه كما يشربه المقيمون ، وألفيتنى أستمع إلى حديث هذا الرجل وهو شخصية من التى تفرض نفسها على من رآها ، فيها شهامة وفيها صراحة ، وفيها تطرف فى الحب والكره ، وإيمان عميق بالمقادير لا يبالى معه أن تنزع من فمه اللقمة ، سلطانه فى العزبة أدنى درجة واحدة من سلطان الناظر ، ويتمتع بثقة كبيرة عند الأستاذ . قال حامد :

ـ كلنا هنا نتملق شخصا واحدا ونخطب وده ونستجدى رضاه ، لأنه المسير الأول لدفة الأمور ، يقيم عندنا شهرا أو أكثر من شهور الصيف ، ثم يزورونا مفتشا مرتين أو ثلاثا فى كل عام ، والويل يا سيدى لمن ابتلى بغضبته ، عليه يا سيدى أن يحزم متاعه ويخرج مع الليل ، وإذا أحب هذا الشخص عمى عن كل العيوب ، ووثق بمن يختاره ثقة لا تنفصم عراها ...

قلت :

- أهكذا خلق الأستاذ فريد ؟

فضحك وهو يحرك ملعقة فى إناء الشاى ليذوب السكر . وقال :

- عفوا ، عفوا .. إنما أقصد ابنته الكبرى ... أقصد الآنسة أميرة ... إنها كل شيء .

وهنا ثارت فى دمى بقايا بقيت من نخوة ريفية توارثناها ، وقلمت أظافرها الحضارة والتعليم ، فقد قلت فى نفسى متشائما : سنحكم بيد امرأة !

واستطرد « حامد » يقص على قصة نفسه بعد أن فرغ من شئون الناس :

- أما أنا يا سيدى فربيب هؤلاء القوم ، هم سادتنا من جيلين أو ثلاثة ، وفى تراب هذه الأرض دفن جدى ، وفى تراب هذه الأرض واريت أعز الأحباب ، أمى وأبى ، وأخيرا ... (وسكت ليرسل زفرة) ... وأخيرا زوجتى وشريكة نفسى وحياتى .

كنت وحيد أبوى وقد أنجبانى على شوق ، وأعفيت من القرعة العسكرية ، فكان ذلك عندهما عيدا ، أرادا أن يتوجا فرحة العيد بفرحة أخرى فلم تمض شهور حتى كانت دقات الدفوف ورنات الأغاريد تتجاوب بين مساكن العزبة ، وزفت إلى عروسى التى أحببتها كثيرا ، زفت إلى فى أخريات الخريف ونحن نحصد الذرة ، ثم زففناها إلى القبر بعد شهور فى وسط الشتاء ونحن نزرع البطاطس ... حصدها التيفوس مع من حصد . أجل فى الشتاء تماما ولا أنسى ، لأننى ذهبت غداتها إلى المدينة لأشترى جهاز دفنها ، وكانت قطرات المطر تختلط على خدى بقطرات الدموع . وتدخلت أنا لأخلصه من براثن الذكرى فقد رأيت تحت ضوء المصباح ربدة وجهه ، وزيغ بصره ، فقلت :

- وكم سنة مضت على هذا الحادث ؟

ــ عشر سنوات يا سيدى .

قلت أستطيل الوقت :

ــ عشر سنوات ؟ ! ولم لا تتزوج ؟ فربما سلى الجديد عن القديم .

ــ آه ... الأيام كفيلة بالإجابة عن هذا السؤال .

وبعد فلى عمة عجوز أرمل تقوم بشئونى وكأنها أم ، من أجل ذلك لم أرنى مضطرا لأن أدوس الماضى ، فظللت أعيش فيه ، وقصتى هذه ومن هذه الناحية تشبه قصة صاحب العزبة ، فقد قضى اللّه أن تموت زوجته أثناء وضعها فما تنفست بنته ليلى نسيم الحياة حتى كانت أمها فى سكون الموت بعد ساعات .

وسمعنا صياح ديك فى مساكن الفلاحين من بعيد لعل الليل كان قد خدعه ، فانتبه حامد إلى أننا قد سهرنا طويلا ، فاستأذن وبقيت أنا وحدى أطالع كتابا فى الزراعة ، ومنذ بدء حياتى هنا جعلت وقتى شطرين بين ما كتبه الزراعيون والأدباء .

وكانت حواشى ذهنى وأنا أقرأ تفكر فى هؤلاء الأفراد الذين نصبتهم الأيام فى طريق حياتى والذين سيكون لى معهم جميعا شأن عادى أو غير عادى ، ففكرت فى زينب وحامد والأستاذ فريد والآنسة أميرة ، هذه التى لم أرها ، وجعل خيالى يصورها لى صورة فتاة ملأها المال والجمال والتدليل غرورا جارفا ، فجعلت أهيىء شخصيتى الحيية المسالمة الفقيرة للقائها كما كان المتبارزون يهيئون سيوفهم فى القرون الوسطى قبيل المبارزات ، وكثيرا ما كنت أعقد محاورات بينى وبينها فى الخيال أخرج منها قاهرا أو مقهورا . وأيا كان موقفى فإننى وطدت العزم على أن أتحمل مسها فى كل ناحية إلا إذا عاملتنى على أننى فقير .

وجعلت الأيام تنساب في هدوء ساكن كما ينساب الماء في الجدول ، وأطللت من فقري على فقر أشد إدقاعا يعيش فيه من أعيش بينهم ، فخف ألمه في نفسي إلى حد ما . ثم انتفضت العزبة من سكونها حين وقفت سيارة في باحتها التي وقفت فيها قبلا ، وقفز من بين ركابها غلام يفتح الباب ، واشرأبت أعناق وتطلعت عيون وخف كثيرون للقاء الوافدين وحمل الحقائب ، ثم ما لبث منزل أن انفتحت مصاريع نوافذه ودبت فيه الحياة . وكنت أنا عند طرف حديقة الفاكهة أرى ولا أرى وقلبي يتابع الخفقان .

كنت في حيرة من أمرى ، ووقعت في تردد شديد بين أن أخف للقاء القوم وبين أن أتريث حتى أستدعى ، وكنت إلى الرأى الأخير أشد ميلا ، وقطع على ترددى غلام من أبناء الزراع جاء يعدو ملء ساقيه وهو يقول ويشير بيده :

ــ إن سيدى فريد بك يطلب حضرة الناظر .

ثم رجع يعدو نحو المنزل ليعلن لهم أننى حاضر .

وجعلت أصلح من رباط عنقى وأجرى يدى على ذقنى وألقى نظرة على كسرة سراويلى . كل هذا بحركة لا إرادة فيها ، واتخذت سمتى إلى هناك فاجتزت حقل الأزهار حول المنزل ، وصعدت السلم إلى حجرة الاستقبال حيث تراصت الأسرة على أرائكها المريحة . وكانت ساقاى ثقيلتان كأنهما أسطوانتان ملئتا رملا حتى خجلت من خجلى ، وصرت ألعن حامدا في سرى لأنه هو الذى أوقعنى في هذه الربكة .

إن جو شخصية الأستاذ فريد غير ثقيل ولا خانق ، وأستطيع أن أقول إنه جد مؤنس ، لذلك كان المنارة التى اتجه إليها خاطرى طول جلوسى . أما الآنسة أميرة ففى نفسى منها حذر شديد منذ اللحظة الأولى ، حكمت عليها حكما غيابيا ونفذته ، وحكمى الحضورى أن

شخصيتها عنيفة ، أو يخيل إلى ذلك . وأعنف شىء فيها عيناها ، كانت نظراتى تذوب فى نظراتها كما يختفى الثلج فى الماء المغلى ، لذلك قلما التقى طرفانا ونحن جلوس .

ولم يكن من الطبيعى كما علمت أن يختص والدها وحده بالتحدث فى شئون الزراعة فظلت حاضرة بمجلسنا طول الوقت كأنها شريك . وبدأ الأستاذ بالسؤال عن شئونى وأخصها المسكن ووجدت فى هذا المقال مجالا للثناء عليه فطفقت أقول :

ـ كل بناء هنا وكل غرس وكل تخطيط يدل على ذوق وراثى سليم ، إن مقام ساعة واحدة فى منزل الناظر الشاعرى الجميل كفيل بأن يذهب عن المكدود تعب شهر ... والغابة : جمال الطبيعة خلقته الصناعة .

فابتسم الأستاذ فى زهو وسرور واعتدل فى كرسيه يتهيأ للحديث ثم قال :

ـ أما الغابة يا أستاذ عبد العزيز فهى الرقية التى سحرتنى فى هذه الأرض ولولاها ما أطقت المقام فى هذا المكان ، وأعتقد أن جدى الذى غرسها كان شاعرا ، أحرق أوراقه لسبب من الأسباب ، وبنتى أميرة تفضل الغابة على حديقة الفاكهة .

ونظر إليها متسائلا فى حنان ونظرت أنا كذلك ، واستطعت أن أملأ عينى منها فى هذه الفرصة فسمعناها تقول :

ـ أجل ... من ناحية النزهة والترفيه ، أما من ناحية الإنتاج فحديقة الفاكهة أفضل ، أليس كذلك يا حضرة الناظر ؟

ووقعت فى حرج بين النفى والإيجاب وسكت برهة ومغناطيس عينيها منصبا على حتى استطعت بعد ذلك أن أقول :

ـ عفوا يا آنسة . فليس هنا علاقة بين الجمال والإنتاج ، هما طرفان لا تجمعهما موازنة .. هذه اللوحة الزيتية التى علقت على

الحائط لو استغل ثمنها منذ تعليقها لتضاعفت جنيهاته ، وكذلك عطل الإنتاج فى سبيل الجمال .. والخيل فى الإصطبلات جمال بلا إنتاج ، وأشياء أخرى كثيرة أيضا ، إنتاج بلا جمال . على أن حديثنا عن الإنتاج هو عملى الرسمى ، ولكن الوالد الكريم تفضل بالسؤال عن خصوصياتى .

وابتسمت متطلقا حتى لا تظن أننى أسفه رأيها ، على حين استرسل الأستاذ يهز رأسه فى ارتياح عميق ، أما هى فقد شخصت وانضمت شفتاها شأن من كان يتعجب ، ولم أسمع منها جوابا إلا ما كان من بسمة خفيفة .

ودخلت زينب بالقهوة ترفل وتختال فى ثوب جديد ، ولما قدمت لسيدتها القهوة أدركت من نظرتها وبسماتها أن بينهما مودة تفوق ما بين الخادم والمخدوم ، ومرت فترة صمت كنت لا تسمع خلالها إلا صوت رشفاتنا الخافتة ، قالت أميرة بعدها فى تلطف :

ـ وإذا أردنا أن نتكلم عن الإنتاج يا حضرة الناظر ؟

فضحك الوالد وابتسمت أنا ، ووضعت الفنجان من يدى ، واستطعت بعدما كان أن ألبس شخصيتى التى كنت أهيئها فى وحدتى لألقى بها هذه الأسرة .

قلت :

ـ نتحدث عن الإنتاج لأن الآنسة أرادت ذلك ، وإن لم نوف مواطن الجمال من ضيعتكم حقها :

ـ سنبدأ حصاد القمح فى الأسبوع القادم ، وسنجمع بواكر البطيخ من حقول البطيخ ، وسنقوم ببعض إصلاحات فى عروش العنب ، وسأكافح آفة « التجير » ، وسأدخل على الإصطبلات بعض إصلاحات فنية و .. و ..

قالت أميرة :

ــ هذا حسن .

قلت :

ــ بقي الأحسن . (فنظرا إلى في تشوق على حين استطردت أنا أقول) :

ــ ليس من طبعي أن أبخس غيري حقه ، ولا ان أبني قصري من الأنقاض فأدعي أن الأعمال هنا فاسدة وأن الذين سبقوني كانوا مقصرين ، فالأعمال في الحقل والحديقة ليست سيئة على ما بدا لي ، وأنتم أدرى الناس بما جمعتم من ثمرات . لكن الذي أرى أنه ضروري ناقص ، هو أن الذين كانوا قبلي لم يعن أحدهم بتربية الدواجن ولا النحل ، وهذه ثروة تدعم إنتاج المزرعة كما تدعم خيرات البحر إنتاج الجزيرة .

فاستخف الأستاذ الطرب حتى صفق وقال وهو يشير بكلتا يديه :

ــ هذا حسن ، زراعي وأديب ... انظري يا أميرة ... ذلك اختيار أبيك يا بنيتي ... طنين أسراب النحل بين أشجار الغابة ، وفوق أزهار الحديقة ، وخلاياه الجميلة تهدى إليك الشمع والعسل ، يا لها من فكرة !!

أما أميرة فقد بدا عليها الارتياح وبرقت عيناها الجميلتان ببريق الموافقة ثم قالت وهي تبتسم :

ــ وأحسنت التحدث في الإنتاج ، ومتى تبدأ ؟

قلت :

ــ عندما تخف زحمة العمل ، وسأبدأ استشاراتي في الفرصة الأولى .

وقبل أن ينفض مجلسنا ، وبعد أن زايلتني ربكة الخجل استطاع بصري أن يلم بملامحها ، وأن يجوس خلال محاسنها حتى تكونت عنها صورة لو كنت رساما لرسمتها بعد خروجي ، ولكن مهلا فقد أصفها لك .

٩

الحفلة الأولى لموسيقى ناشئ ، والحصة الأولى لمدرس جديد ، والبيت الأول من قصيدة ، وأول حديث بين متجاهلين ... كل أولئك قد يكون أثره بعيد المدى فى حياة صاحبه .

وقد استطعت فى مجلس الليلة أن أسيطر على زمام الكلام وأن أخرج سيد الموقف ، فرأيتنى أهبط السلم بخفة الظافر بعد أن نجوت مما عددته محنة وكانت صورة جمالها المستبد وهو مستسلم لخطوات منطقى لا تزال عالقة بخيالى .

ودبت الحياة فى شخصيتى الضعيفة ، وإياك أن تعجب مستبعدا أن حادثة واحدة تخلق شخصا ، فإن أبطال التاريخ وزعماء الشعوب ومن نعتوهم بأنصاف آلهة ، ولد بجدهم بعد حادثة واحدة فاندفعوا من نجاح إلى نجاح . نعم ! لقد بدأت أعطف على نفسى ، وأفضل حاضرى وما عسى أن ألقى فيه عن ماضى فى فصول المدرسة ومعامل الكلية ، حتى كدت أقتنع — وقد يكون ذلك من حسن حظى — أن كثيرا من الذين انطووا على نفوسهم خجلا بين القماطر صاروا فيما بعد من عظماء الرجال .

وبقيت مشكلة لا تزال عسيرة الحل ولم أستطع أن أتغلب على آثارها فى نفسى حتى الآن ، وهى : أننى فقير .

كان الأستاذ « فريد » رجلا رقيق الطبع حلو الشمائل ، لا يأبه لشيء فى الدنيا الآن وهو فى غروب عمره إلا بإنتاجه الأدبى ، من أجل ذلك كانت الكتب نصف المتاع الذى حمله معه من القاهرة ، وهو يتدخل فى شئون الزراعة بما تبقيه له القراءة من مجهود قليل ،

ويتولى الناظر كل شيء تحت مراقبة يقظة من عيني « أميرة » مدة إقامتها هناك ..

أصبحت العلاقة بيني وبين هذه الفتاة منذ لقائنا الأول قائمة على احترام متبادل بحيث كانت تجمعنا المصادفات فيسارع كلانا إلى إلقاء التحية ، أسلم أنا بوجه باسم وانحناءة خفيفة لا تكاد تدرك ، وتسلم هي بوجه فارغ الملامح لا تكاد ترى فيه معنى من المعانى ، ثم أمضى إلى حاجتى لا أتلبث إلا إذا سمعتها تتكلم .. عند ذلك أجيبها في وضوح موجز ثم أمضى محييا . أما العلاقة بيني وبين الأستاذ فهي علاقة عادية لكنها تبشر بمستقبل ود جميل . كان يتفق لنا أن نلتقى في مكان فيسلم ويستبقى يدى في يده مدة وهو يتكلم شأن من لا يتعجل إنهاء المحادثة . ثم يترك يدى ويثب في حديثه من ناحية إلى ناحية . كمن يختصر القصة وهو يلقيها على مسافر قبل أن يتحرك القطار ، ولا أدرى لم أشعر بالحب نحو هذا الرجل ؟!

أما حامد فقد كانت الساعات تربى حبه في فؤادى ، وهو وإن لم يكن من المثقفين الذين يسبحون معى في مجال واحد ، فإنه ذو قلب كبير ، وأرانى قد بدأت أثق فيه .

وأما زينب فلا أستطيع الآن أن أحكم عليها ، ويخيل إلى أنها قد رسمت حيالى خطة طويلة محبوكة ، أو لعلى مخطئ أو مبالغ فربما كانت حركاتها لا تعنى أكثر مما تحمل ، لكن الذى حملنى على الشك هو أن عينيها فاضتا بالغزل من يومنا الرابع . وأنا ريفى المنشأ أفهم عقلية الريف ، وأعلم أن همسات الحب الخافتة تسمعها آفاق القرية ، لكننى لم أستطع أن أقف منها موقفا إيجابيا ، لأن حاجتى إليها شديدة ، وقد أكون مشتاقا إلى معرفة ما تريد .

جعلت من بيتى المحدود الأثاث فردوسا صغيرا . ورأتنى مرة أحمل في يدى زهرة فوضعت على منضدتى التى أقرأ عليها طاقة من الزهر ،

وسهرت على راحتى بحرص وأمانة ، كانت تقف إلى جوارى كل مساء عاقدة ذراعيها على صدرها الناهد لتقول لى : وماذا يكون غداؤك فى غد يا حضرة الناظر ؟ (تسألنى ببشاشة وتودد وحب) فأقول وأنا ملق إليها بكل إحساسى يكون كذا وكذا وكذا ، وأنا أعلم أنها ستعترض ، فما يكون جوابها إلا أن تقول : و لم هذا ؟ أتترك لى حرية الاختيار ؟ إن فعلت أعددت لك طعاما غذيا رخيصا شهيا تحمد بعده يدى زينب ، فأضحك موافقا ، فلا يلبث وجهها الأسمر أن يشرق بسرور فاتن ، وهكذا صارت مع الأيام مدبرة بيتى المحدود الصغير .

كان عشائى الليلة بيضا وجبنا وبعض خضروات طازجة ، أخلت زينب لآنيتها مكانا بين الكتب على منضدتى وأنا جالس ، وقبل أن أهم بطعامى رأيت فى عينيها كلاما فنظرت أسألها فى رفق :

ــ هيه .. ماذا تريدين أن تقولى ؟ أهو شيء عن غداء باكر ؟

ــ لا ، بل عن الليلة يا سيدى .

فلم أفهم ماذ تعنى ، وبدت فى عينى الحيرة حتى أجابت :

ــ إن سيدى فريد بك ، يرجو أن تذهب إليه بعد العشاء إن كان فى وقتك فسحة .

ثم أخذت تدور حولى وانا أطعم ، لتؤدى أعمالا لا أرى لها داعيا إلا المبالغة فى العناية أو تضييع الوقت .. كانت مثلا تحملق فى كوبة الماء فترة ثم تأخذها لتعيد غسلها وتعود فتقفل مصراعا من زجاج النافذة لتعيد فتحه كأنها تثبته فى مكانه ، وأخيرا وقفت تنظم الكتب التى لم تكن إلا منظمة حتى وقعت يدها على مجلة أسبوعية من تلك التى يجلى غلافها بصور الممثلات فأمسكتها وجعلت تنظر فيها باهتمام وصمت . فقلت مبتسما :

ــ أتعرفين القراءة ؟

فقالت :

ــ ليتنى كنت ، إذن لاستطعت أن اعرف من هذه المراة التى أعجبنى جمالها .

فأجبتها لأجاذبها الحديث :

ــ إنها فلانة ، أتستطيعين أن تبينى سر سحرها فى رأيك ؟

فقالت دون أن ترفع عينيها الساجيتين عن غلاف المجلة :

ــ سر سحرها فى رأيى ! هذا ما لا أستطيع أن أعبر عنه ، ولكننى أستطيع أن أوازن بين جمالها وجمال امرأة أخرى ، ولتكن الآنسة « أميرة » .

ثم نظرت إلى لترى رأيى ، فأمسكت ولم أتكلم وجعلت أمضغ الطعام وعيناى إلى صحافه ، على حين استطردت وهو تقول :

ــ عينا هذه خضراوان ، وعينا « أميرة » سوداوان ، والعيون السود فى رأيى أشد جاذبية وفتنة .

قلت بلا اهتمام :

ــ هيه .. ثم ماذا ؟

ــ وشعر هذه ذهبى وشعر تلك غزير طويل .

فأكملت أنا :

ــ والثانى أجمل وسحره أفعل . أليس كذلك ؟

فأومأت تبتسم :

ــ بلى هو كذلك .

قلت :

ــ ثم ماذا ؟

فنظرت تقول :

ــ لست ادرى بعد ذلك شيئا .. إلا أنه يخيل إلى .. أظن .. مما لا شك فيه أن الآنسة « أميرة » أطيب قلبا من هذه المرأة ..

فضحكت ملء شدقى حتى خشيت أن يتناثر الطعام من فمى ، وأقبلت عليها بعد ذلك لأقول لها فى رفق من يرشد الضال :

— وكيف عرفت ذلك ؟ أبهذه البساطة يحكم الناس على القلوب ؟

وكانت فى خجل وحيرة أكسبا وجهها البسيط السهل فتنة وحلاوة ، فرأيتها تبتلع ريقها وترسل ببصرها إلى السقف كأنها تستلهمه الجواب حين قالت فى سذاجة طلية :

— كل شىء يبين على الوجوه !!! الوجه مرآة يا سيدى !

وانفلتت خارجة من الحجرة كأنها تلميذ صغير أخفق فى الامتحان وبقيت أنا أكمل عشائى فى شرود وتفكير ، فلما فرغت منه عادت لتستأذننى خارجة . وألقت على تحية خلتها عابسة واجمة أو عاتبة غير راضية .

كل شىء يبين على الوجوه !

ترى ماذا تقصد ؟ ! يخيل إلى أن كل جارحة من جوارحها كانت تختلج وهى تلقى هذه العبارة ، وأنها كانت تحكم بما قالت على قضية تتعلق بنفسها وأنها أحست ضيقا حين لم تجد صداها فى نفسى .

مسكينة جدا . إنها مخدوعة ، ما أشبه قلبى فى هذه الفترة بعود لم تشد عليه أوتار ، وهى تريد أن تعزف عليه .

دخلت منزل الأستاذ فقابلتنى « ليلى » بوجهها الصبوح وقفزت تجرى أمامى إلى حجرة نحو الغرب تعلن قدومى لأبيها ، وكانت هناك نغمات خافتة تنتشر فى جو المكان من أوتار « بيان » فى غرفة شرقية ، ولم يكن هناك من يعزف عليه بالطبع إلا الآنسة أميرة ..

لقد عشت بعد ذلك طويلا ، ومرت سنون وسنون ، ولا يزال قلبى مختزنا هذه النغمة ، حافظا سياق توقيعتها ، وكم تمنيت لو استطعت عزفها .

كان الأستاذ فى مباذله جالسا إلى كتبه وأوراقه وعليه شرود الأدباء ، وتبادلنا تحية المساء فقال لى :

— معذرة يا بنى إن أزعجتك ، ولكنها الحاجة الملحة .. هذا منظارى ، عيناى المستعارتان كسرتا فرأيتنى عاجزا عن القراءة ، فكان لابد أن أستعير عينى شاب ، لأنه لا مفر من أن أنجز هذه القصة التى ستنشر فى مجلة أسبوعية ، ولابد أن تصل إليها بعد يومين على الأكثر .

وأخذ يجمع ورقة من هنا وورقة من هناك حتى كان بين يدى بضع صفحات كتبت بخط دقيق .. ثم قال :

— نبدأ الأن بترتيبها حسب أرقامها ، ثم تقرأ على لأصلح ما يحتاج إلى إصلاح ، وتبقى بعد ذلك مشكلة نقلها بخط واضح .. آه .. ماذا كنت تظننى فاعلا ، بعد أن وضعت كتابا ثقيلا على زجاجة المنظار فانكسر ، وكان ذلك مصدر شماتة من « أميرة » التى تود ألا أقرأ كثيرا .. إنها تحرص على صحتى ، ولكن الذين يمنحهم الله بالأدب قلما يفكرون فى الشيخوخة وقليلا ما يرعون حقوقها .

هذه قصة تعبر عن فناء الحبيب فيمن يحب ، انتزعت حوادثها من أصداء الشباب القديمة مع تغيير فى المهن والأماكن .

بدأت أقرأ بصوت واضح ، مليء النبرة ، مستملح معبر ، طرب له الأستاذ طربا غمر كل حركاته وقسماته ، وكان يقطع على القراءة بين حين وحين ليقول فى نشوة وازدهاء :

— أترى يا بنى هذا التحليل النفسى ، هذا أكبر مهمات القصصيين ، وهذه هى العقدة .

بقى لك أن ترى حلها ، وبقدر ما يكون الحب طبيعيا غير متكلف ولا مفتعل يكون رائعا معجبا .

* * *

كانت الوقائع على وجه الإجمال بين حبيبين من الطبقة الفقيرة ، شاب وفتاة يعملان فى أحد متاجر المنسوجات ، وولد الحب فى قلبيهما

فاتفقا على الزواج ، ولكن الحبيب لم يكن يملك شيئا يقدمه مهرا ، ولم تكن الحبيبة بأحسن حالا ربما كانت أسوأ .

وتحدث بغرامهما الموظفون والعمال فى المتجر ، واعتلت حال القلوب وحال الجيوب ، ولم يتنفس عليهما صباح واحد بحل هذه المشكلة .

وأخذت الأيام تمر حتى جاء أسبوع ورأت فيه الحبيبة صفى قلبها سيئ الحال كاسف البال على صورة أشد وضوحا ، ثم انقضى الأسبوع ودخلت المتجر ذات صباح فلم تجد فتاها .. لقد سافر إلى مدينة أخرى بلا وداع ولا خبر ليعمل فى فرع من فروع المتجر هناك . ورجعت إلى منزلها مشردة اللب حائرة حزينة ورأت أمها ما بها فألحت عليها لتعرف ما دهاها ، فلم تملك المسكينة إلا أن انفجرت باكية وباحت بسرها لأمينتها الأولى ، وهنا تنهدت الأم لتقول فى أسى وحسرة : لهف نفسى على بنيات هذه الأيام .. إنهن ما زلن يعتقدن فى خرافة الحب ...

وأخذت الأيام تمضى وتمضى ليتقدم إلى خطبتها حبيب لم يكن محبوبا ، هو من الطبقة الفقيرة لكن عملا موفقا در عليه ثروة حسده عليها أمثاله ، واجتمع الأبوان حول بنتهما الكبرى يزينان لها الحياة ويصفان لها شهد المستقبل ، ويلغيان من ذهنها الشارد وقلبها المكدود خيال بيت ظللته أجنحة الحب كانت قد رسمته فى أيامها الخوالى ، ثم كانت خطبة وزفاف ، وتمر ثلاثة أعوام كوامل قبل أن تدخل المتجر المعهود لتشترى منه بعض ما يلزم وهى تحمل طفلا كان ابن سنة ونصف سنة .

وهنا تقع المفاجأة ، إذ ترى نفسها وجها لوجه أمام حبيبها ، لكنها تتمالك نفسها وتسلم سلاما عاديا وتطلب إليه أن يقيس بضعة أمتار من ثوب أشارت إليه . وتفرغ السيدة من مهمتها وتخرج فيخرج فى أثرها لتبادره بكلمات يكاد الدمع يخنقها أظهر ما فيها كلمة « الخائن » لكن

الشاب يقابل كل هذا بصبر عجيب ويرجوها أن تجيب على أسئلته بهدوء قال :

- هل فتح والدك مصنعا ؟
- نعم .
- وهل تعيش أسرتك الآن في رخاء ؟
- هذه حقيقة . عجبا ! من أنبأك هذا ؟
- أقول الآن كل شيء لتعلمي أنني غير خائن : طرق على بابي ذات مساء رجل وسيدة لم أكن أعرفهما ، ولما استأذنا ودخلا عرفت أنهما أبوا أعز مخلوق على قلبي ، قالت لي الأم : أتحب ابنتي يا بني ، قلت : نعم لأجل أن أتزوجها ، قالت : إن كنت صادقا في حبها فلابد أن تحبنا كلنا من غير شك . وهذه بنتنا الكبرى وهي التي تعيننا على العيش لأن أباها عاجز عن الكسب كما ترى . قطعت يمينه وهو يدير إحدى الآلات فلم يصلح بعدها لشيء . وقد تقدم لفتاتي خطيب له ثروة حريص على مصاهرتنا وقد وعد أن يمد زوجي بمبلغ من المال عقب الزفاف فيستطيع زوجي ان يفتح مصنعا صغيرا نرتزق منه بعد أن تتخلى عنا العروس ، ولكن الفتاة رفضت وأخبرتني إحدى زميلاتها في المتجر أنها تحبك وأنك أنت العقبة في سبيل حياتنا ، ثم بكت ، وقالت :

- أقسم لك يا بني بدموعي أنه لولا أولاد صغار يعجز أبوهم عن الكسب ما اعترضت سبيل قلبين ، إنني أم ، ولكنك فقير مثلنا وسيستأثر حبك بمصدر قوتنا ، فانظر ماذا أنت فاعل .

ففهمت السيدة كل شيء وهتفت بنبرة خنقها الدمع آه .. لم أكن مخدوعة .. إنني أحبك . لكن الفتى عاجلها قائلا بشهامة وحدة : نعم ، ولكنه يقف بيني وبينك الآن ثلاثة : العهد ، والزوج ، والولد . فقالت مستجيبة : ومن أجل ماذا ظهرت في أفقي إذن ؟ . قال : لأعيش في جو تتنفسين هواءه ، ولأتقدم لخطبة أختك التي تليك في السن فيقوم

بينى وبينك حـائل رابع بعـد العهـد والـزوج والولـد ، وهـو أننـى زوج أختك ..

ثم كانت دموع حب وعفاف وإخلاص .

جعلت أثنى على الأستاذ بعد أن فرغنا من القراءة والتنقيح ، فقطعت على كلمات ثنائى نقرة خفيفة على بابنـا اسـتأذنت بهـا أمـيرة علينـا ثـم دخلت .

وكان قلبى فى نشوة بحيث يستثيره كل شىء ، كان كعين ظمأى إلى البكاء تريد أى حادث يبكيها ، وكنت أقول فى نفسى : إن فى القلـوب قلوبا يسعدها أن تحترق فى مجمرة الحب وإن قلبى ليحدثنى بأنه منها .

وتجلت علينا الفتاة فى ثوب صيفى أبيض ينسدل علـى نصاعتـه شـعر حالك مغدودن جميل ، وبين السواد والبياض وجه مستدير دقيق المحاسـن تنادى فيه عينان بالسحر والفتنة ، وهناك ابتسامة ترقص على الشـفتين لم أر مثلهما من قبل ، كـانت مؤنسـة غـير موحشـة كمـا سبق أن كـان ، وحيت بتحية المساء ثم قالت لأبيها :

ـ كنت أظن أن كسر المنظار سيحول بينك وبين القراءة يا أبى فيوفر عليك جهدا وصحة .

فضحك الأستاذ ضحكة طويلة عبرت عما يكنه من حب وتدليل ثم قال بعد ذلك :

ـ وهكذا يا عبد العزيز تجدنى تحت رقابة شديدة من عينـى فتـاتى .. الطعام ، والراحة ، والقـراءة ، والسـفر ، والإقامـة كلهـا بتدبـير أمـيرة ، وليت الأمر يقف عند هذا الحد بل إنه يتعداه إلى الملابـس نفسـها ، لابـد أن تكون أنيقا يـا أبـى ، هـذا القميـص لهـذه الحلـة ، وربـاط العنـق لهـذا القميص ، أستاذة .. أستاذة فـى كـل شـىء ... فـى التدبـير والزراعـة ، والأزياء . وضحكنا جميعا .

قلت :

– ذلك من حسن الحظ يا سيدى ، فإن فتيات العصر كلهن متخصصات فى الأزياء وحدها .

فأحسست أنها مرتاحة ولمعت على أساريرها لمحة من الرضا ، واتخذت مقعدها على قرب منا على حين استطرد ذلك الرجل الطيب يقول :

– هى شابة يا بنى تملأ مكان سيدة ودعتها منذ اثنى عشر عاما ، لقد أنستنى أمها ، وأعرضت عن الزواج من أجل أبيها كثيرا ولذلك فهى أستاذة فى التضحية كذلك .

قلت :

– وهذا من حسن الحظ يا سيدى أيضا ، على أن الآنسة لا تزال فى فجر شبابها وأمامها فسحة طويلة من عمرها السعيد .

قالت :

– أشكرك .

وقال :

– بقيت المعضلة الكبرى يا أميرة وهى كتابة القصة من جديد كتابة يقرؤها عمال المطبعة . لابد أن ترسل غدا ، لتكون بين أيديهم فى اليوم التالى .

قلت :

– على هذا ، وسأفرغ منه الليلة ولو اقتضانى سهرا طويلا .

فقال :

– وماذا لوتعاونتما يا بنى ؟ أحدكما يملى ويكتب الأخر ، وأنا بالقرب منكما فى هذه الشرفة أنشق الهواء فقد تعبت . و لم يكمل كلامه إلا وهو ينقل خطواته الوئيدة نحو الشرفة حيث تطرح هناك على كرسى ممدود من نسيج غليظ .

أصبح المكان حولنا شبه خال فتتابعت دقات قلبى ، و لم أستطع أن

أرسل إليها بصرى إلا اختلاسا . كنت غريقا فى حيائى ولكننى نشوان : لا تزال أذناى ممتلئتين بنغمات معزفها الهادىء ، وهذه خياشيمى قد عبقت برائحة عطرها الشذى ، وسمعتها تقول بلهجة حلوة جديدة على وعليها :

ـ والآن نقتسم العمل يا حضرة الناظر ، لقد أعاد أبى إلى ذهنى ذكريات من عهد التلمذة الوادع السعيد ، هيه .. لكأنى ساهرة أذاكر ... ماذا تختار ؟ ... أتملى أم تكتب ؟

قلت :

ـ بل الأمر إليك فتخيرى أيسرهما عليك .

قالت :

ـ أظن أن خطى حسن .

قلت :

ـ وأظن أن إملائى جميل ، فلنبدأ إذن .

وامتد بنا العمل ، وأنا املى وهى تكتب ، ألقى عليها الجملة ثم أرقبها فى سكون مشغوف وهى مشغولة ، حتى إذا رأيتها تهم بأن ترفع طرفها عن القرطاس عاجلتها بجملة أخرى وأرعيت بصرى فى هذه المحاسن .

كنت أعبر بإلقائى عن كل معنى من المعانى كأننى ممثل على غير مسرح ، وكان يتناهى إلى سمعى من بعيد طرقات من قدم الأستاذ على الأرض وهو مستلق على كرسيه ، ثم انقطعت الطرقات لأمر ما قد يكون نوما وقد يكون تفكيرا فلم أعد أسمع فى سكون الليل إلا صوت إملائى .

وصلنا إلى موقف حزين كان الفتى فيه يناجى حبيبته التى ظنت به الظنون بعد رحيله عنها :

ـ « ليتك تعلمين أننى أحرقت قلبى فى مجمرة حبك ليكون بخورا

يعطر جــو أسـرتك بروائح السـعادة ... ستشـقين قليـلا ثـم تسـعدين . وسأشقى أنا كثيرا ولا أسعد ، وكل هذا مـن أجلـك ... أحببـت النـاس فيك كما يحب العابد ربه فى العباد ... أحببتك فى نطـاق واسـع لا فـى لحمك ودمك وحدهما وبحت لك بحبى الواسع . وإن جمعتنـا الأيـام بعـد تشريد فقد تعلمين ثم تغفرين » .

لست أدرى كيف كنت ألقى هـذه العبـارات فذلـك مـا لا يسـتطيع أحد أن يدركه ، ومبلغ علمى أن إلقائى كـان غير عـادى ، وأن حـرارة الجو تضاعفت فى هذه الفترة حتى خلت قطرات العرق تلمع على جبينى فى ضوء المصباح ، وأن القلم يضطرب بـين أصابعهـا الطويلـة البيضـاء . وأن فترة كتابة كل جملة طالت قليلا وأنها كانت تستعيدنى الجملـة مـرة أو مرتين لتلقى على وجهى نظرات متفرسة ، وأننى توهمـت فـى آخـر المقطوعة دموعا ستظهر فـى عينـى — ومـا أقـرب دموعـى — وأننـى سأقف موقفا حرجا لا يعلم غايته إلا اللّـه ، وتعـاون التـأثر والتوهـم وجمالها المعبود جميعا على أعصابى فأيقنت أن دمعة ستطفر مـن عينـى حالا ، ورأيت أهداب عينيها تتحرك لتنظـر إلى وسمعـت دقـات قـدم الشيخ تعود من جديد . فما كان منى إلا أن مددت يدى بسـرعة إلى كوبة ماء كانت أمامى فأفرغتها فى جوفى متعمدا أن أشرق بمائها ثم أدرت وجهى بعيدا لأمسـح عينـى مـن دمـوع الغصة ، ولعلهـا هـى كانت تدرى من أى نوع هذه الدموع !!

أتممنا عملنا فى صمت وتأمل وهدوء تقدمـت معـه خطـا الليـل ، وأعلنت أميرة أننا قد فرغنا ، فأفاق الشيخ من أحلامه ودخل متهلـلا شاكرا ، وكان شكره لفتاته أشد من شكره لى ، كأنها قد أتـت فـى نظره بعمل خارق .

عدت إلى منزلى وأنا فى حيرة من أمرى ، كنت أريـد أن أسـتكنه حقيقة نفسـى ، ولكننـى كمـن ينظـر فـى جـب مظلـم عميـق لـيرى

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)



وأعلنت أميرة أننا فرغنا .. فأفاق الشيخ من أحلامه

ما فيه فلا يظفر إلا بالدوار ، وجعلت أستعرض إحساسي نحوها في بحر هذه الفترة فرأيته واضح البداية . لقد كان حذرا أقرب شيء إلى المقت ، ولكنني الليلة ... لا أدري ما هذا ؟! فهل للحب « صورة سلبية » تظهر في القلوب معكوسة كالصورة التي يلتقطها المصور على الزجاج لشخص أو منظر ؟! لا أدري .. ربما يكون ! تلك إذن مشكلة عسيرة يحكيها القضاء ، أراني عاجزا عن ان أتكهن بنهايتها ، أنا أعرف قلبي ، أعرفه تماما منذ انتبهت إلى أنه يخفق ، قلب كبيت العنكبوت لا يقوى على اللمس ، وفي شغافه غمزات من أنامل حب خفيف صرفتني عنها مشاكل التلمذة ثم مشاكل العيش ، وأنا اليوم في وضع يقرب أن يكون مستقرا أخشى معه أنني أحب .

ومن هذه التي سأحبها ؟ إنني لا أزال أحذرها ، وكأنني أمقتها ... صدقني أنني أطالع جمالها وأرعى بهجتها ، فلا ألبث أن ينتابني خاطر غريب قد تتهمني بسببه : أحس رغبة جارفة في أن ألطمها ، أو أن أشتمها ، وحبذا لو استطعت أن أبكيها ، فأعجب . وما أشبهني في هذا بالطفل تفتنه الزهرة فيمزقها بعنف ، أو لعلي من طبقة الشاعر العربي الذي قتل حبيبته وأحرقها ثم صنع من تراب جسدها الناعم كأسا شرب الخمر فيها .. ثم رثاها !!

وانطفأت حدة التفكير حين ذكرت أنني فقير ، فهبطت من سمائي سريعا إلى حيث يدرج أمثالي وإلى حيث تمشي آمالهم ، ولم يمنعني هذا من أن أطفئ المصباح ثم أسير إلى النافذة فأنكفئ عليها أرقب من خلال غصون التوت وسعف النخل نافذة حجرتها المضيئة بحرص واهتمام كما يرقب البحار النجم القطبي في ظلمة الليل . ولم أزل حتى رأيتها تسدل على نافذتها ستارا خفيفا ، ثم انطفأ المصباح .

لا أريد أن أحدثك عن عملي في العزبة ، فقد كنت فيه مثلا للجد والحرص كأنني أدبر مالي . وحباني شبابي قوة لم أكن

أتوقعها ، وارتاح إلىّ الأستاذ فريد ووجد فىّ تربة صالحة لغرس الأدب ، فأكثر من مجالستى فى كل مساء : يملى على وأنا أكتب أو أقرأ له كتبا ومجلات من الشرق والغرب ، وكان يعيرنى من كتبه ما أتسلى بقراءته فى وحدتى .

وأحسست أن نفقات عيشى فى هذا المكان غير فادحة ، فساعدنى ذلك أن أمد أسرتى بمبلغ شهرى ووفر لها قدرا متوسطا من الراحة ، أيقنت أنه سيزيد مع الأيام فى جو من التفاؤل .

* * *

فى ليالى الصيف بعد الغروب بقليل ، بعد أن يتخلص الجو من حرارة النهار ، ترى فى الريف منظرا ساحرا لا يتوفر لك فى أبهى مباهج المدينة ، خصوصا فى الليالى المقمرة بعد الحصاد ، حين يصب القمر نوره على الحقول التى تكتسى تربتها ببقايا أعواد القمح فتخالها تحت القمر قد غطيت بملاءة منشورة ، ويعمد بعض الفلاحين أن يكوموا السماد فى الأرض أيام التحاريق كومات صغيرة متقاربة ثم يغرقوها بالماء قبل بدء الموسم فتتخذ الأرض عند ذلك منظرا أروع سحرا ، فتظنها بالليل بحرا ساكنا أطلت من أديمه رءوس الجزائر .

وكان يحلو لى أن أجوس خلال الحقول فى هذه الأيام بعد العشاء وقبل القراءة إن رأيت فى وقتى فسحة ، وأحب أن أكون وحيدا فى رحلتى فلا يصحبنى فيها أحد ، ولكننى حددت من نزهاتى هذه عمدا حين رأيت « أميرة » ترغب فيما أرغب فيه فتمشى فى كثير من الأمسيات على سيف الترع وفى صحبتها « ليلى » وخادمتها زينب .

كنت مشغولا بتدبر الجمال فى هذه الليلة وأنا سائر على الطريق أستمع إلى موسيقى المساء فى الحقول : نقيق ضفادع وصرير جنادب

وهمس النسيم فى غصون الشجر ، وكان يلوح على الأفق الغربى قوس هلال ولد لثلاث ليال فلم يتجاوز نوره قوسه ، ولمحت تحت الظلام الخفيف وعلى بعد قريب ثلاثا يتهادين على الطريق عائدات من النزهة ، ماشيات فى الطريق متجاورات وكأنهم راعين ترتيب الطول ، كانت زينب إلى ناحية الترعة ، لأنها أطولهن و « أميرة » فى الوسط و « ليلى » إلى الطرف الآخر ، وكانت ضحكات هذه الخادم المرحة تجلجل فى السكون بين فترة وفترة ، فوقفت عن المسير مترددا بين الرجوع والتقدم ، ولست أدرى لم حدث هذا ؟ ولكننى عانيت أمرا عددته مشكلة ، فظللت جامدا فى مكانى قريبا من الماء مثبتا قدمى على أصل حلفاء بجذوذ ومرسلا بصرى إلى شجرة صفصاف تغسل شعرها فى الماء على الشاطئ الثانى . وما هى إلا برهة حتى كن قريبات منى وسمعتهن يتكلمن بصوت خفيض تتابعت له دقات قلبى إذ توهمت أنهن يخضن فى شأنى ، ولم أبرح مكانى حتى حاذيننى وألقت زينب على تحية المساء باهتمام شديد ، وسمعت « أميرة » تغمغم بالتحية . أما ليلى فإنها انحرفت نحوى وأمسكت بذراعى تقول ببراءة وتدلل :

ـــ أنا مسرورة يا حضرة الناظر .. هل ستبنى لنا خلايا نحل وحظائر للدواجن كما يقولون ؟

فجعلت كفها بين كفى وأنا أقول :

ـــ حقيقة يا ليلى .. نعم .. ومن أجلك .. هل يسرك هذا ؟ .. إنه يسرنى ما دمت مسرورة .

ولم تشأ أميرة أن تسير حتى تفرغ أختها من الكلام ، كانت متجهة إلينا ويداها تسويان ما يبعثره النسيم من شعرها على جبينها أو خديها ، ولو كنت فى موقفى وأنا حيالها لاهتديت إلى وجهها فى الظلام بسرعة ، فقد خيل إلى بما استطعت أن أدركه بأطراف

شعورى أن زينب كانت تحرك رأسها نحوى ونحوها لتنظر مرة إلى ومرة إليها ، فماذا كانت تتمنى لهاتين النفسين فى هذه اللحظة ؟ وما إن فرغت « ليلى » من كلامها حتى قالت « أميرة » :

ــ ترى أللجمال أم للإنتاج تريد أن تبنى حظائر للطير وخلايا للنحل يا حضرة الناظر ؟

قلت وأنا أغالب اختلاط نبراتى :

ــ أنا عند موقفى يا آنسة .

قالت وهى مبتسمة :

ــ إذن أنت مصر على أنك ستبنيها للجمال .

فتدخلت زينب تقول بسذاجة ومرح:

ــ لجمال من يا سيدى ؟

فأجبتها وأنا أضحك :

ــ لجمال ليلى العزيزة .

ثم اختلفت بنا الطريق وسار كل إلى وجهته ، ولم يستدعنى أبوها هذه الليلة فقطعت منها شطرا مع حامد نتكلم فى شئون الزراعة ثم نثرثر فى أشياء أخرى ، وقضيت الشطر الباقى جالسا إلى الكتب حينا ، ومتكئا على النافذة حينا أرقب ضوء مصباحها ، أو أرى شبحها على بعد ينتقل فى نواحى الحجرة ، أو يحمل الهواء إلى مسمعى نغمة شاردة من أوتار معزفها إن هب النسيم غربيا ، فتتهادى إلى نافذتى تتلمس طريقها بين الغصون .

دخلت اليوم إلى الغابة وقت الضحى باحثا عن شجرة أقطع من فروعها ما تدعم به عرائش العنب ولم يكن معى أحد من الفلاحين ، لأننى كنت أ بتغى أن أعين مكانها ثم أبعث إليها من يقطع الفروع . وجعلت أنتقل من ممشى إلى ممشى وأترك خميلة إلى خميلة كأننى نسيت المهمة التى دخلت من أجلها ، فلم أفق إلا على أصوات قريبة

تبينت فيها صوت أميرة التى أصبحت أعرفه بين آلاف الأصوات ، ولا أدرى لماذا ؟ وكانت تقول :

— احذرى يا ليلى .. احذرى أن تسقطى .

فدرت حول جذع شجرة ضخمة حتى صرت فى موقف أستطيع أن أراهما ، كانت أميرة جالسة على مقعد اتخذ من فرع شجرة مشقوق وهى مسندة ذراعيها إلى متكئه ، ومريحة خدها على كفها ، وإلى جوارها كتاب ، وفى يدها مجلة . أما ليلى فقد نصبت أرجوحة فى فرع مستعرض وجعلت تعلو بها وتهبط فى مرح وسرور . ولم ترض نفسى عن موقفى هذا فقد عددتنى متلصصا ، فسرت نحوهما لأخرج من الباب القريب من حديقة الفاكهة والمؤدى إلى ساحة العزبة ، وتعمدت أن آتى بحركات فى سيرى تصل إلى السمع لينتبها لمقدمى فلم أجد وسيلة لهذا إلا أن أطأ بقدمى أوراق الشجر وجفيف الغصون على مماشى الغابة . فلما كنت على بعد قريب سمعا وقع أقدامى فتركت ليلى الأرجوحة لتهدئ من سرعتها فتستطيع النزول ، واعتدلت أميرة فى مجلسها ، على حين بادرت أنا فقلت :

— معذرة وأرجو ألا أكون أزعجتكما . إن عرائش العنب محتاجة إلى دعائم ...

فقالت أميرة :

— ليس هناك ما يدعو إلى الاعتذار . هل أعجبتك مناظر الغابة ؟ هذه هى المجلة التى نشرت فيها أقصوصة أبى ..

وقدمتها إلى فجعلت أقلب صفحاتها وأنا أقول :

— يا لها من قصة !!

— هل تأثرت بها ؟

– وهل هناك من لا يتأثر بها ؟ (ونظرت فى عينيها ، فارتجفت أهدابها الطوال وشحبت وجنتاها ثم التهبتا ، ثم استردت لونها الطبيعى) .

– أنا شخصيا قليلة التأثر بهذا الضرب من الفنون ، ولكن يخيل إلى أننى تأثرت ليلة كتبناها .

(ثم استدركت كأنها تريد أن تنفى من ذهنى ظنا) :

– لكنها على كل حال مشكلة من نسج فنان .

– وماذا تقولين فى الموسيقى الذى تعزفين ألحانه على معزفك ، هل وضع لحنه هذا اعتباطا وألف بين نغماته جزافا وكما يتفق . أم هو يترجم عن معنى يخامر نفسه ويريد أن ينقله إلى نفوس السامعين ؟ كل صورة صادقة من صور الفن يا آنسة تنتج أثرها بنفسها وحدها ، ولا تحتاج إلى معونة خارجة عنها ، وأستطيع أن أذهب إلى أبعد من هذا فأقول : إن ما يرسمه الأديب بقلمه والموسيقى بلحنه والرسام بريشته والنحات بمنحته ، ليؤثر فى نفسى بأشد ما تؤثر الحقيقة ، لأن هؤلاء هم رسل العواطف بين المعانى والقلوب ، يتلمسون بأدواتهم تلك مواطن الإحساس فى النفس ثم يعرضون عليها الصورة فتتمثلها فى لمحة قصيرة .

فبدا عليها أنها مقتنعة لكنها اعترضت :

– إننى على تأثرى بموقف هذا الشاب أعتقد أن تضحيته من نوع قليل الوقوع .

– اسمحى لى أن أخالفك فى هذا الرأى لأن فى بعض القلوب كنوزا لا تنفد ينفق منها أصحابها ليسعدو المجموع على حساب نفوسهم . لكننى أستطيع أن أعود فأوافق على فكرتك ، وألتمس للمؤلف هدفا آخر ، هو أن كثيرا من الفنانين يبشرون بالفضيلة

ويدعون إليها فيما يعرضونه من صور ، فيبلغ هذا من القلوب ما لا تبلغه المواعظ .

وقطعت علينا ليلى حديثنا حين قالت :

ـ حضرة الناظر .. كيف أصطاد العصافير من الغابة .. وكيف أصطاد الفراش من الحقول ؟

قلت لها مدللا متلطفا :

ـ سأعلمك أولا صيد الفراش يا ليلى ، وعندى لها شبكة جميلة تستطيعين أن تجمعى بها ما تشائين بسرعة وسهولة . أما صيد العصافير فدعيه لفرصة أخرى .

وما لبثنا أن سمعنا وقع خطوات الشيخ على جفيف الورق وهو مقبل علينا ومن ورائه غلام يحمل مجموعة من الكتب ، فلما رآنى تهلل وحياتى وبادرته أميرة تسرد عليه ما تحدثنا فيه فقال مسرورا :

ـ جميل .. جميل . إن امتدت بى الأيام وانفسح لى الأجل خلقت من ناظرنا هذا أديبا بارعا يا أميرة ، شاب لا يزال فى ربيع عمره ، وقد يتغير وجه حياته إن سعدت هذه البواكير التى ألمحها فيه برجل يكفلها .

ثم جلس وقال :

ـ أراك متعجلا ولكن لا بأس من أن تسمع كلمة قصيرة .

لا زلت أومن أن كثيرا من القلوب تدفن وفيها كنوز لو استخرجت لخلدت على الأزمان ، وليست هذه الفكرة جديدة ولا عالية بحيث أدركها وحدى ، فإنها فى نفس كل فنان ، لكنهم يعتقدون ولا يعلمون . نريد جماعات تفتش عن المواهب فى قلوب الناشئين وترتاد مواطن الحكمة كما يرتاد المعدنون مواطن الذهب ، قوما يخطبون لآلهة الفنون حسان العقول وأبكارها ، يمسكون بيد الناشىء ويدفعونه فى طريق يتخيرونه بعد أن يصفوا له معالمه ثم

يرقبونه حتى لا تحيد به الطريق ، وبذلك تستطيع يا بنى أن تزحم كل جيل بعدد كبير من العباقرة ، أما أن تترك الناشئة تتخبط كما تتعثر الأرانب فى مدارج الفيلة فذلك ما لا أرجو معه استقامة حال .

قالت أميرة هى تضحك :

ـ يريد والدى أن يقول : إن محيط الأدب فى أشد الحاجة إلى « حقول التجارب » كمحيط الزراعة سواء بسواء .

فقلت أنا والأستاذ فى نفس واحد لأننا ألهمنا إجابة واحدة :

ـ هل تمزحين ؟ إنك على حق فيما تقولين .

١٠

تتألف حياتي الآن من مناظر وأشخاص أصبحت في نظري أركانا أساسية لمسرحية حياتي ، فإن تخلف منها شخص أو حذف منظر ألفيت الحياة تالفة تافهة :

البيت ــ والغابة والحدائق والحقول ، وعينا أميرة تخفيان حبا أو شبه حب ، وحديث الأستاذ الطلي الجميل ، ووفاء زينب وولاء حامد ، ومجلسي بالليل إلى كتبي ، وإشرافي من النافذة على خيالها حين يتحلب من حجرتها ضوء ونغم ، يدق قلبي دقات أمل وخوف .

ورأيتني أفكر سلفا في يوم سترحل فيه الأسرة فيه فينتابني هم وجزع كأنني سأودع قوما عاشرتهم سنوات وليست علاقتي بهم وليدة شهرين .

وأعلن أن السفر سيكون في صباح اليوم التالي ، ستسافر الأسرة إلى القاهرة لتقيم هناك أياما تستعد بعدها لسفر آخر إلى أحد بلاد الشواطئ حيث تقضي بقية أيام الصيف .

كان الوقت أصيلا وأشعة الشمس الجانحة إلى الغروب تترقرق تحت أقدام الشجر في الحديقة ، وأنا واقف لأراقب جمع ما طلبته الأسرة من فاكهة ستنقلها معها . وسمعت حركة سريعة تقترب مني فالتفت فإذا ليلى تثب بين الأشجار في مرح وخفة مقبلة إلى وكانت تقول قبل أن تصل إلى مكاني :

ــ نريد فاكهة كثيرة يا حضرة الناظر لأهدي إلى فلانة وفلانة زميلاتي في المدرسة وصديقاتي في المنزل ، وأريد شبكة صيد الفراش وأريد ..

ولكن بصرى تحول عنهـا سـريعا حـين رأيـت أمـيرة مقبلـة تمشـى كأنها من الجمال فى موكب ، وأحسست أن كل شىء فيها يناجينى ولكن رعدة سرت فى جسدى حتى خشيت معهـا ان تسـمع وجيـب قلبى ، فرددت التحية وأنا مطرق واتجهت إلى أختها لأقول لها :

ـ فى الربيع يا ليلى تصيدين الفراش وطبعا ستزورينا فى الربيع .

فقالت أميرة :

ـ يبدو أننى سأقلق العزبة بزياراتى الكثيرة هذا العام .

ـ يسعدنى هذا يا آنسة .

ـ ولكن .. هل يسعد كل من هنا ؟

ـ لا شك فى ذلك .

فقالت وهى تكتم الضحك وعيناها تلمعان ببريق ساحر :

ـ وبهذه البساطة يحكم الناس على القلوب يا حضرة الناظر !

فربكتنى المفاجأة وحيرنى الشك حـين تذكـرت أننـى قلـت هـذه العبارة ذاتها لزينب ليلة كانت توازن بين جمال سيدتها وجمال الممثلـة التى رأت صورتها على إحدى المجلات . وقد قالت فى ليلتها تلك :

ـ يبدو أن أميرة أطيب قلبا من هذه المرأة . فضحكت .

كنت مطرقا أفكر بعد أن فاجـأتنى بهـذا السـؤال وأخـيرا رفعـت إليها بصرى لأقول لها :

ـ كل شىء يبين على الوجوه .. الوجه مرآة يا سيدتى .

وهذا هو ما أجابت به زينب عندما حاورتنى فى ليلتها المعهودة ، قلته عامدا ليقطع الشك اليقـين فأستطيع أن أدرى حقيقـة الموقـف ، فإذا بها تهز رأسها كمن يوافق علـى فكـرة وعيناهـا شـاردتان بعيـدا عنى . وكانت هذه اللحظة أولى اللحظـات التـى تـأكدت فيهـا أنهـا تخوض فى شأنى وأن ما كانت تنقله إلى زينب من كلمـات عـابرة لم يكن محض افتراء .

ومرت بنا فترة صمت لم يجد أحدنا فيها ما يقول ، ولم تفارق مكانها ولم أفارق مكاني . وكنت أفحص الأرض بقدمي كأنني أفتش عن شيء ، أما هي فكانت ماثلة تجاهي وهي ممسكة بذؤابة غصن يرتفع قليلا عن قامتها بحيث كانت ذراعها ممدودة إلى أعلى ، ورأسها إلى الوراء وعيناها تتفقدان الثمار على الشجر وغدائر شعرها الحالك طوع النسيم الخفيف تنوس معه إلى كل جانب ، وأنا على يقين من أنها تريد أن تسمع مني شيئا ، ولكنني كنت مأخوذا ، وأستطيع أن أؤكد أن أحلامي الذهبية صورت لي أن كل أمنية من أمانيَّ قد يكفل الزمان تحقيقها ، لكن حلما واحدا في يقظة أو منام لم يصورها داخلة في نطاقي دخول حب أو دخول زواج ولست أدري لماذا ؟ ألخجلي وترددي يرجع هذا . أم هو راجع لعقدة نفسي التي ما أظنها تنحل ، أعني فقري ؟

وخيل إلى أن الموقف طال وطال وأن دوارا خفيفا يأخذ برأسي ، وكنت أرى ثوب ليلى من خلال الأشجار وهي تنتقل بينها كما ينتقل العصفور ، فتشاغلت بالنظر إليها حتى آن لي أن أقطع الصمت المخيم الذي لا تسمع فيه إلا حركة رجلين يهصران الأغصان ويجمعان الثمار بعيدا عنا ، قلت :

— في أي مصيف تنوي الآنسة أن تقضي بقية الصيف ؟

— في الإسكندرية .

— إخالك تحبين الهدوء ، فلم لم تختاري مصيفا هادئا ؟

— إنها رغبة الوالد ، ورغبة شخص آخر .

أأسألها من يكون الشخص الآخر ؟ لكن السؤال كان متحيرا في عيني فقالت :

ـ لا بأس .. إنك تريد أن تعرف .. ابـن عمـى الأستاذ سـامى ، محام فى الإسكندرية ، وقد حجز لنا المكان الـذى سـننزل فيـه جميعـا لمدة شهر .

فاضطرم الفضـول فـى نفسـى ، وأدركـت بـالغريزة أن الشـخص الذى تحدثنى عنه ليس إلا شخصا لا أرتاح إليه . فقلت مداورا :

ـ إذن سيسعد أبناؤه بقرب عمتهم لمدة شهر كامل .

ففاض العجب من عينيها :

ـ أبناؤه ؟ لا زوجة ، ولا أبناء .. إنه شاب على أبواب الزواج .

ـ آسف وعجيب أن يرسم خيالى مثل هـذه الصـورة بسـرعة عـن عن الأستاذ سامى ، وعلى كل حال ، هو فأل حسن وأمنية أرجو أن تتحقق له .. أفى الحق أنك ستكثرين من زيارة العزبة ؟

ـ أرجو ذلك .. أظنهم جمعوا قدرا كافيا من الفواكه .

وسرنا معا إلى حيث يعمل الرجلان ، فأمرتهما بالكف عن العمـل وحمل الثمـار إلى البيـت حيـث يجهزانهـا للسـفر ، ثـم تابعنـا مسـيرنا خارجين مـن الحديقـة حتـى إذا مـا انتهينـا إلى السـاحة لتختلـف بنـا الطريق جمعت أشتات شجاعتى وقلت :

ـ وبعد هذه الليلة لن يؤنس مساءنا نغمات ولا أضواء .

ـ ستشعر بالوحشة وقتـا قصـيرا ، ثـم لا تلبـث أن تـألف المظهـر الطبيعى للعزبة ، وطبيعتها ألا نكون فيها .

وحيتنى ثم دلفت مسرعة فـى طريقهـا إلى المسـكن ، ولـو سمعـت حديث قلبى وأنا أشيعها بالنظرات لألفيته يقول :

ـ « لأمر عظيم ظهرت فى طريقى فيا ترى ماذا يكون ؟ » .

* * *

ـ زينب .

ـ نعم يا سيدى .

ـ عدينى أن تكونى صادقة .

فتتابعت أنفاسها حتى قالت مبهورة :

ـ أعدك .

ونظرت إلى كأنها مأخوذة ، وانتظرت ما أقول .

ـ أيسعدك أن أسعد ، ويشقيك أن أشقى ؟

ـ مستعدة ان أحقق لك السعادة ولو كلفتنى نفسى .

ـ أجادة أنت فيما تقولين ؟

ـ آه يا سيدى ... ليست فرصة واحدة تسنح لأبرهن على صدق ما أقول .

قلت لها بعد أن فرغت من عشائى فى هذه الليلة التى ستودع أميرة العزبة بعد شروق شمسها ، وكنت لا أزال جالسا إلى منضدتى التى تحمل الكتب وصحاف الطعام ، وكانت زينب داخلة من المطبخ وفى يدها كوبة من الشاى سأشربها بعد العشاء ، كما تعودت ، فلما ناديتها وقرأت الاهتمام على قسماتى وضعت الكوبة وانتصبت واقفة كأنها تمثال ، فلما ألقيت عليها ما قصصته عليك رأيت الإخلاص والحب أيضا يغمر كل جارحة من جوارحها ، فملت إلى الأمام وأخذت كفها بين كفى ورفعت وجهى إليها وسألتها فى رفق :

ـ أتذكرين صورة الممثلة التى كانت على غلاف المجلة ؟

ـ نعم أذكر .

ـ والحديث الذى تحدثنا به فى تلك الليلة ؟

ـ أذكر كل شىء .

ـ وهل علمت به الآنسة أميرة ؟

ـ وسرها أن نقل إليها .

ثم استحال لون زينب وخلت أن دموعا سترقرق فى عينيها بعد قليل وضغطت على يدى بعنف وقالت :

- سيدى ... أتسمح لى بأن أتكلم ؟ .. معذرة ، واعف عنى ، ليس لى فيما سأقصه عليك يدان ، كل شىء بتدبير القضاء وأنت الآن بين الفلاحين معبود الجميع . ليس هناك قلب واحد لا يخفق بحبك ، هدوء ورفق وشفقة وحنان ولكن درجات حبنا لك تتفاوت .. فهل تعلم أننى الأولى ؟!..

فبدا الذهول فى نظراتى وإن لم يكن الموقف مفاجئا يحمل ما لم أتوقع ، فإننى أعلم أنها تكن لى حبا ، ولكن ... آه .. إن فى مجتمعنا الصغير هذا مشكلات كبرى .. هى تتمنانى ، وأنا أتمنى غيرها ، وهذه التى أتمناها ، ربما حنت إلى سواى ، وزينب التى تحبنى ولا أحبها إلا عطفا وألفة يهواها من لا تريده زوجا .. كأن قلوب الناس على هذه الأرض فى معظم الأحيان كواكب ضلت أفلاكها ، يسبح كل حيث يجب أن يسبح الآخر ، ولو اهتدى كل إلى مداره ما شهد الظلام أنات المحبين .

قلت :

- أجل يا زينب ، أعلم أنك الأولى ، ولكن ..

فسمعت ضميرى يهتف : ولكن ماذا ؟؟ أيها الظالم ، اجعل لنفسك دستورا له وجه واحد ، طبقه على جميع الناس ، إن موقفها منك لأشبه شىء بموقفك من أميرة : كلاكما يحب على يأس ، ولكن القلب عارض الضمير لأن لكل خاصة .

قالت زينب :

- ماذا تريد أن تقول يا سيدى ! تقول ولكن .. ثم تسكت ! دعنى أنا أكمل الحديث : أنا لا أريد شيئا إلا أن أعيش فى أفياء قلبك .. أريد ان أراك فى كل صباح ومساء وأنشق نسيم الحقول ممزوجا بأنفاسك ، وأن أسمعك تنادينى ، وألا يغيب شخصك من حياتى ما عشت . أريد أن تحتفظ بى كما تحتفظ بقطعة أثاث ثمين وهذه هى المنزلة التى يجب أن

أنزلها منك فى حياتك ، ولكن هناك مهمة فرضها على حبى أرى لزاما على أن أقوم بها من أجل قلبى .. أريد أن أسعدك وأن أحقق لك حلما تصرخ به نفسك .

قلت مستغربا وأنا أغالب دموعى :

ــ ماذ يا زينب ؟ لست أفهم شيئا .

ــ أنت تفهم كل شيء . تفهم أننى أحبك ، وتفهم أنك تحب .

ــ أما القضية الأخيرة فأظن أن فيها نظرا .

ــ عفوا يا سيدى ، أتذكر ليالى (الملاريا) ؟ كانت النوبات الشديدة التى اعتادتك ثلاث ليال حدثا كشف لى سر قلبك ، لقد هذيت بأشياء كثيرة أقول لك منها أول الأمر ما يشفع للباقى فتصدقه : من « صالح » ؟ ومن الراقصة ؟ وأين المربى والزبد ؟ كلمات سرها فى نفسك كنت تنطق بها وأنت فى وقدة الحمى . ولكن يجب أن تطمئن فإنك لم تنطق باسم أميرة إلا على مسمع منى وحدى ، ليلة عدت أنا وسهرت إلى جوارك وحيدة بعد أن خرجت أنا وحامد ، ثم غافلته ورجعت ، ورأيتنى أنت فى الصباح الباكر فى مسكنك فادعيت أننى مبكرة .

وهنا دق قلبى دقة شفقة وعطف فقد استنتجت شيئا آخر . حين تذكرت أنه حدث فى الليلة التى باتتها ساهرة على ، أن صورت لى الأحلام أمى جالسة على طرف سريرى تقبل جبينى وتمسح رأسى بيد تفيض من أناملها المحبة ، تذكرت هذا ، فأيقنت أننى أدركت شيئا ، وخلطت فى شيء فقد كانت زينب هى التى تفعل ذلك .

ثم تابعت حديثها تقول :

ــ ومنذ ذلك الحين وأنا أصب فى مسمعى أميرة حقائق وخيالات عن نفس سيدى الناظر ، وقد كانت تقابل حديثى أول الأمر باستماع صامت ووجه لا ينبيء بشيء ، حتى جاءت أيام كانت تبدؤنى هى فتسألنى عنك وتخوض فى شأنك .

أنتما يا سيدى العزيزين ، ملكان كريمان حبيبان إلى قلبى أتمنى أن يجود على الزمن فأربط بين نفسيكما برباط الحب وكلمة الله وأعيش إلى جواركما أسعد زوجة أو أكرم عذراء .

- زينب ! صدقت الآن كل ما تقولين ، ولكن شيئا واحدا أراه ولا أستطيع تصديقه ، وهو أن الدنيا لا يزال فيها مثل وفائك ، ومثل حبك .

وأحسست كأن يدا قوية تنتزعنى من مقعدى ، وأن قوة خفية تحملنى على أن أقبلها ، ولا أدرى ما الذى أنكرته فى عينى حتى حملها على أن تفر من أمامى ، فما أفقت إلا على نبرات صوتها المخنوق الذى سمعته وهى عند السلم وكانت تقول :

- لا تنتظرنى الليلة سأودع سيدتى أميرة .

* * *

يحتفل الناس بأعياد ميلادهم فى اليوم الذى يقول لهم الناس : إنكم ولدتم فيه ، وعندى أنهم حمقى بما يفعلون فليست الحياة استهلال طفل ، إنما الميلاد الحقيقى لشخص هو يوم تولد نفسه .. يوم يبعث قلبه .. يوم ينبض بالحياة الحقيقية فيرى أنه أكبر من الأرض وتصور له نشوة الحب أن فى مقدوره أن يحمل الأرض تحت إبطه كما يحمل اللاعب كرة القدم . لا تقل إننى مجنون فقد كنت فى فقر مدقع ، كنت فقير الجيب فقير القلب ، فرأيتنى واقفا على ينبوع حب خالد أكاد أرشف منه الحلو الزلال .

ولا تقل : تريث ، ومهلا حتى ترتوى ، فإن الأمانى فى قلبى أحلى مذاقا من وقوعها كما قلت لك ، وتوقع الكوارث أشد مرارة فى نفسى من نزولها كما حدثتك ، أنا طراز من الناس أعيش أسير أحلامى فلا تعاتبنى !

وضاق على مسكني حتى كأن حيطانه تتقارب شيئا فشيئا لتضغطني ، ففررت إلى الطريق ، وهناك على سيف الترعة كنت أنقل خطاى كأنني محموم ، وخيل إلى أنني أستطيع التحدث مع كل شيء : مع الماء والهواء والطير والشجر ، وسكون الحقول وجنادب الريف .. لا حاجة بي إلى إنسان يسامرني . فالنفس آهلة والقلب معمور .

كنت سائرا تحت رداء المساء أفكر في حوادث هذا اليوم العظيم : لم يكن موقف أميرة في الحديقة إلا موقف حب وكانت آتية من أجلي ولا شك ولأجل أن تكلمني ، ولعلها كانت تطمع في موقف أشد حرارة من موقفي الفاتر ، إنني جبان .. فهل صغرت في عينيها ؟! ولكنني كنت لا أعلم أنني أشغل جزءا من تفكيرها ، وإلا لحملت نفسي على أن تكون أشجع من ذلك ، ليتني سمعت منها قبل سفرها كلمة أحيا عليها بقية الأيام ، وليتني بسطت إليها كفي الاثنتين متجاورتين قائلا لها في بساطة وبلا مراوغة ولا مداورة :

ــ أنا من الذين يحملون قلوبهم على أكفهم يا سيدتي ، يبتغون لها مالكا كريما يرعى الله فيما ملك ، فهل أنت من اللاتي يحسن رعاية القلوب ؟

إن قلوبنا في صدورنا أحمال ثقيلة ، نحس ثقلها ما دامت مقفرة من الحب ، فإذا ما أحببنا أدركنا بأثرها دون جرمها ، كما ندرك العطر أو كما ندرك النور .

ثم انتقل ذهني إلى ابن عمها ، إلى الأستاذ سامي ، فإذا بي أهبط من سماء نشوتي شيئا فشيئا حتى رأيتني على الأرض وحتى انتبهت إلى أنني قطعت من الطريق شوطا بعيدا وأنا أمشي الهوينا ، ونظرت نحو الشمال فإذا ضوء منزل الأستاذ في العزبة على بعد غير قليل ، فأسرعت الخطا أقطع الطريق وأنا عائد كأنني أؤدي مهمة شاقة ، وما ذلك إلا لأنني استللت من أحلامي ..

كان ضوء نافذتها الليلة فى نظرى شيئا متصلا بكيانى ، كنت أرقبه من ظلام إحدى حجراتى جامدا مستغرقا كأننى فلكى يرصد نجما ، ولا يعلم إلا الله كم ساعة مرت على متكئ على حافة النافذة ، وكل ما أعلمه أن الخدر دب فى ذراعى ، وأن عينى كادتا تظلمان من إدمان النظر ، وكانت كثيرة الحركة على غير عادتها دائبة الدخول والخروج ، وجلست طويلا إلى معزفها تؤنس الليل بنغمات شجية ، وكانت نسمات المساء تحرك أغصان الشجر وسعف النخل فى الساحة التى تفصلنى عنها ، فيضطرب شبحها أمام بصرى المجهد ، فأتململ كأنى أريد أن أمسك زمام النسيم ، وأخذ الليل يخطو سريعا نحو الصباح فى موقف وهى فى مجلسها ، حتى كاد الظن يغلبنى فأتصور أنى أرقبها حتى هممت أن آتى بحركة حمقاء تريها موقفى منها ، كأن أنقل المصباح إلى النافذة أو أرسل صفيرا خافتا ، لكننى استكبرت . ثم كان آخر مطافها أن عزفت أول لحن سمعته ليلة جلسنا معها نكتب القصة فختمت له ليالى القرب فى صيفنا الأول ، ثم رأيتها تقوم لتغيب برهة فى حجرة أخرى ثم تعود إلى النافذة فتقف فيها وتفتح ذراعيها كأنها تتمطى أو تنشق النسيم وترسل غدائر شعرها إلى الوراء ، قبل أن تمد يدها إلى الستار الخفيف فتسدله .. ثم .. ثم توصد النافذة إلى مدى غير قريب ، وينطفئ النور فإذا بى لا أرى شيئا ولا أسمع حسا ، لأنها كانت مصدر النور ومبعث الحركة .

وتنفس الصبح سقيم الحسن ذاوى البهجة ، ونشر النهار رايته على معالم العزبة فكدت أنكرها حتى كأنى فى مكان آخر ، ونحن هكذا دائما نرى الدنيا من خلال فكرة ونرسمها فى مدى العمر بألف لون وألف ريشة . كنت أخترق الساحة تحت أشعة الضحى فاتر النفس : وأنا فى طريقى إلى منزل الأستاذ لأودع شخصا صار كل من يعنينى فيها . وكانت السيارة بالباب والبيت فى حركة ، وهناك فلاحون ينقلون المتاع

الخفيف ، وليلى لا تفتر عن النزول والصعود تستعجل المسافرين والناقلين . ثم بدا الأستاذ عند عتبة الباب فأسرعت أسلم عليه ووقف يوصينى بالزراعة والقراءة ، ويبدى أنه لا بأس فى أن أسافر إليه كلما عن أو عرضت استشارة لأنه يحب دائما أن يرانى . ثم استراح الشيخ فى السيارة ريثما تنزل ابنته الكبرى ، ومرت فترة سمعنا بعدها دقات حذائها على السلم وكان أحد الفلاحين يفتح باب السيارة وأميرة تجتاز حقل الأزهار أمام البيت . ولست أدرى كيف سلمت عليها لكن فى استطاعتى أن أقول : إن طرفى ظل عالقا بالسيارة وهى تتهادى فى الطريق الخصوصى خارجة عن العزبة حتى غابت فى منعرج الطريق ، فاسترجعت بصرى وكأنما أسدل ستار على قصة حزينة ، ثم انتفضت لأسير فألفيت عيونا كثيرة تنظر ، لكنه لم يكن من بينها ما يدمع إلا عينان ، هما عينا زينب .

١١

ظللت بعد سفرها أياما لا أستطيع الإشراف على نافذتها المغلقة كأنني مفلس يخشى أن يراجع دفاتر حسابه ، ودرجت بى الحياة فى طريق عادى خال من كل ما يهز النفوس بعنف ، فأنكرت هذا الضرب من الحياة وأيقنت أنه ليس جديرا بإنسان كامل .

طعام وشراب وعمل وقراءة ، ونوم ويقظة إلى عدة شهور ليس فيها أمل ولا ألم ، بعد أن غاب عنى مصدر الخوف والرجاء . وألفيتنى أعجب من نفسى ومن أولئك الذين يرجون الاستقرار ويهتفون به ، فقد أصبحت لا أريده إذا كان معناه أننى لا أحب ، وأصبحت أريد الاضطراب إن كان مرادفا لقربها منى .

لكنى أرانى مضطرا إلى أن أثب فى قصتى وثبة طويلة فلا ألقى على مسامعك شيئا عن نظام حياتى بقية الصيف وأيام الخريف لأنه شئ ممل .

كانت بواكير الشتاء تبينها لقدومه برياح باردة تصفر بين الأشجار ، وسماء عابسة قلما تخلو من السحاب حتى غلبنى الشوق فدبرت بعض شئون يجب التحدث فيها مع الأستاذ فريد والآنسة أميرة ، ثم شددت رحالى نحو القاهرة . وكانت زينب التى سميتها شيطانة حبى قد وسوست إلى قبل سفرى أننى سأنعم مع أميرة بلقاء جميل ، فشغلنى هذا الخاطر طول الطريق حتى رسمت للقائها فى ذهنى ألف صورة وجعلت أوازن بينها لأرى أيها أجمل .

وارتفعت فى سماء القاهرة شمس شتاء سقيمة وأنا على باب بيت فى إحدى الضواحى أنظر إلى حديقته التى تلمع على أعشابها وشجرها حبات الندى ، ذاكرا موقفى فى هذا المكان فى صيفى الماضى ، ومسترجعا خفقات قلبى من أجل الوظيفة ، فإذا بى أرانى اليوم أشد

اضطرابا وأكثر لهفة . ورأيت غلاما يسعى إلى مقبلا من الحديقة حتى إذا ما رآنى عرفنى توهما ، ولما كشفت له عن شخصيتى غاب عنى قليلا وعاد ليدخل بى إلى حجرة الانتظار .

ودارت عينى فى كل ما حولى فألفيته ينم عن سعة وذوق سليم ، ولكننى ما غبطتهم ولا حسدتهم ، فما من شىء يعنينى فى هذا الموطن إلا شخص أميرة .

وطالت غيبتها أو خيل إلى لك . ولماذا أتوقع أن تلقانى هى ، ولا أتوقع أن يلقانى الأستاذ ؟ كان الأمر كذلك لأنى تصورت أنه من غير الطبيعى ألا تلقانى .

وسمعت وقع خطوات وئيدة على أرض الردهة خمنت على أثرها أن الأستاذ فى طريقه إلى ، فباخت فى نفسى حرارة الأمل وشخص بصرى نحو الباب يرقب الداخل الذى أسمع وقع أقدامه ولا أراه ، لكننى رأيت خادما عجوزا تمر دون أن تلقى نظرة على من بالحجرة ، فتنفست الصعداء وعدت أنتظر من جديد ، وأقطع وقتا طال بتأمل ما فى الغرفة من صور وآنية زهر وقطع أثاث ، حتى سمعت وقع الحذاء العالى على أرض الردهة الخارج فأمسكت قلبى أن يثب من أضلاعى .

كانت مرتدية ثوبا من الصوف وملقيه على كتفها معطفا يهتز كماه فى حركة تساوق مشيتها الرشيقة ، ورأيتها تخطو إلى الباب ثم تقف عند عتبته برهة وجيزة قبل أن تدلف إلى الغرفة وتنفرج شفتاها على ابتسامة حلوة تلمع بها العينان النجلاوان وترتجف الأهداب الطوال ، وأنتفض أنا على تحية تقول :

ــ صباح سعيد .

فتهتف كل جوارحى قبل أن يقول لسانى :

ــ صباح سعيد يا آنسة .

وتجلس على مقعد قريب فإخال البعد بينه وبين مقعدى كالبعد ما بين القاهرة والعزبة . وكأن الموقف لم يتغير ، ثم ران علينا صمت خلتنى فيه وخلتها صامتين حتى تنتظم أنفاسنا . وقد يكون ذلك صحيحا بالنسبة لى وحدى ، وقطعت حبل الصمت بسؤال ينطق بالحب والاهتمام :

ـ أرجو أن يكون الأستاذ فريد بك على ما أتمنى له من صحة وحسن حال .

ـ لا بأس ، والحمد لله ، وقد تأخر فى فراشه لسبب تعلمه .

قلت مبتسما :

ـ سهرا طويلا ، والأدب بخير ما دام منظاره بخير .

فابتسمت وأدركت ما أعنى ، وما عنيت إلا تذكيرها بالليلة الغراء ثم قلت :

ـ ويهمنى أن تكونى بخير .

ـ حمدا لله .

ثم سكتت فسكت كأننا لا نجد ما نقول ، وتفرست ملامحها فإذا اللمحة الخاطفة التى رقصت على وجهها ساعة دخولها قد اختفت . ولبست أميرة وجهها الفارغ الذى لا ينطق بشىء ، فأحسست مدية تحز فى قلبى ، وتراجعت آمالى وتطامنت نفسى ، وهاجت فى رغبة كانت نائمة ، فأحسست كأنى أريد أن ألطمها أو أبكيها ، وبخاصة عندما رأيتها توجز فيما تجيب به ، وغالبت الغيظ وحملت نفسى على أن أقول :

ـ وكيف حال ليلى ؟

ثم تركتها تجيب بما تجيب به فلم أسمع ما قالت لأنى تابعت حديثى :

ـ سآخذ معى من القاهرة شبكة صيد الفراش التى وعدتها بها ، لتجمع ليلى فى الربيع ألوانا منه تدخل على نفسها البهجة .. وما أجمل

نفوسهن فى هذه السن وهن يأخذن الحياة مأخذا صريحا طبيعيا صادقا .. و ..

ـ وبعد هذه السن ؟

قلت وأنا أفرك كفا بكف وأرسل بصرى إلى صورة على الحائط :

ـ تدخل عوامل مساعدة على « أداة التصوير » أعنى نفوسهم التى تنعكس فيها الحياة فتخضع لمشيئة المصور تحسينا وتقبيحا .

كانت نبرات صوتى وملامح وجهى تفيض ولا شك بما تعج به نفسى .

كنت أريد ان أغضبها ، لا أدرى ماذا أقول ؟ أريد أن أدلك قلبها بنبأ أيا كان ، لأولد فيه الحرارة ، ولست أبالى ، فإننى جهزت لنفسى شخصية ألقاها دائما منذ يومنا الأول ، لأنهم لقنونى عنها ما جعلنى ألقاها كأنها خصم ، ثم أحببت خصمى ، وأحسست أنى أريد معانقته .

ورفعت بصرها إلى فتبينت فى بريقه معنى أظنه تحديا واستثارة وقالت بغير مبالاة :

ـ أتحسن التصوير ؟

ـ أى تصوير ؟

ـ إن كانت له أنواع فإننى أعنى التصوير بأداة التصوير .

ـ لا أحسنه ولا أعرفه .

ـ وأنا كذلك ، وما دام الأمر كذلك ، فلابد أن أستشير المختصين لأعرف مدى تحكم المصورين فى الصورة .

وكانت تضرب بكفها على ذراع الكرسى الذى تجلس عليه وتنظر إلى السقف مرة وإلى الأرض مرة فلا يلتقى بصرها ببصرى . قلت :

ـ وهم كثيرون .

ـ لا حاجة بنا إلى هؤلاء الكثيرين .. إن ابن عمى الأستاذ سامى ماهر بالتصوير وقد التقط لنا فى الإسكندرية عدة مناظر لأوضاع مختلفة أعتبرها أنا آية من آيات هذا الفن ..

ثم نظرت إلىّ ، فأحسست أن جمرة لمست فؤادى . ودخلت الخادم العجوز تحمل صينية عليها تحية غير عادية من الشاى وملحقاته ، وضعتها فى هدوء وانصرفت . وعزمت بينى وبين نفسى فى الفترة التى حجز دخول الخادم بينى وبين « أميرة » أن أدرج بالحديث فى طريقه الرسمى ، وعاتبت نفسى على أن سولت لى أنها تحبنى .

بدأنا نشرب الشاى وبدا لى أنها مرتاحة ، وشرعت أتكلم فأقول :

ـ أرجو أن أحظى بموافقتكم على إنشاء حظائر الدواجن فى هذه الأيام . أما خلايا النحل فإن أنسب الأوقات لبنائها هو فصل الصيف . وألقيت ما ألقيته وأنا صارف بصرى إلى صحفة الفنجان أتأمل ما رسم فيها فسمعتها تقول :

ـ لا اعتراض عندى . ويكون الرأى نهائيا إذا وافق أبى .

ـ هل علم بمقدمى ؟

ـ لم يعلم بعد .. آثرت أن تطول راحته فترة من الزمن . وكيف الحال فى العزبة ؟

قلت وأنا أصوب إليها نظرة صنعتها قبل إلقائها :

ـ قد يكون من غير الكياسة أن يتحدث المرء عن الشىء قبل أوانه وأن يتخيل الأمور فى ذروتها ، وهى قد لا تكون إلا ناشئة ، فإذا قلت لك مثلا : إن الثمار والمحاصيل ستتضاعف هذا العام فيتضاعف الإيراد فقد يحدث ـ ولا قدر الله ـ إن تخلف الآفات ظنى ، فمن الخير إذن أن نترك النتيجة حتى يخبرنا بها كاتب الحسابات ، ولكننى أعود فأقول مجملا : إن كل شىء هناك على ما يرام .

- ويبعث على الارتياح ! .

ورأيتها مريحة خدها علـى كفهـا وذراعهـا مستندة إلى ذراع الكرسـى ، وبدا لى أنها ترمى إلى ارتياحى أنا شخصيا ، وتدفعنـى برفـق مـن بعـد إلى أن أخوض فى شئوننا بعد ، ولكنى جنحت عن رغبتها عامدا وقلت :

- سترتاحون لكل التصرفات هناك .

فتنفست طويلا قبل أن تزيل مجلسـها معلنـة أنهـا ذاهبـة لتسـتعجل قـدوم والدها ثم خرجت وتركتنى فى حيرة من أمرى .

وما لبثت حتى دخل الأستاذ يفيض وجهه ببشاشته المعهودة ، وقـد فـرح بلقانى كأننى صديق قديم ، ثـم بـدأ يتحـدث عـن متـاعب الشـتاء وعداوتـه للشيوخ ، وعن مرض السكر ومرارة ما يلقى المصابون به . قال :

- إن المرضى به يا بنى أشبه شىء فى نظرى بصهريج من الزجـاج صغـير رقيق لا يفتر عن صب الماء لحظة .. معرض للكسر إن أصابته حصاة .

ثم ابتسم ابتسامة الراضين أو من يعتقدون أنهـم نـالوا مـن الدنيـا قبـل أن تنال الدنيا منهم . وكنت ملقيا إليه بكـل حواسـى حيـث أدركـت فـى هـذه اللحظة أنى أتمتع بشىء واحد يحسدنى هو عليه .

ولم تطل غيبة « أميرة » فقد عادت تشاركنا المجلس ، وامتد بنـا الحديـث حتـى تناولنـا شئون الزراعـة ، وأبـدى الشيخ موافقتـه علـى إنشـاء حظـائر الدواجن . قالت « أميرة » :

- أتستطيع السفر معى يا أبى لترى هذا المشهد الجميل ؟

فنظرت أقرأ ما فى عينى أبيها فـإذا بـه يسـألها الجـواب عـن سؤالها وهـو صامت مبتسم ، وإذا بها تقول :

- أظن أن لا بأس فلا يزال الشتاء فى بدئه ، وإن كان هناك بـرد وفـرت لك من الدفـء ما يريحك . (فوافق الشيخ) .

ثم تراخى الحديث بيننا فأدركت أنه لابد من الانصراف فاستأذنت بعد أن رجوت إعارتى بعض كتب ، وخرجت قاصدا إلى محط الضاحية لأركب إلى المدينة ، وهل هناك ما أحن إليه فيها غير صديقى صالح ؟!

أخرجت المفتاح من الكوة وأدرته فى الباب وعلى شفتى ابتسامة حب وشفقة . وكنت أقول فى نفسى : لن يتغير ... لن يتغير صالح ... رابض يرقب الزمن كأبى الهول !

ويحين ميعاد عودة الموظفين ويندفع الباب فأرى صالحا ماثلا أمامى ونتعانق فى محبة وشوق وإخلاص ، ثم نأخذ غداءنا ونتمدد على سريره لنخوض فى شئون شتى .

مال ذلك الطول الملىء نحو النحافة شيئا ما ، وخبت حدة الطبع ، وبان فى العينين الواسعتين شىء من الشرود ، وتقيدت ثرثرته ، أو مقدرته على الاستطراد ، واستولى عليه تشاؤم حزين يخالف المرح الذى عرفناه به ، كان يشرب الخمر ويصادق النساء ويفرط فى السهر ، وهو ما يعتقد أنها غنائم يجب أن يجمعها فى وقت قصير . أما الآن فهو يفعل هذا كأنه يستعجل أجله كالذى يبذر فى مال أسرته قبل أن يضبط به .

حدثنى عن حبه الأخير فقال :

- أحببت يا صديقى كثيرات كثيرات ، فتيات وغير فتيات ، لأنى كنت أحترف الحب ، لم أعرف منه إلا ملذاته ، فذقت حلواه ولم أحرق بناره ، حتى كان تعلقى بهذه الممثلة التى وقفت منى موقفا أعلم ما هو ، وقفته من قبل مع نساء ارتمين تحت قدمى تلها ولهفة ، فدفعتهن وانصرفت أقهقه .

ثم سكت صديقى وأعرض عنى بصفحة وجهه ووضع كفه على جبهته كأنه يشكو صداعا ، فأقبلت عليه أقول :

- وبعد يا صالح ؟

ــ وبعد ؟ .. خف الكيس فخف الحب وفرغ القلب ، ولم أعد أراها تشق إلى الصفوف في المرقص تتخبط في أذرع الكراسي وأقدام الجالسين . وسرعان ما انصرفت إلى صيد آخر ، ولكنني أحبها على الرغم من كل شيء .

ــ ثم علمت ان القلوب قد تستأصل بالجراحة كما تستأصل اللوزتان .

ــ آه يا صديقي .. لا تسخر ، فأنا قاموس عن الحب كان ينقص بابا واحدا . فكمل القاموس بعد حبي الأخير ، معجم في جلدة سوداء جمعته أيام حزينة لكنه مرجع للمحبين .

فابتسمت قائلا :

ــ عندي استشارة ، فهل تسمح ؟

فحدق في وجهي كأنه لا يصدق ، فتظاهرت بأنني أهزل وقلت :

ــ لن أبديها لك حتى أعلم أجرها أولا .

ــ لك بالمجان .

ــ هذا حسن إذن ، فما رأيكم دام فضلكم في فتاة يبين الهوى في عينيها وتتحدث به قسماتها وفلتات لسانها لكنها لا تصرح به . وكيف تحمل هذه الفتاة على أن تكاشف بالحب ؟

فضرب جبهته بكفه وأغمض عينيه كأنه يتذكر شيئا وانقضت فترة صمت قبل أن يلتفت نحوي ويقول :

ــ هذه المشكلة هي الباب الأول من قاموس حبي ، هذه أول تجربة صهرت قلبي في بوتقتها ، معذرة فإنه لم يكن قلب . وعلى كل حال فعندي فيها الجواب الشافي ، لكن الجواب يستلزم بضعة أسئلة .

فبدت الحيرة في عيني ظننت أنه يريد أن يكشف عن سري ، ولكن عدت فوعدته بالإجابة . قال :

ــ أتراها رائعة الجمال ؟

فأجبته بالعكس وقلت :

ـ إن رأيتها بغير عينى اعتبرتها دميمة .

ـ إذن فمن المحتم أن تصارحها أنت بالحب ، فإن مثيلات هـذه يلقـى اليأس فى نفوسهن أنهن غير جديرات بالحبيب ، فيجنحن فـى كثـير مـن الأحيان إلى تحفـظ وتعفـف يكمـل النقـص الفطـرى ، حتـى إذا مـا قـدم العاشق من المواثيق ما يرين أنه صالح ألقين أنفسهن بين أحضانه .

ـ وإذا كانت رائعة الجمال يا صديقى ؟

فأنكر موقفى وقطب ما بين حاجبيه . ثم ابتسم فى ثقة وقال :

ـ إذا كان الأمر كذلك ، فلى سؤال جديد :

ـ أهى تعرف شخص الفتى ووضعه من المجتمع ؟

فأجبت بالعكس : لا .

ـ إذن فقد أحبته لمعنى عشقته فيه : جمال وجهه .. أو حسن تأتيه أو أنها تريد حبيبا لقلبها المقفر ، والجواب الشافى هو ان يلقاها مـرة حيـث اعتاد أن يلقاهـا ، ويقـول لهـا : وداعـا .. أرجـو أن أراك بخـير ، فـإننى مرتحل إلى بعيد ، ولست أدرى متى أعود ، لأن ظروف حياتى اقتضتنـى ذلك ، وهنا ينفتح صمام الأمان ويفلت من يدها زمام الحيطة ، فيقول لها المحب ما يشاء ، وأؤكد لك أنه سيسمع منها ما يشاء كذلك .

فقلت مبتسما : وإذا كانت تعرف شخصينه ووضعه من المجتمع ؟

فتململ وقال : أتتحدانى ؟ أتختبرنى ؟ .. أما قاموس .. هل تسـمع ؟ وإذا كانت تعرف شخصيته ووضعه فى المجتمع ، فإن لى سؤالا آخر .

ـ هات .

ـ أيهما اعلى طبقة ؟

ـ الفتاة .

ـ بدأت تجد يا صديقى .

ـ وما يدريك ؟

ـ عيناك .. فيهما معان جديدة لم أرها من قبل ، وقد غاب لونك وأراك مشتاقا إلى الجواب .

ـ قل مايرضيك فأنا لا أعرف الحب .

ـ مخدوع ، وأراهن على عكس ما تقول ، مخدوع واللّه فكل شىء فيك ينادى بأنك تحب ، كنت تنظر إلى بعد كلمتك الأخيرة ، كما تنظر تماما إلى شفتى القاضى ، إن سكين الحب مشحوذة تسيل الدم ولا تعقب ألما ، وأنت منه فى شوطه الأول وهو ألذ ما فيه ، وعلى كل فهذا لا يعنينى والذى يعنينى هو أنه إذا كانت الفتاة أرفع منك طبقة ..

ووارى عينيه بكفه وهو مستلق على ظهره إلى جوارى ثم سكت طويلا فقلت له فى ذهول فلم أشعر بما أقول :

ـ إذا كانت أرفع منى . فماذا يكون ؟!

فمال إلى يقبلنى :

ـ أهنئك .. أنت تربة صالحة سيغير الحب وجه مستقبلها ، ستخرج للناس أزهارا وأثمارا ، أنت أديب فكيف تعيش من غير حب إلا إذا تصورنا سمكا يعيش على الأرض ويرعى فى الحقول ؟ أنت غيرى لأنى من شباب فتنتهم الأجساد ، وأعرفك من الذين يبتغون القلوب .. سينعشك العطر .. سيهديك النور ، وإن أحرقتك النار شممنا منك طيب عرف العود .

أصغ إلى يا صاحبى فإن المشكلة جديرة بالإصغاء ، أتستطيع أن تغازل فتاة سواها ؟ ما أظن فإن سجيتك الحياء ولكنه شىء ضرورى .. تزاوله على أنه دواء ، كما يشرب المتحرجون الخمر بإشارة من طبيب ، ولست أقصد أن تغازل فتاة أيا كانت ، وإنما أعنى فتاة تساويها كأن تكون صديقتها أو قريبتها ، وأشترط أن ترى هى بنفسها عينيك اللتين تفيضان بحب غيرها ، فإذا ...

فقاطعته :

ـ إذن لابد أن أكون ممثلا !!

ـ ممثل ! كلنا ممثلون .. ولو أن الرجل منا أعلن عن خبايا نفسه لكل إنسان ما أحبه إنسان .. ألم تقرأ ما نشر فى الصحف مرة عن رجل أسبانى أقسم ألا يكذب ما عاش ، ثم مات فلم يشيعه إلى قبره رجل ولا امرأة .. ولا طفل . ودرجت العربة بجثمانه إلى القبر فى وحشة فريدة . ومعنى هذا أن المجتمع يقول للفرد : لا أحبك إلا إذا كنت كذابا أو منافقا .

عدنى أنك ستفعل .. إنما أرشدك يا صاحبى لوجه الحب . ولأجل الفن لا أبتغى منك جزاء ولا شكورا .

وضحكنا وقلت :

ـ أشكرك أيها القاموس .

ثم نظرت فإذا ميزان النهار قد مال ، وإذا الشمس الجانحة نحو الغروب تنادينى بأن أرتحل عن القاهرة .

* * *

دخلت العزبة فى ظلمة الليل ، وما كدت أقترب من منزلى وأنا أعبر الساحة حتى رأيت الضوء يلمع فى نافذتى ، وأبصرت بخيال امرأة يغدو ويروح فى انتظار وقلق ، وما كانت سوى زينب .

وسمعت فتحة باب الشقة وأنا لا أزال أصعد السلم ، ثم سمعت وقع خطواتها وهى خارجة لاستقبالى ، وقد ألقت على نظرة متفرسة ، وفى يدها مصباح تضئ به الطريق لى ، وعلى شفتها ابتسامة فاضت بالحلاوة . قالت :

ـ حمدا لله على السلامة .

فأجبتها بابتسامة خفيفة وبشاشة متكلفة ، وجلست أتناول العشاء فى صمت ، وهى تغدو وتروح تنظر إلى وكأنها تدافع نفسها عن أن تقول شيئا . ولما نفد صبرها سمعتها تقول :

ـ إخالك قد تعبت فى سفرك .
ـ ليس كثيرا .
ـ وهل حدث شىء لا ترضاه ؟
ـ مطلقا .
ـ كأنك مشغول .
فقلت بغير ترفق :
ـ وهل تريديننى فارغا لا تشغل الأعمال ذهنى ، طبيعة الرجل أن يكون مشغولا . وهناك مشروعات سنقوم بعملها قريبا .
فلاذت بصمت عميق ، ومرت فترة دخل حامد بعدها . وكان أول ما بدأنى به أن قال :
ـ لقد كنا كالغرباء فى العزبة فى اليوم الذى غبته عنها . أنت اليوم ضرورة من ضرورات حياتنا .
وبعد فترة أخرى انصرفت زينب وبقيت أنا وحامد نسمر ونتحدث فى شئون الزراعة . وقد أخبرته بقرب حضور الأستاذ فريد وفتاته ، وبالمكان الذى رأيته صالحا لإنشاء حظائر للدواجن ، ثم انصرف عنى واستسلمت أنا لنوم مشرد .
ولم تكف زينب فى الليلة التالية عن مهاجمة سر نفسى ، حتى قلت لها :
ـ إن لقاءنا يا زينب لم يكن كما تتوقعين ، كان لقاء عاديا بحتا . وأستطيع أن أقول : إنه كان فاترا .
فاتسعت من الدهشة عيناها السوداوان وصمتت برهة ثم قالت :
ـ أبدا يا سيدى .. أنا أعرف سيدتى أميرة .. لو اشتعلت فى أطرافها النار ما صرخت ، رزينة أكثر مما يجب وأؤكد لك أنها تحبك لكنها تغالب .. وهو لا يغالب !!
قلت : وماذا تعرفين عن الأستاذ سامى ؟
فقالت : آه .. أذكره .. وقد رأيته مرتين أو ثلاثا : هنا مرة ، وفى

القاهرة مرة أيام سافرت مع الآنسة سفرا غير طويل .. ولك أن تثق أن هذا الشاب لا يزيد على أن يكون ابن عم لأميرة . وهذا مبلغ علمي عنه .

وجعلت الأيام تمر ، وأنا فى موقف متعب .. موقف رجل يزعم أنه لا يغار ، ثم يترك خياله فى كل يوم مرة أو مرتين ليرسم صورة الأستاذ سامي ؟. فكيف كنت أتخيله .. كان أول عمل أقوم به هو أن أستحضر صورتى فى المرآة ، صورة جسمي كاملا ، ثم احصى معايبه وألغى هذه المعايب لأحل محلها محاسن ، فتولد صورة جديدة لهيئة رجل كامل أطلق عليه الأستاذ سامي . وهنا أحس حسرة فأستشعر ألما لأن غريمى الموهوم مثال للخلق الكامل ، ثم لا ألبث أن أتراجع .. هل تتطلب المرأة فى الرجل أن يكون مثالى الخلقة .. ؟ إننا نحن الرجال لا نشترط هذا دائما فى المرأة ، على أن الجمال مقوم من مقومات الأنوثة .. فكيف يشترطنه هن فى الرجل .. ؟ لا أظن .. ! وإذا كان جمال الرجل أول شفيع يتقدم بين يدى الحب إذا كان الحبيبان متجاهلين فيعطف قلبا نحو قلب – إذا كان كذلك فإن لجمال النفس وحقيقة الشخصية الشوط الأخير فى العلاقة . وكثيرا ما تتبين المرأة أن حبيبها الجميل هذا ليس إلا كأقواس النصر التى يقيمونها من خشب وخيش ويموهونها بالألوان فتبدو كأنها من الرخام الثمين فإذا ما لمست فضحتها أول لمسة .

لم أكن أعرف موعد حضورهم بالضبط ، وكل ما أعلمه أنه قريب ، لذلك كنت أصوب بصرى نحو النوافذ وأنا راجع من الحقل ممنيا نفسى أن يكونوا قد حضروا وأنا بعيد لا أشعر . وأنهض من نومى فى جوف الليل البارد لأفتح نوافذى متخيلا أننى سأرى ضوءا من خلال نافذتها المغلقة ، وكذلك كنت أفعل فى الصباح . وكنت أسأل نفسى أحيانا عن السبب وأنا آتى هذه الأعمال ، فكانت تجيبنى مرة بأنى أحب ، وتجيب مرة أخرى بأنه مجرد انتظار للأسرة ، والقلق من طبيعة الانتظار .

ولم تكد الشمس تغيب اليوم فى الأفق الغربى من وراء سحب منشورة

كأنها نديف القطن حتى رأينا سيارة تتهادى مع المساء قاصدة نحو العزبة ، عرفنا من صوت بوقها أنها سيارة الأستاذ فريد . وتكرر المنظر القديم ، وخف الناس للقائهم وفتحت النوافذ ودبت فى البيت الحياة .

ولم تكن زينب بجوارى الليلة وأنا أتعشى لأنها فى شغل بمقدم أميرة ، وفرغت من عشائى فنزلت من فورى إلى منزل الأستاذ . وأحسست وأنا أجتاز حقل الأزهار أمام البيت قبل أن أدخل الباب أن رعشة مفاجئة تمشى فى أوصالى .. كنت على يقين أنها ليست من البرد وحده ، وإنما للخوف دخل فيها . وكانت نبضات قلبى تسابق نقل قدمى على درجات السلم لأنى على الرغم من كل شىء مشتاق إلى أن أراها . وكم وددت لو استطعت أن أقول لها قبل أن أحييها : آه .. إننى أراك على الرغم منى ، أحبك وأكرهك فهل تتصورين !؟ ..

أحبك لأنك ضرورة ، وأكرهك لأنك ضرورة كذلك ، كما يحب المخدر ويكرهه مدمن المخدر . وأنت غيبوبة لذيذة سبحت فيها نفسى .

ولعله من المصادفات المحضة أن لقيتنى فى الردهة التى بين الحجرات ، لأنى لا أستطيع أن أجزم بأنها كانت متعجلة لقائى ، وغمغمت بالتحية كمن يتكلم وهو نائم ، وبصرت بيدها تمتد نحوى مصافحة . فألقيت فيها كفى التى كانت بلا أعصاب ونظرى متجه إلى عينيها الفصيحتين ، فخيل إلى أنها تسألنى عن حالى ، وأن فيهما شيئا من الأسف على موقفنا العقيم يوم التقينا فى القاهرة .

ودخلت إلى الأستاذ فى حجرة نومه لأنه كان يبدو ليس على استعداد لأن يقرأ أو يكتب فى أعقاب السفر والليل بارد ، كان مستلقيا فى فراشه نصف راقد وقد لف حول جسمه دثرا ثقيلة وعلى مقربة من سريره مدفأة فيها جمرة الخشب . ولقينى بود كما عودنى وجلست على أريكة هناك ثم بدأنا نتكلم .

خضنا أول شيء في شأن ما جمعنا من محاصيل ، وكانت بحمد الله شيئا حسنا ، فأثنى الأستاذ على جدى وأطرى حسن توفيقى . ودخلت أميرة فجلست على الطرف الآخر من الأريكة التى أجلس عليها وجعلنا نحسب نفقات مشروعنا الجديد واتفقنا على أن ترسل في غد فنحضر من سيبنون الحظائر ، ومكثت مدة أتحدث إليهما في شروطها ومواد بنائها من الخشب والأسلاك وكيف نختار أنواع الدجاج ونعرف البياض منه وغير البياض . وفى خير أنواع الأوز والأرانب ، وكان الأستاذ مصغيا في اهتمام وسرور ، أما أميرة فيخيل إلى أنها كانت تشرب الحديث شربا .

وما انقضى أسبوعان حتى بنيت الحظائر وأطلقت فيها الطيور ، وأقيم فى حراستها بالليل كلبان من خير أنواع الكلاب كنت أصغى إلى نباحهما فى جوف الليل بلذة عجيبة .

كان حبى قبل هذين الأسبوعين — وإن سبق أن احتفلت به فى خيالى — أشبه شيء بجنين ناقص ولد لغير تمام ، فما كان حيا فيرجى ، ولا كان ميتا فيبكى . ولا يعيش العقلاء من الخياليين على خيالاتهم طويلا ، ولكنهم بعد فترة يشتاقون إلى أن تظهر فى حيز الوجود ، ويعتبرون تخلفها عن الميلاد فجيعة كبرى . لذلك رأيتنى متلهفا إلى أن أقوم بأى عمل حيال أميرة ، وكنت أريد أن آتى أمرا ينعش هذا الحب أو يقتله ، ويبلغ تصميمى على العمل ذروته ثم أذكر غضبها المحتمل الوقوع ، والذى يرادف تماما خروجى من العمل خروجا غير كريم ، فأعود إلى موقف المتردد .

ولم يحدث من جانبها فى أسبوعينا هذين ما اعتبره خطوة جديدة فى طريق حبنا ، بل كانت على العكس فى موقف لا يمتاز كثيرا عن موقفها منى عقب أول مرة .. وقد ترددت على الأستاذ بضع ليال شاركتنا الحديث فيها مشاركة عابرة خالية من الاهتمام كأنها تعالج هما مكتوما . وسألت زينب ذات ليلة عن رأيها فى مظهر الآنسة ، فأجابتنى فى وجوم :

ـ أراها غير طبيعية يا سيدى ، أراها كثيرة التفكير ، طويلة الشرود ، قليلة الكلام ، وقد كنا دائما نثرثر فى شئون عامة وخاصة لكننى وجدتها فى هذه الزورة تحيد عن التوسع فى أى حديث ، ولا أكتمك أننى متحيرة .. لا أدرى !! (ثم هزت كتفيها فى يأس) .

وها نحن أولاء فى ضحا اليوم الأخير من مقامهم القصير . واليوم مشرق جميل ، يميل نحو الدفء ، حتى خدع بعض العصافير فجعلت تشقشق فى الغابة كأنها فى أحد أيام الربيع ، وكنت أعبر الطريق الذى بين حديقة الفاكهة والغابة وأنا راجع من الحقول ، حيث أقيمت هناك عند مدخلها حظائر الدواجن وقد كنت أتفقدها . وقاربت أن أنتهى من الطريق وأدخل إلى الساحة الواسعة التى يقع فيها مدخل الغابة ، وحانت منى التفاتة فرأيت أميرة جالسة بعد المدخل بقليل فى مكان واسع خال من الشجر تغمره أشعة الشمس وهى تقطع وقتها ببعض أشغال الإبرة . وكان كل منا يرى صاحبه بسهولة لأنه لم يكن يفصل بيننا إلا سور من الأسلاك الشائكة تنمو عليه بعض نباتات متسلقة غير كثيفة . وواصلت سيرى حتى إذا ما حاذيتها رفعت يدى بتحية الصباح فرأيتها تكف عن العمل وترفع صوتها بالرد على .

وبطؤت خطاى من غير قصد ، حتى توقفت عن المسير تماما حين سمعتها تسألنى :

ـ أقادم أنت من حظائر الدواجن ؟

ـ نعم .

ـ ورأيت الطيور كلها بخير ؟

ـ كلها بخير .

وكنت واقفا خارج السور الشائك الذى لا يبلغ قامتى ، وهى جالسة على مقعد خشبى من فرع شجرة والمسافة بينى وبينها لا تزيد على ستة أمتار ! ومدخل الغابة فى الساحة على بعد خطوات منى بحيث لم يكن هناك ما يدعو إلى أن أحدثها من وراء السور . لكننى فعلت هذا وأجبتها عن

سؤالها وأنا في موقفي ، فما لبثت أن سمعتها تقول في لهجة يمتزج فيها العجب بالغضب الخفيف ، وهي تشير إلى السور بيني وبينها :

ــ كأن أحدنا الآن في قفص الاتهام .

فلم أتكلم بل درت مع السور حتى دخلت إليها ، وكان أول ما بدأتها به أن قلت وأنا جامد الملامح :

ــ ها أنا قد خرجت من قفص الاتهام يا آنسة .

فقالت وهي تبتسم :

ــ أنسيت أنني قلت كأن أحدنا ، ولم أعين شخصا ؟ هل آذتك هذه العبارة ؟

ــ مطلقا .. ولكنني أوثر أن أخص نفسي بالشر ، إذا كان من الحتم أن تشاركيني فيه .

ــ أشكرك ، وما قصدت بما قلت إلا أن أريحك من عناء الوقوف .

فجلست على المقعد من فوري وبيني وبينها مسافة غير بعيدة وظللنا صامتين فترة كانت خلالها مشغولة بنقل عرا الصوف من إبرة إلى إبرة في حركة سريعة أرادت بها أن تخفي رعشة سرت في يديها ، وتشاغلت أنا خلالها بالنظر إلى الأشجار والحقول ثم بالنظر إلى أظافري بعد ذلك ، كنت أستمع في هذا الصمت إلى حديث نفسي التي دفعتني إلى أن أتكلم ، فقلت :

ــ يخيل إلي أن أشغال الإبرة لهتك عن الألحان شيئا ما .

فابتسمت وهي لا تزال ملقية ببصرها إلى ما بين يديها وقالت :

ــ مطلقا .. هذا شيء ، وذاك شيء ، ولا يصلح أحدهما أن يكون عوضا عن الثاني .

ــ إذن فالذنب ذنب الشتاء .

ــ وكيف ؟

ــ كانت النوافذ المفتوحة في ليالي الصيف تسمح للأنغام بأن تتسلل إلى غرفتي ، فتنقلني من سكون الريف إلى جو منغم شعري

جميل . أما الشتاء ..

ـ فهو فصل مجدب موحش .

ـ بالنسبة إلىّ على الأقل .

ـ وإلى هذا الحد كان يعجبك عزفى ؟

فلم أملك إلا أن أتنهد وتتابعت دقات قلبى حين ألفيتها تنصرف عن العمل وتتجه إلى لتسمع الجواب . وتحول كل منا نحو صاحبه حتى صرنا متواجهين ، فقلت :

ـ إلى حد أننى وعيت كل ما تعزفين ، وحفظت سياق ما تنغمين ، وبخاصة مقطوعة بعينها أراهن على أنها لو عزفت وأنا نائم لانتبهت من نومى .

فضحكت ضحكة فاضت بالسرور ، وعادت تسألنى :

ـ إخالك تبالغ ... أى مقطوعة هذه التى يتعمقك سحرها إلى هذه الغاية ؟

ـ وكيف أستطيع أن أعينها وأنا لا أعرف أسماء المقطوعات . أنا لا أعرفها إلا بينى وبين نفسى فحسب ، وقد ارتبطت كل واحدة منها بمعانى خاصة ، وأنت حين تعيدين عزف إحداها تعيدين إلى الذهن ذكريات الليلة التى سمعتها فيها للمرة الأولى .

ـ حسن ، ولكن ألا تستطيع أن تعينها بأية وسيلة ؟

ـ أستطيع ، هل تذكرين اللحن الذى كنت تعزفينه ليلة كتبنا القصة معا ؟ دخلت البيت ليلتها بعد أن استدعانى الأستاذ وأنت فى الحجرة الشرقية ، فسمعت فى جو المكان نغمات لحن هادئ توقعينه . فهل تذكرينه ؟

فوضعت إصبعها على فمها وشخصت عيناها قليلا قبل أن تقول :

ـ نعم ... تذكرت ... إنها مقطوعة كذا وغريب أن تكون مفتونا بها .

وبدت في عينيها أمارات الأسف ، فأسرعت إلى أن أقول :

ــ ويعجبنى أنها تعجبنى .. أنا مصر على أنها أجمل ما تعزفين .

ــ أيعجبك ان تكون من المتشائمين ؟

ــ وكيف ذلك ؟!

ــ لأنها مقطوعة حزينة ، قالت لى عنها معلمة الموسيقى : إن الذى وضع ألحانها قد نجح نجاحا باهرا فى تصوير خلجات النفوس اليائسة التى رأت آمالها تستحيل فجأة إلى حطام ، وإن كان اسم المقطوعة لا يدل على معناها تماما .

ــ لقد خدم هذا الموسيقى مجموعة كبيرة من الناس ، لأن المرء فى بعض الأحيان تعوزه الدمعة ، حتى يحس أنها ضرورة لنفسه كما يحس أن الغذاء ضرورة لجسمه ، وأنا حقيقة يا آنسة من الذين يعتقدون أن مآسى الحياة أكثر من ملاهيها .

ــ قد يكون ذلك صحيحا ، ولكن مثل هذا الشعور تضطرم به النفس عادة فى إثر تجربة قاسية تمر بالإنسان ثم لا يلبث أن ينظر إلى الحياة من جديد نظرة معقولة ، أعنى نظرة تغلب فيها الآمال على المخاوف .

وأرسلت إلى نظرة هادئة عميقة كأنها تستشف بها دخيلة نفسى ، وتململت بعدها فى مجلسى لأدافع رغبة فى أن أقوم ، لكننى سمعتها تتكلم :

ــ وأنا شخصيا قد مررت بهذه المشكلة بعد وفاة أمى . كنت فى الثامنة من عمرى أفهم الحياة كما تفهمها بنت الثامنة ، ولكننى أنكرت الدنيا بعد أن غابت عنها وبقيت صورتها وهى مسجاة على السرير عالقة بذهنى زمنا طويلا ، حتى عفت اللعب والمرح والطعام ، ولم يكن بجسمى مرض ، ولكننى كنت ذابلة هزيلة . غير أن النسيان الذى نسخط عليه فى كثير من الأحيان ، يعد نعمة فى هذه المواقف لأنه يخلصنا شيئا فشيئا من ذكرياتنا الحزينة .

ــ مشكلة الحياة يا سيدتى هى أن يعتقد المرء أن شيئا ما ضرورة له

فى حياته ، ثم تقوم العراقيل بينه وبين هذه الضرورة ، ثم يكدح ويكدح فلا تزول العراقيل ولا تنتفى الضرورة .. وهنا تطغى على النفس موجة من التشاؤم قلما تخرج من نطاقها النفس .

تحدثت بهذا الحديث وأنا مول وجهى عنها ، ولما فرغت منه نظرت إليها فإذا بها عادت إلى صوفها وإبرها مكبة على العمل كأنها لم تسمع منى شيئا وكأنها منصرفة إليه منذ وقت طويل . لكنها كانت ممتقعة اللون متغيرة الملامح كمن يعالج مشكلة ذهنية ، فأحسست على الرغم من دفء الشمس ببرد الشتاء وغمرتنى موجة من الخجل فندمت على ما قلت ، وحولت الحديث سريعا إلى مجرى عادى ، حين رفعت صوتى قائلا :

ـ سمعت أنكم ستسافرون غدا .

ـ نعم غدا .

ـ إذن فبعد الغداء أجمع لكم ما تشاءون من الفواكه .

ـ كذلك .

فقمت من مكانى وأنا أقول :

ـ أهناك رغبات أخرى أستطيع تحقيقها ؟

وكنت تجاهها حين ألقيت هذا السؤال ، فأجابتنى وهى منصرفة إلى عملها فلم تنظر إلى :

ـ نعم . لى رغبة خاصة .

قلت بلهفة :

ـ سأكون أسرع الناس إلى تلبيتها .

فسددت إلى من مجلسها نظرة لها بريق الخنجر وحدته . وسألت :

ـ أتعدنى بذلك ؟

ـ أعدك .

ـ وتقسم ؟

فقلت مندفعا :



.. أهناك رغبات أخرى أستطيع تحقيقها

ـ أقسم بأعز مخلوق على نفسى أن أحقق كل ما تريدين .

فقالت وهى تبتسم :

ـ أحب أن تستأنف النظر فى ضرورات حياتك مرة أخرى ، وأرجو ألا تعتبرنى متدخلة فى خاصة نفسك ولا داعى للإطناب لأنه يزيد الأمر غموضا وتعقيدا . وإذا كانت بعض ألحانى تزعجك فسأحاول ألا أعزفها ما استطعت .

ثم استرجعت نظرتها فى فتنة حزينة ، ومدت يدها فتناولت قفازها وبسطت إحدى كفيها لتلبسه قبل أن تقوم ، وكنت لا أزال فى موقفى أمامها قريبا منها فأحنيت رأسى وحملقت فى كفها المبسوطة ثم نصبت قامتى سريعا فرأيت العجب فى عينيها وقالت : ماذا هناك ؟

ـ لا شىء .. إلا أن فى خطوط كفك خطا يلفت الأنظار قلما يرى فى أكف الناس .

فقالت مبهوتة : أتؤمن بمثل هذه الأشياء ؟

ـ ليس إلى حد كبير ، ولكن النفوس متطلعة دائما إلى كهوف الغيب ، تنظر فى ظلماتها وتخمن ما فيها فتخطئ وتصيب .

فتحركت فيها رغبة وسألتنى : وما الذى يدل عليه هذا الخط ؟ .. إننى لم أجرب قراءة الكف مطلقا ..

قلت وأنا أتكلف ابتسامة فيها خوف ورجاء :

ـ عدينى أولا بأن تعتبرى ما سأقوله تسلية لا طائل تحتها .

ـ أعدك .

فقلت وأنا أضغط كلماتى محاولا ألا تضل عن سمعها واحدة منها ، عامدا إلى أن أشفى غلة صدرى ، وأن أرد لها دينا أرهقت به نفسى قبل أن تفوت هذه الفرصة التى كانت أميرة فيها تمثل المرأة كما خلقت من ضعف ورقة وسرعة تصديق ـ قلت :

ـ ستقع فى حياتك أحداث عظام يا آنسة .

قالت في وجل وإن أظهرت قلة اهتمام :

ـ عبارة مرنة تقبل كل تأويل .

ـ هذه ما يقوله دائما أصحاب هذا الفن .. ولكن صدقيني أنه سيكون في حياتك حدث عظيم جدا . عظيم من نوعه .. ولا أعلم غير هذا .

ثم أحنيت رأسي محييا وفررت من بين يديها ، وتركتها تكمل لبس قفازها في حيرة وشرود .

وأظلنا المساء الأخير دافئا ينتشر في جوه الضباب ، وتحتجب سماؤه بطبقة من السحاب الداكن ، وكنت في منزلي دائم التنقل بين الحجرات كأنني ملسوع ، لا أرغب في النوم ولا في القراءة ، ولا أشتاق شيئا في الوجود إلا أن تقاسمني هذه النفس مسراتي وأحزاني ، كأنني عميت عن كل شيء ما عداها .

ومر هزيع من الليل وأنا في موقفي هذا ، وكان آخر مطافي أن فتحت النافذة التي تعودت أن أرقبها منها واتكأت على حافتها وجعلت أنظر فلا أرى إلا نورا خافتا ينبعث من خشب نافذتها المغلقة ، لكنني لم أبرح كأنني أرتقب طلوع نجم ، وكان مصباحي لا يزال مضاء في حجرة أخرى تركت نافذة فيها مفتوحة الخشب مغلقة الزجاج لتعلم هي مقدار سهري إن كانت تراقبني . ومرت فترة لا أعلم مداها ، رأيت بعدها وأنا في الظلام ظلا يتراقص من وراء نافذتها ، ثم رأيتها هي بعينها حتى لم أعد أراها ، وتنقضي فترة سكون تتضاعف فيها دقات قلبي ، ثم يؤنس بعدها وحشة الليل لحن ينبعث من معزفها ، ولم يكن إلا المقطوعة التي أسفت على أنني من المعجبين بها ، والتي وعدتني في الصباح ألا تعزفها .. فلماذا فعلت ؟ .. لقد حيرتني !

وارتفع ضحى اليوم التالي فاستقلت الأسرة سيارتها إلى القاهرة ، وكان الشيخ يومئذ بادي التعب كأنه لم ينم طول ليله ، أما هي فكانت ترد على المودعين التحية دون أن ترفع طرفها إلى أحد .

(بعد الغروب)

١٢

جعلت بعد سفرها آخذ الحياة كما تعرض لى ، وأمشى فى سبيلها كما يمشى الزبد مع سوابق السيل .. لا أرسم لها خط اتجاه ولا أقترح على الأيام ، ولا أتمنى على الزمان .

وعاهدت نفسى على أن أنساها ، لأنه لا طاقة لى بهذه الشخصية العنيدة التى تتذبذب بين يدى كحبة الزئبق بين الأنامل ، وحظرت على زينب أن تخوض فى شأنها ، ولم يبق من نفحات الحب ما يهب على قلبى إلا ما كنت أسمعه من أغانى زينب التى ترددها وهى فى المطبخ على نغمات « موقد البترول » فتصل إلى أذنى بعض جملها الريفية التى تدور دائما حول الحب اليائس والحبيب البعيد .

ورأيت أن خير وسيلة لنسيانها هى أن أرهق جسمى فتستريح نفسى ، فكنت أكدح طول النهار فى المزرعة حتى إذا جن الليل تناولت عشائى وجلست إلى كتبى بعد راحة قصيرة ، أقرأ فيها ، ثم أنتقل إلى بعض المجلات ثم أمسك قلما وورقة لأكتب .. وما أكتب ؟ كنت أسطر كل ما يجول فى خاطرى ، وأسجل كل ما يفيض به شعورى بصرف النظر عن جودة الفكرة أو وحدة الموضوع ، لأننى أريد أن أقطع الليل ، وأريد أن أنساها ، ولكننى كثيرا ما كنت أناجيها بما أكتب !!

أردت الليلة أن أجرب حظى فى شيئين أراهما مهمين فى حياتى ، لذلك سهرت لأكتب رسالتين سأبعث بهما إلى القاهرة فى صباح اليوم التالى :

« أخى صالح »

صار جدا ما كنت أمزح به ، وأكتب إليك اليوم مستشيرا فى أمر أرهق قواى وسهد ليلى وأقلق نهارى . أيها القاموس العظيم الذى جمع بين دفتيه آلاما وسهرا ودموعا ، أريد أن أتخلص من الحب دون أن أتلف

قلبي كما تخلص العين من القذاة ، أريد أن أحتفظ به سليما كريما حتى يخطبه قلب عاشق فيجده غير مجروح ، فهل تستطيع أن تدلني على الطريق ؟!

إن التي نثرت في طريقي الشكوك تسكن في ضاحية كذا ، وهذا هو عنوانها .. وربما ساعدك هذا على نجاتي أيها الأخ الأمين .

ومع خطابي هذا تحويل بمبلغ سبق أن تكرمت به عليّ.. أقبلك » .

أما الرسالة الثانية فقد كانت قصة سهرت أحبك حوادثها وأحرك أشخاصها وأنا في غمرة من الخوف والخجل ، لأنني كنت أتخيل بين كل فترة وأخرى رئيس التحرير وهو يبتسم ساخرا بعد أن يفرغ من قراءتها ثم يلقي نظرة على إمضائي وينظر إلى اسمي ويهز كتفيه وهو يقول : من هذا ؟ ! وتتعاقب أيام الشتاء في بطء شديد ، حتى يمر شهر وأنا أتابع أعداد هذه المجلة الأدبية المتوسطة الانتشار فلا أرى قصتي فيها ، وأرتقب ردا من صديقي صالح فلا يأتيني رد . وتأخذني موجة عنيفة من اليأس والقنوط فأقول في نفسي :

أما أمر المجلة فهو واضح مفهوم ، ولكن ماذا عسى أن يكون أمر صالح ؟!

وكم وددت أن يكتب إلى فيخبرني — ولو كذبا — أنه تعقب أميرة من مكان إلى مكان فرآها مفتونة بأحد الشبان ، ورآهما وهما يتقاسمان كئوس الهوى ، وددت لو فعل ذلك حتى أستريح .

ووافاني اليوم كتاب رأيت على غلافه خاتم القاهرة وعرفت عليه خط صديقي فلم أجرؤ على فضه من فوري لأنه الحكم في قضية قلبي ، وأخيرا قرأت ما فيه .

كان طويلا سقيم الأسلوب لكنه من ناحية الدقة وترتيب الخطوات كان أشبه شيء بمحاضر التحقيق . بدأه صديقي أول الأمر بأن أيأسني من النجاة لأن طلب الخلاص من الحب يشبه تماما تمني وصل الحبيب .

هما ظاهرتان متضادتان لكنهما تنتجان أمرا واحدا هو شدة التعلق بمن مال إليه القلب ، وقد عقب صالح على هذا فقال : لا تسخر ولا تعجب فإن « القاموس » مستوفى دقيق وسأسوق لك مثلا يوضح لك القضية : ألا ترى يا صديقى أن النار تسلق البيضة ، ثم ألا ترى بعد ذلك أن الثلج يسلقها كذلك ؟ النار والثلج على طرفى نقيض ولكنهما يؤتيان ثمرة واحدة . إذن فلا تظن أنك ستنساها .

أهنئك ، وأؤكد لك أنك جدير بحب مثلها ، وأن هذا الطراز المتزمت الثقيل ممن يترددن طويلا قبل أن يهبن قلوبهن ، يكن من أوفى عباد الله إن أحببن ، تتشرب قلوبهم الغرام ببطء خانق ممل ، ثم تحتبسه كما تحتبس الأرض الصلبة الماء فلا ترشح بشيء منه .

أرجو أن يروقك ما سأقصه عليه . لم أكتب إليك سريعا لأننى أحببت أن أراها بنفسى ، وقد قصدت إلى الضاحية عصر يوم من الأيام وأخذت أدور حول الجنة التى تسكنها فألفيتها تحلم تحت ظل هدوء شامل (وجعل صديقى يصف لى معالم بيتها لأصدق ما يقول) ولم تتح لى المصادفة أن أراها فى بضعة أيام متوالية ، ولكننى لم أيأس فقد رأيتنى أقوم لأخى بخدمة مسلية لذيذة ألهتنى شيئا ما عن مشاكل حب غير كريم ، وأخذت سمتى نحو الضاحية فى يوم خميس ووقفت أرقب البيت من بعد . لكنه دخل إلى نفسى خاطر غريب وهو أننى نسيت رقم المسكن وأن المنزل الذى أهتم به هو غير الذى أريده . فيممت إليه من فورى وضغطت زرا على بابه فسعى إلى غلام يسألنى عمن أريد ؟ فقلت له : إن لم أكن مخطئا فهذا منزل سعيد بك حلمى ، فرد على الغلام فى سذاجة : آسف يا سيدى ، فهذا منزل فريد بك ، فشكرته وأنا أبتعد ، واستأنفت الانتظار من جديد .

كنا فى الساعة الثالثة مساء حين رأيت فتاة تخرج وإلى جوارها بنية لا تتجاوز الثانية عشرة من عمرها ، ولن أعرض لوصف الكبرى بشيء

فأنت أعلم الناس بأسرار حسنها ، أما الصغرى فأصدق كلمة تعبر عن خصالها هي أنها لطيفة ، سمعتها تسأل الكبرى عن سر نزولهم إلى القاهرة بلا سيارة فقالت : أتعتقدين أنه من الضرورى أن يركب كل الناس سيارة خاصة ؟ سنركب القطار والترام . وسبقتهم إلى محطة سكة الحديد وكنت في القطار على مقربة منهم ، وعلى عينى منظار حالك يحجب اتجاه نظراتى . وكان أول شيء عملته بعد أن نزلنا إلى المدينة هو أنها دخلت شقة في الطبقة الأولى من إحدى العمارات عرفت بعد أن ساكنها يحترف قراءة الكف وله في هذا الفن شهرة ، وعلى بابه بالطبع لافتة تحمل اسمه ومهنته . وجلست في مقهى قريب حتى رأيتها خارجة ، فتبعتها من بعيد ولاحظت أنها تتكلم مع من أظنها أختها بشيء من العصبية وعدم الارتياح ، ولا أنسى أن أقول لك : إن الساعة إذ ذاك قد قاربت السادسة . وسارت إلى حى الملاهى فرجحت أنها ستدخل إحدى دور « السينما » وقد كان . وكانت الدار مزدحمة في ذلك المساء ولكننى استطعت أن أحجز كرسيا قريبا منها . آه يا صديقى !!.. كانت البطلة في تلك القصة عجيبة الشخصية : تحب فتاها ولا تشاء أن تعترف ، وقد جمعهما موقف ودار بينهما نقاش في أمر عادى ، فرأينا البطلة تحتد بلا مناسبة ، ثم تنقلب حدتها بعد قليل إلى غضب جامح تعبر فيه عما تجيش به نفسها نحو شخصية الرجل ، فألفيناها تقول : ما هذا ؟! .. أكرهك .. أمقتك .. لا أحب أن أراك .. وبين كل كلمة وكلمة كانت تدنو منه قليلا وهو في موقفه لا يتحرك وعيناه تلمعان بالابتسام ، حتى إذا ما وصلت إلى جملتها الأخيرة رأيناها تميل عليه ، ثم تلتقى شفتاهما في قبلة روية عذبة إلى حد أننا سمعنا نبرات الصوت متصلة برشفة القبلة وهي تقول له أخيرا : أكرهك إلى أن أموت : وصدقنى إننى التفت سريعا نحو فتاتك فإذا بى أرى بياض منديلها الذى تمسح به الدموع في سواد الظلام .

عبد العزيز : لست قاموسا فحسب ولكننى قاموس وجاسوس مجتهد ، غير أننى سيىء الحظ ، لا أسف ولا ندامة فقد اخترت من الحب شطه المجدب ، اخترت جانب الجسم وعزفت عن جانب الروح ، فليتنى ما فعلت !! أما أنت فأبشرك من الآن بأن يد الحب ستوقد شعلة مجدك التى ستبقى على الأيام .. وأقبلك .

هذه هى المعانى التى تناولها خطاب صديقى . قرأته فإذا ببرد الراحة وسكينة الصبر يهبان على قلبى ، وإذا ثغر الدنيا يفتر عن ابتسامة . قلت فى نفسى : حسن جدا .. وقد ذهبت إلى قارئ الكف ؟! إذن فقد أقلقتها . وتبكى من مواقف الحب على الشاشة ! إذن فقد أحبت ، أو هذا هو المرجح . وصرت أرتقب الحوادث وأنتظر ما تجرى به الليالى ، حتى فوجئت بخطاب جديد من القاهرة ، كان يحمل القصة التى أملت نشرها منذ أكثر من شهر ، كان معها خطاب من المجلة يفيض بالأسف المكشوف لأنهم لا يستطيعون نشرها إلا بعد وقت طويل لكثرة ما بين أيديهم من المقالات . وجن الظلام فأقفلت بابى واختليت بنفسى ، وأشعلت نارا ألقيت فيها القصة ورسالة صديقى صالح ، فما كنت أحب أن تطلع عليهما عين .

* * *

هذه تباشير الربيع يغنى لها الريف مع كل صباح ..

نشطت الطير على ذوائب الأشجار حين فترت أنفاس الشتاء . وخلت رقعة السماء من السحب فى معظم ساعات النهار ، وبدأنا نشم فى غدونا الباكر رائحة تعبق بها أرض الريف ، هى خليط فاتن من أنفاس الحقل وعبير الزهر ، والثرى والندى والماء .

ولم يكن يعنينى من الربيع جماله بقدر ما يعنينى منه أنه الفصل الذى تبنى فيه الخلايا ، وأن أميرة ستقيم عندنا فيه عدة أيام قد تنتهى بالحكم فى قضيتنا المشتركة . وجاء اليوم الذى كنت أرتقبه . ورأينا سيارة

الأستاذ تتهادى على الطريق الخصوصى وقت الظهر فى طريقها إلينا ، وكنت وقتئذ فى الحجرة العامة القريبة من منزل الأستاذ والتى تدار فيها شئون المزرعة .. وانتفضنا جميعا على صوت البوق المعروف وأسرعت خطاى لأسلم على الأسرة ، وخف أناس ليأخذوا المفاتيح ويحملوا المتاع . وما إن ألقيت نظرة على من بالسيارة حتى كاد الدوار يفقدنى وعيى لشدة المفاجأة ، لم تكن الأسرة وحدها وإنما كان معها ضيفة ...

ونزلت ليلى من السيارة أول النازلين ، وسلمت وجعلت تكلمنى فى حركة قلقة وهى تثب وتدور ملحة فى أن أحضر شبكة صيد الفراش ، وجعلت تشير إلى بعض فراشات مختلفات الألوان كانت تهيم فى حقل الأزهار أمام البيت بالقرب منها ، وهكذا فعلت ليلى حتى كادت تلهينى عن أن أسلم .

أما الشيخ فقد كان فى هذه المرة ناضر الشيخوخة ولقينى بتودده المعروف . وأما أميرة فلا أدرى لماذا تعاقبت على وجهها عدة ألوان ، كان أولها توردا شديدا حين التقت عيوننا قبل نزولها ، وكان آخرها شحوبا مريضا فاتنا حين تلامست أكفنا بالسلام .

وأما الضيفة فقد كونت عنها فكرة قد تكون صحيحة : أعتقد أنها مرحة طائشة : ودليلى على ما أعتقد هو ضحكتها الناعمة المصنوعة البعيدة عن الوقار والتى سمعتها وأنا أجتاز باب الحجرة العامة فى طريقى إلى لقائهم وقد ظننت بادئ ذى بدء أن أميرة هى التى ضحكتها فعجبت من تبدل الأحوال .

رأيت الضيفة فتاة بادية الطول تميل إلى النحافة ناصعة اللون غير واسعة العينين ، ولكن فى عينيها نفاذا كأنهما جمرتان ، وكانت تلبس ثوبا زاهى الألوان يحمل معه الحكم على طبعها الطائش ، وكانت كاملة الزينة كأنما كانت تتعهدها بالإصلاح طول الطريق ، أو كأنها فرغت منها لتوها ، فى الخامسة والعشرين على ما يبدو لى ، وقد توهمت أنها

سيدة ، وبعد نظرة سريعة إلى أصابع يديها عرفت أنها آنسة ، فلم يكن في إحدى يديها خاتم ، ومعنى هذا أنها كانت فى طور قلق من أطوار حياة الفتاة .

ودخل المسافرون وتحولت أنا قاصدا إلى بيتى لأبعث بشبكة صيد الفراش لليلى ، وكنت أقول وأنا فى الطريق : لقد سنحت الفرصة .. سأحاول أن أنفذ وصية صالح ، إنها تجربة خطيرة قد أدفع من أجلها ثمنا باهظا .. ولكن .. فى الرجال رجال يلبسون رقابهم بأيديهم حبال المشانق ، أليسوا مثلى تماما من لحم ودم ؟! إنها ضرورة .. هى بجال حيوى كالذى تحار من أجله الدولة وتزهق فى سبيله أرواح بنيها . ثم ذكرت رسالة صالح واسترجعت موقفها فى الخيالة ، وبياض منديلها فى الظلام وهى تبلله بالدموع ، وهيئة صديقى يوم التقينا ونحن مستلقيان على السرير وهو يقول لى : زاول الغزل مع فتاة غيرها على أنه دواء ، كما يشرب المحرجون الخمر بإشارة من طبيب . ذكرت كل هذا فصممت على أن اعمل .

استدعيت الليلة بعد العشاء لمقابلة الأستاذ ، ودخلت المنزل فتقابلنى زينب فى الردهة وعلى شفتيها ابتسامة متفائلة ، وكانت هناك نغمات صاخبة تدعو إلى الرقص العنيف تنتشر فى جو المكان من معزف أميرة ، خمنت بعد أن قرعت سمعى أن الضيفة هى التى تعزفها . ودخلت على الشيخ وبدأنا نتحدث حديثا عاديا ، عن الجو ، وعما أقرأ من قصصه ومقالاته ، حتى دخلت علينا ليلى تعرض ما جمعته من فراش ، ثم جاءت أميرة وكانت النغمات لا تزال تنصب فى أسماعنا ، فصح حدسى وصدق تخمينى ، وانتظمنا المجلس وبدأنا نتكلم عن مشروع الربيع ، قلت :

- سنبنى الخلايا فى الطرف الشمالى من حديقة الفاكهة ، على مقربة من الحقول ، لأن خير مكان يساعد النحل على إنتاجه أن تكون خلاياه قريبة من مواطن الأزهار .

وقد عثرت على نحال فى إحدى القرى القريبة ، واهتديت إلى من سيقيمون الخلايا ، وبدء العمل مرهون بإشارتكم . وجال بنا الحديث فى هذا المجال فترة من الزمن انقطعت بعده أنغام البيان ، فرأيت أميرة تلتفت نحو الباب المفتوح ، وما لبثنا أن سمعنا وقع أقدام وصوتا ينادى : أميرة ... أميرة . فقالت الآنسة : نحن هنا ... تعالى ياآمال . فدخلت علينا تتأود فى ثوب حريرى تكاد أذياله تلمس الأرض . ثم حيت وحيينا ، وقدمتها أميرة قائلة : بنت خالى الآنسة آمال . والأستاذ عبد العزيز ناظر العزبة . و لم تزد .

ومرت فترة صمت كان الشيخ ينفث فيها دخان لفيفته وهو جالس على الأريكة فى تهالك شديد ، ثم سألنى : أترى من الخير أن نبدأ بإنشاء عدد كبير من الخلايا ؟ فقلت : بل من الخير يا سيدى أن نبدأ بعدد قليل فإن ذلك يساعد النحال على أن يستأنس نحله شيئا فشيئا ويعرف طباعها فيدير الخلايا بسهولة ونجاح . قالت الضيفة :

- أتتكلمون عن النحل ؟ إننى أعرف الكثير عن شئونها ، كان لأبى صديق مغرم بتربيتها وقد زرناها فى بلده واطلعنا على أسرارا مهنته .

ثم جعلت آمال تثرثر فتصيب فى شىء وتخطئ فى شىء وأنا مصغ إليها مؤمن على ما تقول بتحريك رأسى ، أما الشيخ فلم تفارق الابتسامة ثغره مدة تحدثها ، وأما أميرة فإنها انصرفت من الغرفة وعادت إليها مرتين أو ثلاثا فى فترات متقاربة وكان يبدو عليها أنها غير مرتاحة .

وفى صباح اليوم التالى طرقت زينب على الباب لتقوم ببعض شئونى ، فسألتها عن الآنسة آمال . وعن موطنها ، و لم جاءت ؟ فقالت لى فى عجب وذهول : لم يا سيدى ؟ أعجبتك الضيفة ؟ قلت وأنا أبتسم : عليك أن تجيبى فحسب ، قالت : سألت سيدتى أميرة عن ضيفتها فحدثتنى أنها ابنة خالتها ، وأن أباها موظف كبير فى إحدى

عواصم الوجه القبلى ، وحدث أن جاءت آمال إلى القاهرة لتزور بنتى خالتها ، فوصلت إلى هناك فى اليوم الذى عزمت فيه أسرة الأستاذ على الحضور إلى هنا فى غده ، ولذلك لم يكن بد من أن تأتى معهم الضيفة لتقيم وقتا سيقيمونه ثم ترحل معهم .

ــ إنها آنسة ؟

ــ نعم .

ــ ويخيل إلى أنها غير مخطوبة .

ــ هذا ما أجابتنى به الآنسة أميرة ليلة أمس .

ــ أتشاركينى الرأى فى أنها جميلة يا زينب ؟

فأطرقت ولم تتكلم .

ــ لندع أمر جمالها .. ولكن ألست معى فى أنها جذابة ؟

فرفعت إلى طرفها وجعلت تقول بلهجة الناصحين :

ــ نحن نساء يا سيدى ، والمرأة أقدر الناس على فهم المرأة . إن الآنسة آمال زوبعة هوجاء . فتاة رعناء لا تستقر على حال ولا تسعد رجلا ، ويخيل لى أنها ضيفة ثقيلة على سيدتى أميرة .

فقلت لها متهكما :

ــ صدقت .. وأنت دائما بعيدة النظر .

ثم تركتها وخرجت .

وبدأنا بناء الخلايا فى يومنا التالى ، وكنت أرقب كل شىء بنفسى ، وعرج على الأستاذ مرة أو مرتين فرأى ما نعمل ثم قصد إلى الغابة حيث يقرأ أو يكتب ، وجاءت إلى أميرة وضيفتها وأنا هناك فلقيتهما بتودد بالغ وعمدت إلى أن أخص آمال بقدر أوفى من الاهتمام ، فكنت أجيب عن كل سؤال تسأله ، وأطرى كل فكرة تقترحها ، وأوافق على ما تراه وإن كان خاطئا ، ثم أتحول عنه فى مهارة لا تسفه رأيها ، حتى رأيت فى عينى أميرة بشائر الغيرة وحتى سمعتها مرة تعرض بالملامة وتقول لابنة خالتها :

ـ آه يا آمال .. إنك ما اخطأت مرة واحدة !!

فأعرضت عن أن أعلق على قولها بشيء .

وسبقتها الضيفة اليوم إلى طرف الحديقة حيث تقام الخلايا ، وكنا قد فرغنا من إعدادها تماما ولم يبق إلا أن أختار لها طرود النحل ، وكنت قد لاحظت أن الفتاتين تتسابقان فى تبديل الثياب مرتين أو ثلاثا فى اليوم الواحد ، كما لاحظت أن آمال تحرص منذ اليوم الثانى من قدومها على أن تحلى صدر ثوبها بزهرة خاصة هى زهرة « البانسيه » فجمعت أشتات شجاعتى فى هذا اليوم ووضعت هذه الزهرة فى سترتى .

كنت وحدى عند طرف الحديقة الشمالى على الطريق الضيق وقت الضحى ، فرأيت ليلى تعدو نحوى وهى تلوح بالشبكة فى الهواء وتصيح بأعلى صوتها قائلة : إنها وفقت إلى صيد فراشة فاتنة الألوان ، فيها من كل لون قدر . وكانت آمال تتبعها سائرة على مسافة قريبة ، فما أن وصلت إلى ليلى واشتبكت معى فى الحديث حتى كانت الضيفة قد وصلت إلى موقفنا ، وألقت تحية الصباح فى مرح وهى تتثنى مقبلة كأنها أحد أغصان الربيع ، ثم قالت : كأنها صادت قوس قزح يا حضرة الناظر .. فراشة غريبة الألوان . ثم وقعت عيناها على الزهرة فى صدرى فقالت فى نبرة ذكرت ساعتها نبرات الممثلات التى يصطنعنها حرفة وفتنة .

ـ أتحب هذه الزهرة ؟

ـ نعم .. ولم تخلفت اليوم الآنسة أميرة ؟ هل تأخرت فى النوم ؟

ـ قادمة حالا ، لقد دخلت مع والدها إلى الغابة ، وكنت أنا مشغولة بمراقبة ليلى وهى تطارد الفراشة على هذا الطريق .. وأظنها لاحقة بنا حالا .. آه .. نسيت أن اسألك .. ولم تحب هذه الزهرة من بين الأزهار جميعا ؟

وارتجفت قليلا قبل أن أجيب ، ووازن قلبى سريعا بين الغنائم الباردة

منهن ، وبين من نذرف فى سبيلهن الدموع ، فألفيت أن مرارة الأخرى أشهى إلى القلب من حلاوة الأولى . ثم بصرت بأميرة تظهر على الطريق فى سبيلها إلينا ، كانت ليلى تجرى نحوها وهى تلوح بالشبكة لتطلعها على صيدها الجميل . وعمدت فى هذه الحالة أن أطيل حبل الحديث بينى وبينها وبين آمال حتى تبلغنا أميرة . فقلت مجيبا عن سؤالها :

— أحبها لأنها زهرة جميلة .

فقالت وهى تفتر من طرفها :

— وليس فى الأزهار أجمل منها ؟

— فى رأيى أنا شخصيا ؟.. إن خلقت أزهار جديدة غير التى نعرفها حتى الآن فلن يخلق أجمل منها .

ففاض الغزل من كل جارحة فيها ، وهتفت :

— كم أنت رقيق !!

وكانت أميرة قد قاربتنا فرأيت من الكياسة ألا أقطع الحديث فواصلت الكلام عامدا إلى أن ألقى محاضرة عن الأزهار ، فجعلت أعدد أنواعها وما تستخرج منه العطور حتى قطعت علينا أميرة سياق الحديث بالتحية . فقلت وأنا باسم بعد أن حييتها : يخيل إلى أن الآنسة آمال مولعة بالأزهار بعد ولوعها بالنحل ، لذلك أجبرنى شغفها على أن أحدثها طويلا عن الأزهار . قلت هذا وأنا أراقب عينى أميرة بلهفة وشوق لأرى ما فيهما من خلجات نفسها بعد أن تكشف زهرة « البانسية » على صدرى وصدر بنت خالتها ، فرأيت غيرة حقيقية مكتومة تطغى على ملامحها فرفعت يدى بالتحية ثم درجت على الطريق وأنا أقول لها :

— لم يبق أمامنا يا سيدتى إلا الخطوة الأخيرة .. أعنى أننا سنختار النحل حالا لنسكنه هذه الخلايا . والتفت بعد قليل فإذا بهما قد غابتا معا بين أشجار الحديقة .

قالت زينب لى مساء اليوم التالى : من حقك يا سيدى ومن حق سيدتى أميرة أن أقص عليك هذه القصص :

لقد اختلت بى اليوم خلوة طويلة ، وكان أول ما بدأتنى به قبل أن نخوض فى شىء أن قالت : أرأيت يا زينب ؟ قلت : خيرا يا سيدتى ! فقالت :

- أرأيت هذا الشاب الغريب الذى خدعتنى فيه وزينت لى مقابحه كما يفعل الشيطان ؟! لقد رأيته بعينى .. رأيته يغازل ابنة خالتى على نهاية الطريق بين الغابة والحديقة ، وقد بلغ أمرهما المكشوف إلى حد أن وضع كل منهما زهرة « البانسيه » على صدره . وهذه أول مرة رأيت فيها عبد العزيز يحلى سترته بإحدى الأزهار ، فلما فوجئنا بى قال يريد أن يحسن التخلص : إن الآنسة آمال مفتونة بالأزهار لذا رأيتنى مجبرا على أن أتحدث إليها فيها . وكأنه نسى أن كل جارحة من جوارحهما كانت تنم عما يتحدثان فيه . ألا تعرفين ابنة خالتى هذه يا زينب ؟ لقد خطبت غير مرة وكان طيشها وسرعة توددها من أهم الأسباب التى نقضت خطبتها فى كل ما فات ، وقد جاءت معنا على الرغم منا لأنه لم يكن هناك بد من مجيئها ، وأراها بدأت تنصب حبالها حول هذا الشاب الساذج . فقلت لها : كذا ؟! لكنه معذور يا سيدتى ، ويخيل إلى أن كل شاب من حقه أن يبحث عن منهل آخر إذا صد عن أول منهل . فرأيتها تهيج غضبا حتى خفت أن تلطمنى ، وسمعتها تقول بعد ذلك : لا بأس .. دعيه فأنا كفيلة به . ثم قالت زينب وهى تضحك : وعليك منذ الآن أن تنتظر يا سيدى أول فرصة لتتلقى فيها درسا من التهذيب .

وأسرعت الأيام خطاها وقاربت الأسرة أن تعود إلى القاهرة وكنت أراقب كل ليلة نافذة أميرة فلا أرى فى ضوئها إلا شخص آمال ، تغدو وتروح وتجلس إلى المعزف وتقف طويلا إلى النافذة كأنها محمومة . وقضينا أمر الخلايا وسكنها النحل ولم يبق من رحلة الربيع إلا أن نعلم

متى سيسافرون .

وتعودت منذ أن أقمنا الخلايا أن أمر عليها قبل الغروب لأرى مقدار طمأنينة النحل ، ثم أعرج على حظائر الدواجن عند مدخل الحقول نحو الشمال وأعود إلى منزلى من الطريق الضيق بين الغابة وحديقة الفاكهة ، وذهبت اليوم إلى الخلايا كما هى عادتى وما كنت أعلم أن القدر يخبئ لى هناك حدثا عظيما .

رأيت أميرة وحدها هناك ، واقفة ووجهها إلى الغرب وظهرها إلى طريق الداخل ، وكانت ترقب باهتمام وعن بعد خلية تحير على بابها النحل فأخذ يدور ويطن فى صخب شديد . كان عليها ثوب أزرق شديد الزرقة كأنه من أديم السماء . وكانت جامدة فى مكانها لا تتحرك حتى ظننت أنها لم تسمع وقع خطواتى ، فوقفت برهة أتأمل جمالها الذاهل وسحرها المحبوس قبل أن أقول لها :

— فيم أنت مشغولة يا آنسة ؟

فأدارت وجهها نحوى ثم مدت يدها تشير نحو الخلية برشاقة وقالت باختصار وهى عابسة الملامح :

— انظـر !

قلت وأنا أبتسم :

— لا ضرر .. خلية فقدت ملكتها .

— وهذه الضوضاء وما تراه من حيرة كله من أجل الملكة المفقودة ؟

— أتعتقدين حتى هذه الساعة أن فى الدنيا خلية تعمر بغير ملكة ؟ شد ما تيسرين عسير الأمور !

كنت على يقين من أنها تريد أن تغضب ، وكنت على يقين كذلك أن غضبها سيكون من نوع لا يخيف ، من أجل ذلك عملت على أن أمهد لها طريق الغضب لتغضب .

قالت :

ـ هل أنبأوك أننى متخصصة فى تدبير النحل ؟ إن فقدت الخلية ملكتها فذلك راجع إلى إهمال المختصين .

ـ عفوا يا آنسة ، فقد تبادر إلى ذهنى أنك لا ترين ضررا على الخلية من فقدان ملكتها ، و لم أقصد إلى أبعد من هذا وعلى كل فسأدبر الأمر .

فدنت منى قليلا ولوحت بكفها وهى تقول فى حدة :

ـ تدبر الأمر !!. هيه أنت لا تجيد التحدث إلا فى الأزهار .. أتسمع ؟!

ثم اضطربت أنفاسها واختلجت شفتاها ومال لونها إلى الشحوب واستطردت تقول فى أنفاس متقطعة وكلمات مبهورة :

ـ أنت .. أنت .

واقتربت كأنها تريد أن تمسك بتلابيبى :

ـ أنت .. أنت شخص متعثر السلوك .. إنى أكرهك !!

وكنا متقاربين تكاد ثيابنا تتلامس عندما نطقت بجملتها الأخيرة . وأسبلت بعد ذلك أجفانها واضطربت كما تضطرب القصبة فى مهب الريح ، حتى خيل إلى أن ساقيها لم تعودا قادرتين على أن تحملاها ، فأخذنى الموقف وأسندت كتفيها بكلتا يدى لأحول بينها وبين أن تهوى ، ثم تدانينا فشعرت بحرارة أنفاسها على أديم وجهى ، وعيناها لا تزالان مسبلتين ، وأهدابها الطوال تلقى ظلالا على صفاء خديها . وكانت بعد هذا كله لا تزال تردد بصوت مبحوح أخاذ :

ـ أكرهك .

فهفوت إليها لأقبل ثغرها ولكنها نأت به عنى وأمالت رأسها إلى أحد الجانبين فاستراح على كتفى ، ووقعت قبلتى على جيدها الناصع الطويل فكأننى قبلت عاجا دافئا ، وهتفت أنا بعد ذلك وهى لا تزال بين ذراعى :

ـ أتكرهيننى ؟! لقد استأنفت النظر فى ضرورات حياتى ألف مرة فإذا أنت ضرورة لى !! أحبك .

فاستقبلتني بوجهها كله والتقت أعيننا فقرأت في نظراتها الشك ، فقلت لها ثانيا :

ـ أحبك ... واحذري بعد اليوم أن تتصوري أن في الدنيا خلية من غير ملكة .

فتملصت من بين يدي ونظرت حولها في ذعر شديد وكانت ظلال الشفق تلقي على الأفق وعلى الحقول حمرة خفيفة حين استرجعت نظراتها وأقبلت تقول :

ـ ذلك ما كنت أخشاه . حدث عنه طويلا ثم رأيتني في غماره فجأة كأنه الطوفان .

وأطرقت ، فأمسكت كفها مترفقا وجعلت أهمس :

ـ أميرة . كفي . أشهدي المساء ، وأشهدي الطير ، وأشهدي الشجر ، وأشهدي الربيع ، أشهدي الكون كله على حبنا فقد لقينا في سبيله الكثير .

ثم كان أن رأيت على خديها دمعة وعلى شفتيها ابتسامة قبل أن تجدّ السير متجهة نحو الطريق . وظللت واقفا أرقب الشجر وهي تختفي تارة وتظهر تارة أخرى حتى توارت عني .

* * *

قلت للأستاذ ونحن نتحدث معا ليلة باتوا على سفر :

ـ لقد حاولت يا سيدي منذ قريب أن أجرب الكتابة .

فتهلل ذلك الرجل الكريم ، وقال :

ـ حسن ، حسن ، وابتدأت تكتب يا بني ؟ بشرى طيبة . أمعك شيء مما تكتب ؟

فقلت :

ـ ليس الآن ، (ثم سكت برهة حتى تشجعت فأردفت) وقد حدث منذ شهرين على التقريب أن بعثت بأقصوصة إلى إحدى المجلات الأدبية

فردتها مع الشكر .

فضحك الشيخ يريد أن يرفه عنى ، لا أن يسخر منى وقال :

ـ احذر أن يفت هذا فى عضدك فهذه بداية كل أديب . ولكن من الخير أن ترسل إلى فى القاهرة بكل ما تريد نشره ، وسأرسل الصالح منه إلى المجلة التى أختارها ..

فكدت أطير من الفرح وهممت أن أقبل يديه .

أما آمال فما نسيت يوما واحدا أن تحلى صدرها بزهرة « البانسيه » ، وقد اعترضتنى بعد أن هدأت الزوبعة فى نفسى مساء التقيت مع أميرة ، وسألتنى بلا مبالاة ولا تحفظ :

ـ أنسيت الزهرة يا حضرة الناظر ؟

فقلت وأنا أوسع من خطواتى آخذا فى طريقى :

ـ معذرة يا آنسة .. فإن الحقل يلهينى دائما عن حديقة الأزهار .

وأما زينب فإنها ألحت مرة بعد مرة لتعرف متى تلقيت درس التهذيب فأمسكت عن أن أقول لها شيئا . لكنها عرفت ولا شك من صفاء نفسى وانبساط أساريرى أن الرياح قد جرت بما تشتهيه سفينتى .

ثم سافروا عند الصباح وكان بينى وبينها وداع صامت ، ولكن نجوى العيون حملت إلى كل منا ما يريد أن يقول صاحبه ، وكأين من غروب شهدنى بعد ذلك اليوم ، وأنا واقف وحدى بين خلايا النحل فى الطرف الشمالى من الحديقة ، أرقب مغيب الشمس وحمرة الشفق فى هذه البقعة التى صارت أعز علىّ من مسقط رأسى .

وكثيرا ما كنت إخالها إلى جوارى ، فأتلفت !!

١٣

مضى شهر على هذه الحوادث كنت فى خلاله نهبا لأحلام سعيدة كأننى فراشة تهيم بين أزهار الربيع ، على أنها لم تكتب إلىّ و لم أكتب إليها كأن فرحة الحب شغلتنا بالحاضر عن المستقبل .

وبر الشيخ الكريم بوعده فقد بعثت إليه بقصة تولى نشرها عنى . و لم تكن هذه القصة إلا التى سبق لى أن أشعلت فيها النار . فقد أعددت كتابة فكرتها من جديد ثم غيرت عنوانها لأرى إن كانت صالحة حقا . وكانت فرحتى شديدة يوم حمل البريد عددا من المجلة ورأيت اسمى بين صفحاتها . ولا أذكر كم مرة أعدت قراءتها حتى أرانى أذكر حتى اليوم موضع كل كلمة ونظام كل صفحة .

ثم سافرت إلى القاهرة لبعض شئونى ، وهبطت الضاحية حيث منزل الأستاذ فلما استأذنت لقيتنى أميرة لقاء ارتحت له ، فإنها لم تملك ساعة تراءينا إلا أن همست : هل جئت ؟! واستبقى كلانا ونحن نتصافح كف صاحبه فى كفه مدة غير عادية .

وجمعتنا حجرة الاستقبال وكانت نظرات كل منا تذكر الثانى بالموقف الأخير لكن أحدنا لم يجرؤ على أن يتقدم نحو صاحبه . وكنت موطدا عزمى على أن أفاوضها فى شأن جلسة تجمعنا ، لنجدد فيها الأمل ونوضح العلاقة ، ولأكشف الستار عن هذه النفسية التى صادفت منها عنتا وشدة . قلت بعد أن استقر بنا المكان :

ــ أريد أن أتحدث معك فى أشياء أرى من الضرورى أن نخوض فيها .

فقالت وهى مطرقة وكأنها فى حيرة :

ــ وأظن أنه حديث طويل .

فقلت :

ــ وليس من المستطاع أن يدور هنا فى هذه الحجرة .

فلم ترد جوابا ، بل أخذت تنقر بأصابعها نقرات متعاقبة على ذراع الكرسى وهى جالسة لا ترفع إلىّ طرفا ، فقلت وأنا أجاهد الخوف والخجل :

ــ ولا تنسى يا سيدتى أننى سأبيت فى القاهرة ليلة واحدة .

فقالت :

ــ إن كان ولابد من ذلك فإن عصر اليوم هو ميعاد زيارتى لطبيب الأسنان .

ثم سمعنا وقع خطوات الشيخ فخضنا سريعا فى شئون الزراعة ، ولا أكتمك أننى أحسست وأنا أصافحه بشىء أعتبره تأنيب ضمير ، فقد فرضت بينى وبين نفسى أن الرجل غير مرتاح إلى أن أحب ابنته فظهر الحب لى فى مظهر الجريمة ، وقد عمدت أميرة ألا تطيل جلوسها معنا فتركتنا وخرجت ، وظللت أتكلم أنا والأستاذ فى شئون شتى كان من بينها أن حفزنى إلى القراءة والكتابة وتنبأ لى بمستقبل سعيد .

وكنت سائرا فى طريقى بعد أن خرجت من عنده وأنا أتناول حبى لأميرة بالتحليل والتعليل . وكانت النتيجة ــ كما تتوقع أنت ــ أن رأيته غاية شريفة ومعنى كريما .

كنت أرقب قطار الضاحية عصر هذا اليوم وأنا واقف فى المحط أتصفح وجوه النازلين بحرص ولهفة ، حتى لا تضل عيناى عنها فلا أراها . وسرنا خارجين من مبنى المحط فى صمت وارتباك خلنا معه عيون الناس تأخذنا من كل جانب ، وتصورنا أن كل ناظر إلينا يعرف قصتنا . ولما انجلت عنا هذه الغمرة سمعتها تسألنى فى رفق وابتسام :

ــ أذاهب أنت معى إلى عيادة الطبيب ؟

فقلت مداعبا :

ـ طبيب الأسنان .

ـ لا حاجة بى إليه .

ـ ولكننى محتاجة إليه .

ـ هذا صحيح ، ولكن الأجدر بنا أن نذهب معا إلى طبيب أرى كلينا فى حاجة إليه ، ثم نفاوضه فى علاجنا جملة واحدة .

فقالت وهى تحبس ضحكها :

ـ وترى أين تقع عيادة هذا الطبيب ؟

ـ فى خارج المدينة ، مع ملاحظة أنه لا يستقبل المرضى بعد الغروب .

ـ ومعنى هذا أننى أؤجل اليوم زيارة طبيب الأسنان ؟

ـ ذلك حتم ، فإن الوقتين متعارضان .

وما مضت ساعة من الزمن حتى كنا فى إحدى الحدائق ، حيث انتحينا هنالك ناحية تتمتع بالهدوء . وجلسنا متجاورين على كرسى يظلله عريش من الخشب تحنو عليه الأغصان ، وكانت الفتنة إلى جوارى لا يفصلها عنى إلا قليل . فتنة رأيتها هم قلبى وكيان وجودى ، تفوح من شعرها الحالك رائحة عطرها الشذى الخفيف الذى نفذ إلى خياشيمى فأعاد إلى ذاكرتى كل موقف من مواقفنا الماضية ، ونظرت أميرة إلى الساعة فى معصمها ثم نظرت إلى بطرف فاتر كأن فيه بقية من سكر وقالت :

ـ كان يجب أن أكون الآن فى عيادة الطبيب لو أن الأمور سارت وفق ما دبردته .

فقلت :

ـ لا تدبير مع المقادير يا آنسة .. وما كان يجب أن تكونى هناك ولكنه يجب أن تكونى هنا .

ثم أخذت أنفاسى طويلا واتجهت إليها بكل ما فى وأردفت أقول :

ـ ماذا تتوقعين أن أقول لك ؟ هل تستطيعين أن تخمنى موضوع الحديث ؟.. إخاله لا يخفى على ذكائك .

فأجابتنى بصوت هادئ نافذ النبرة بعد أن صبت على مغناطيس عينيها :

ــ وهل تظن موضوع حديثنا من الخفاء بحيث يحتاج إلى تفكير ؟ لن أكون مبالغة إذا قلت : إنه حديث معاد .. معاد حقيقة لكنه غير ممل . خضنا فيه بالعيون والجوارح ، وإن لم تخض الألسنة فيه مرة واحدة . ولكن .. آه .

ثم حولت بصرها وأطرقت قليلا ، ورأيت على ملامحها مسحة من الخوف فأمسكت كتفها قائلا لها :

ــ أميرة .. لا تغضبى إذا قلت لك : إن العام الذى قضيت بعض أيامه على قرب منك كنت فيه أشبه برجل يعيش فى قصر مسحور ، تملؤه المفاجآت والألغاز فقلبه عرضة فى كل يوم إلى هزة عنيفة . أحب أن أعرف سببا حملك على أن تجشمى قلبك السير فى طريق دوار والسبيل أمامه ممتدة واضحة .

ثقى بأننى غير خادع ولا كاذب حين أقول : إنك ملكت قلبا بكرا لمسته فيما مضى أنامل حب لا يزيد على حب الطفل للعبه ، أما اليوم فقد عرفت الحب وأدركت لذة الشقاء فيه ، وعرفت الدمعة ، وأدركت سر امتزاج الأرواح ، أنت ضرورة لحياتى فلا أرى الوجود إلا بك . فإذا كان موقفك منى غير موقفى منه : فثقى أن وجه حياتى سيتبدل .

فقالت : أنت تتعجل الحوادث وهذا مما لا يوافق طبعى . أتريد أن تضع للغيب « تصميما » كما يفعل المهندسون قبل بناء قنطرة أو بيت ، وقد قلت إنه لا تدبير مع المقادير ؟! لا يزعجك يا صديقى أن أصارحك بأننى على الرغم من السعادة التى أحسستها بعد حبك : أرانى فى حيرة من أمرى . ولا أنكر أننى كنت أحيد عن طريقك عامدة ألا أحب وقد ساعدتنى طبيعة قلبى على ما أردت طول هذه المدة ، وما دمت مصرا على أن تدخل إلى نطاق سرى فلا بأس من أن تسمع ما أقول :

ــ كنت فى الثامنة من عمرى حين فاجأت المنية أمى عقب ميلاد أختى الصغيرة ، وأنا ابنة وحيدة جاءت على شوق فحظيت بتدليل

الأبوين . ماتت أمى فقاسيت ألم العزلة ومرارة الوحدة فى سن مبكرة ، وصاحبنى المرض زمنا طويلا كما قلت لك ثم صح الجسم ولكن النفس بقيت مريضة ، أحببت العزلة وعزفت عن المرح وأصبحت لا أنظر إلى الغد نظرة فتاة تفكر فى أمر نفسها . صرت لا أهتم إلا بأبى وأختى ولا آبه بشىء إلا بالسهر على راحتهما كأننى امرأة فرغت تماما من شئون دنياها . وكثيرا ما تحدث معى بعض صديقاتى عن حبهن وأسرار قلوبهن فأصغيت إلى ما يقلن كما تصغى إلى حديث خرافة . ولكننى الآن أيقنت أن تأخره عن القلوب يذبلها كما تذبل الزهرة أن جفاها الندى ..

فسارعت أنا أقول :

— حتى إذا ما سقاها رد إليها النضرة المسلوبة .

فابتسمت قائلة : دعنا من أمر نحن متفقان عليه الآن وكلانا مقتنع به .. كنت أشعر بأننى غير سعيدة .. أحس كأن شيئا لا أعرفه ينقص حياتى ، فأتناول مرافقها بالفحص فلا أرى أحدها منقوصا ، وهنا يزيد اكتئابى لأننى لا أعرف سبب اكتئابى .

وسارت حياتى على وتيرة مملة ، لا يرفه عنى إلا ما أصطنعه من أسباب الترفيه ، وهى مع ذلك لا تبسط من انقباضى إلا بسطة مؤقتة أعود بعدها إلى الحالة الأولى ..

وسكتت قليلا :

— نعم .. ثم ظهرت أنت فى طريقى فجأة كما تهب النسمة المنعشة فى سعير الهجير . وحدثتنى نفسى بعد لقائنا عدة مرات أنه سيكون بيننا أمر غير عادى ، فكنت إذا لقيتك أحسست رغبة شديدة فى ألا أتحدث معك وبقيت أجاهد حتى انكشف المستور . إن قلبى فى أشد الحاجة إلى مثلك . أما أنت فما كان أغناك عن مثلى !!

قلت متعجبا :

— وكيف ؟!

ـ إذا أردنا أن نقطع فى الحديث شوطا يصل بنا إلى النهاية فإننى أقول إن الطريق بيننا شائك كثير العقبات ، وما كانت مسارعتى إلى لقائك إلا لحرصى على أن أبصرك بموقفنا ، نحن كالواقفين على صخرة تشرف على البحر ، وأخشى أن تشغلنا لذة موقفنا فنتقدم .

ـ يخيل إلى أن حديثك لا يشبع فضولى ، ولذلك أود أن أسألك وأن تجيبينى بصراحة .

فأومأت موافقة .

ـ هل تؤمنين بوجود كمال مطلق ؟

ـ لا .

ـ وأنت مع ذلك تحبين الكمال .

ـ نعم .

ـ فى الصورة التى يمكن أن يوجد عليها فى عالمنا الناقص .

ـ بالطبع ، وإذا طلبت الكمال المطلق كنت خيالية .

ـ إننا نحن الشبان نتخيل دائما لشريكة حياتنا صورة نبتدعها ثم نسعى بكل ما نستطيع إلى العثور عليها بعد ذلك . وأعتقد أن الفتيات يفعلن ما نفعل ، فهل فعلت ذلك ؟.

ـ أظن .

ـ هذا حسن ، وهل هناك فارق كبير بين صورة رسمتها وبين حقيقة شخصى !

ـ لا أعتقد أن هناك فارقا ، ولكننى مع ذلك آسفة لأنى وجدتها وكان يسعدنى أن تبقى فى ذهنى وحده ، لأعزى النفس بأننى لم أجدها فى الخارج .

ـ تنقليننى من عجب إلى عجب .

ـ هذه طبيعة موقفنا .

فقلت وبوادر الغضب تلوح على وجهى :

— إذن فأحب أن أعرف العقبة الرئيسية ، فهل تسمحين ؟

قالت في ترفق :

— العقبة الرئيسية أنني مخطوبة .

فنظرت إليها ذاهلا وفغرت فمي ولم أتكلم ، ثم همست بعد برهة :

— إنها سخرية .. أجل سخرية من القدر ، كيف وذلك ما لم نسمع به ؟

— إذن فأنصت إلى لتعلم الحقيقة : لى أب صاغه الله من رقة وحنان .

فقاطعتها :

— ويحرص على سعادتك .

— كل الحرص ، وأرجو أن تسمعني .. هو لا يتردد في أن يحقق لى السعادة بكل ما يملك ، لكن حدثا داخلا حل بنا فوقفنا موقفا شاذا لا يزال قائما حتى هذه الساعة .

كان لى عم هو والد الأستاذ سامي ، رجل متلاف غير كاسب ، كثير الأبناء ، أضاع ثروته التي كانت تقارب ثروة أبي في حلبة السباق ومجالسه وملذاته . ثم وافته المنية في سن باكرة وخلف أسرته في مهب الزوابع . ولكن أبي ذلك الرجل الرقيق الطيب أفاض عليهم من عطفه وماله ما حفظهم من شدائد الدهر ، وتخرج سامي في كلية الحقوق ، واحترف المحاماة في الإسكندرية ، ونبتت في ذهن أبي فكرة رآها بارعة حدثني بها في إحدى الليالي فقال :

— أميرة .. بنيتي : ألا ترين معي أنني رجل مدبر وأنني كثير المال قليل الأبناء ، وأن أبناء أخي كثيرون ولا مال لهم ، وأن « سامي » شاب لا أرى فيه ما يمنع أن يكون زوجا لك . إن وافقتني يا ابنتي دعمنا أسرتنا وحلنا بينها وبين أن تنهار . ويخيل إلى أنه لا يسعده إلا أن تكوني زوجه وأنه يحرص عليك حرصه على أنفاسه .

وكان ذلك من ثلاث سنوات ، فلم يسعني إلا أن أطرق ولا أجيب

بشيء ، فاعتبرها أبي موافقة مني .

ويقولون : إن بني القرابة الذين يدرجون في موطن واحد ويقضون أيام الصبا وهم متدانون ، كثيرا ما تنشأ بينهم علاقة حب ، ولكن لم أشهد ذلك ، بل على العكس أراني لا أحس نحوه بشيء إلا ما تحسه الأخت نحو أخ ليس بينها وبينه انسجام ، ومن أجل هذا حدث لي ما قصصته عليك ، رأيت كأن مرفقا من مرافق حياتي غير موجود ، وطفقت أبحث حتى عرفت ما هو ، فلما عرفته ندمت على أن عرفته .

وسكتت أميرة وأمسكت أنا عن الكلام ، وحولت بصري عنها وأسندت جبيني على كفي . وكانت خطوات النهار قد تقدمت نحو المساء وبدأ الكثيرون من رواد الحديقة يغادرونها ، وأخذ الهدوء يخيم على المكان شيئا فشيئا . واكتسى بالحزن موقفنا الذى كنت أرجو أن يكون راقصا . وأدركت هي ما صرنا إليه فقالت قاصدة أن تخفف من جفاف الموقف :

ـ وهكذا صدق قارىء الكف الذى حدثني بأنه سيقع في حياتي حادث عظيم .. والذى أنبأني بذلك يوم قال : حدث عظيم في نوعه .

فابتسمنا معا وفاض الأسف من بسمتنا ، ثم قلت :

ـ والقصة ..

ـ أية قصة ؟

ـ التي كتبناها في سكون الليل والتي قلت أنت عنها إنها من نسج فنان ، فهل كانت فأل حياتنا ؟

وجعلت أردد ما قاله أبوها على لسان البطل : أحببت الناس فيك كما يحب العابد ربه في العباد ، وأخفيت عنك حبي الواسع وبحت لك بحبي المحدود » وكنت أتكلم كأنني مسحور ، أما هي فقد رفعت طرفها بعد إطراقها فرأيت دمعة تترقرق في عينيها . ثم قالت :

ـ تستطيع الآن أن تعدني أختا وصديقة ، كما عددتك أنا أخا

وصديقا ، أتفهمني ؟ أحب كل منا صاحبه ولا سلطان لنا على الحب . ولكن علينا أن نتحكم فيما لنا عليه من سلطان ، وقد تدبر الأيام حلا لمشكلتنا العسيرة .

فلم أرد عليها بقول . فربتت كتفي وهي تقول :

ـ أتعدني بذلك ؟

فقلت والطرف شاخص والقلب واجف :

ـ أعدك !!

وكانت الشمس محلقة على الأفق جاهدة في استرجاع أشعتها من بين أغصان الحديقة وأنا أنظر إلى أميرة وكأنني لا أراها وحدها ، بل كأنه يقف بيني وبينها رجلان : والد وخطيب .

ثم وقفنا للوداع تحت نور أحد المصابيح في الشارع وتصافحت أكفنا بتحية حارة ، وفارق كل منا صاحبه وقلبه يقول : ماذا عسى أن تخبئ لنا الأيام ؟!

* * *

حل ميعاد سفر الأسرة إلى العزبة في صيفنا الثاني ، وكان صيفا طيب البداية ، لأن أميرة قالت لي بعد أسبوع من مقامهم هناك : إن والدي على استعداد طيب لأن يوفيك أجرك وأن يكافئك على إخلاصك ، ولكنه يريد أن يعلم أي الشيئين تستريح إليه ، فهو لا يمانع في أن يزيد مرتبك ، ولا يمانع في أن تستأجر أرضا تزرعها ، وقد صح ما قالت لأن الأستاذ ما لبث أن فاتحني في هذا الشأن واتفقنا على أن أزرع عشرة أفدنة من بدء هذا الموسم . ولو أن هذا صادفني في حياتي قبل ذلك بعام واحد لاهتز له قلبي هزة عنيفة لأنني في أعقاب نكبة أبي في ماله رأيت المال في الدنيا هو كل شيء ، أما اليوم بعد أن تحقق لنا منه الضروري وما يكفل الحاجة فإنني أرى فيه رأيا آخر وأحله من قلبي منزلة ثانية ، بعد أن غير الحب نظرتي في الوجود .



فرأيت دمعة تترقرق فى عينيها !

كان هوانا يائسا قانعا أشبه شيء بهوى الرهبان ، أو حب العجائز ، وأصبح كل منا ينظر إلى صاحبه على أنه ظاهرة مؤقتة بدت فى جو حياته ولا تلبث أن تزول ، ونتمتع بعشرة أقرب ما تكون إلى التجرد ، كأننا روحان تخلصتا من وضر المادة وظلمة البدن . لقاء عابر وجلسات قصيرة وحديث يجرى فى مجرى واحد لا يكاد يتغير .

نتحدث دائما عن أحلامنا وسهرنا ونتراءى فى النوافذ والليل هاجع ، وأطيل السهر مع الأستاذ فى قراءاته وكتابته أنهل من مورد علمه وأشيع فى نفسى الدفء بقربها منى ، ولا أدرى كيف لذت لنا هذه الحياة طوال الصيف . حتى خيل إلى أن يأسنا من أن تجمعنا كلمة الله هو سر سعادتنا بالحب ، وبقيت أسير الخيال طوال هذا الصيف ثم سافروا واتفقنا قبل سفرهم على أن نتراسل .

كان وصول الرسائل إلى أمرا عاديا سهلا بطبيعة الحال ، أما وصول الرسائل إليها فقد اتفقنا على أن يكون عنوانها على الغلاف باسم الخادم العجوز ، وهى امرأة أرملة طيبة القلب تفيض عليها أميرة عطفا واسعا وتحفظ هى لأميرة ودا وحبا لا ينفدان . ويحدث أن تصل رسالة أو رسالتان فى كل شهر إلى هذه الخادم من ذويها فى الريف وتتولى أميرة قراءتها والرد عليها من أجلها إن شاءت . فلم تجد بأسا فى أن تصل رسائلى إليها باسم هذه الخادم الطباخة وما على إلا ان أكتب العنوان بخط ردىء نوعا ، وتستطيع أميرة بخاتم البريد أن تعرف الجهة التى وافت منها الرسالة . ولا خوف مطلقا أن تقع فى يد أبيها لأن الخدم هم الذين يتسلمون الرسائل .

ولم تكن المكاتبات بيننا صريحة واضحة فإننى كنت أكتب إليها مستعيرا اسم بعض صديقاتها وكنت أشير إلى ما أريد من بعيد إشارة غامضة لا يفهمها إلا من له علاقة بالمكتوب . على أننى لم أكن كثير الكتابة وما كنت أعمد إليها إلا فى الساعات التى تضيق فيها نفسى

وأحس رغبة لا تدفع فى أن أتحدث إليها .

والتقينا قبل سفرها فى نهاية هذا الصيف ، وكان لقاؤنا فى المكان الذى ولد فيه حبنا هنالك فى الطرف الشمالى من حديقة الفاكهة ، وعلى مقربة من خلايا النحل . وقلت لها :

ـ إننا فى حلم يا أميرة .. لا نعيش على الحقائق بل نغذى أنفسنا بالأوهام ، وإن سعادتنا التى نتمتع بها الآن تبدو عظيمة هائلة ، ولكنها لا تلبث أن تتضاءل إن مستها يد الزمان ولو مسا خفيفا ، أجل تتضاءل إلى حد يقرب من الفناء ، كما تتضاءل الكتلة من الصوف المنفوش بين كف القابض عليها .. وكأننا لا نستطيع أن نأخذ ما نشتهيه من متع النفس إلا إذا أغمضنا أعيننا عن ماضينا ومستقبلنا ، كأن معاملتنا مع الزمن من ذلك النوع الذى يطلق عليه اسم « تحت الحساب » نأخذ ما نشاء وما لا نشاء ، لأن حسابنا آجل .

فقالت :

ـ أرجوك ألا تنغص على هذه اللمحة الطارئة التى ظهرت فى حياتى السقيمة . إن اللّه الذى حرم بعض البقاع نعمة الخصب والعمران والسكنى ، حتى أطلق عليها اسم الصحراء ، لم يحرم هذه البقاع من نفحة خصب وحفنة ماء ، وبعض نخيل وشجر ، حتى رأينا الواحات فى الصحارى . فإذا بخل الزمان على حياتنا بالخصب ، فإنه قد من عليها بالواحة .

قلت :

ـ عندى فكرة أظنها ستروقك ، أفضى بها إليك إن سمحت بأن أتدخل قليلا فى بعض شئونكم .

فأمالت رأسها نحوى تستمع ، فقلت :

- إذا كان الوالد الكريم حريصا على أن يكفل لأبناء أخيه السعادة وبخاصة الأستاذ سامى ، فأظن أنه يكون أشد حرصا على أن يكفل لبناته السعادة وبخاصة الآنسة أميرة .

فقالت :

- هذا لا شك فيه ، وهو كلام وجيه .

فأردفت :

- والمال ضرورى لأولاد عمك ، ولكنك لست ضرورة للأستاذ سامى ، أو على الأصح ليس هو ضروريا لك فيما يبدو لى .

فأومأت موافقة . فأتبعت :

- هناك إذن طريقة وسط ، وهى أن تكاشفى أباك بأنك لا تحبين ابن عمك وأن الوالد يستطيع أن يسوى أمور أبناء أخيه بهبة أو وصية ، وبذلك يسعد الطرفان .

ونظرت إليها متلهفا أن أسمع حكمها على اقتراحى ، فإذا بها تحملق فى ذهول وتضع يدها على رأسها مدعية أن صداعا عنيفا يعمل فى رأسها ما تعمله الكسارة فى جوز الهند ، ثم تفر من مجلسى ، وتلقى على التحية وهى فى الطريق .

ولم تبين قبل سفرها موقفها من اقتراحى ، ولا موقعه على قلبها إن كان رضا أو سخطا .

وأصبحت فى هذا العام كثير المشاغل ، كثير القراءة كثير الكتابة . واندمجت فى غمار الحياة وتعرفت على كثير من وجوه المديرية من حولى ، وذاع اسمى بين الأدباء الناشئين وابتدأ محمل الحياة يخف عن كاهلى شيئا فشيئا وجرى الرخاء فى معيشة أسرتى ، وكدنا ننسى بؤسنا الماضى .

وقد شهدت بنفسى فى سفر قريب ، يوم ذهبت لأرى أبوى بعد غيبة تزيد على عام ، وقابلتنى الأسرة بمحبة أسالا دموعى ، لأنهم أحاطوا بى عند مقدمى ، كما تحيط العصافير بأمها عند دخولها العش .

وأحسست سعادة عظمى حين رأيت فى شخصى الضعيف شخصية المنقذ . وجلست أمى تتفرس ملامحى ، فرأيت عليها آيات الهدوء . وقالت لى : أحس يا بنى أنك مرتاح . فقلت : حمدا لله . قالت : لا تظن يا بنى أنك فقير بل أعتقد أنك من أغنى الناس ، فأنت تنفق من كنز دعاء ورضا لا أراه ينفد ، ثم رفعت طرفها إلى السماء وجعلت تهمهم بدعاء غير مسموع .

ورجعت من هنالك راضيا ، فقد أيقنت أننى أؤدى مهمة وأننى عضو أساسى فى جسد أسرتى .

وقابلتنى زينب بخبر عجيب ، فقد قالت لى وهى تذرف دمعا لا أعلم حقيقته :

ـ سيدى ، لقد حدث فى غيبتك حادث مؤسف .

فقلت منزعجا :

ـ خيرا يا زينب .

ـ خيرا يا سيدى .. هو حادث يسير تافه ، لكنه بالنسبة إلىّ يعتبر كبيرا .

ـ أسرعى وقولى ما الذى حدث .

فسكتت برهة ، تحسست فيها وجهها وعدلت المنديل على رأسها ، ثم نفضت ثيابها كما تنفضها من غبار عالق ، وقالت بعدذلك :

ـ حامد ..

ـ ماذا جرى لحامد ؟

ـ إنه غازلنى .

فانفجرت ضاحكا وقلت :

ـ وهذا حادث مؤسف ؟ إذن فأين الحوادث اللذيذة ؟!

فرأيتها تنصرف خارجة وهى تبكى أو تتباكى ، فأمسكت بذراعها وحجزتها عن الخروج ، وأنا مسترسل فى الضحك والحديث ، فإذا بها تضحك .

فقلت لها :

ــ اجلسى فإنى أريد أن أتفاهم معك فى أمر .

وما أن فعلت حتى قلت لها :

ــ لا تراعى إذا حدثتك بأن لكل فتى وفتاة أملا يعتز به وشخصا يحن إليه .

ثم ضحكت قائلا :

ــ وأنت تعلمين أننى شخصيا أحب . فلا ضير عليك إذن فى أن تحبى ، ولا ضير على حامد فى أن يحب ، وحب حامد لزينب أمر مفروغ منه ، ولكن ما الذى يمنعك من أن تفسحى صدرك له ؟

ــ كنت أود أن أتزوج شخصا سواه .

ــ وأين هو ؟

ــ لا أعلم . كان فى عزبة من العزب المجاورة ، ثم التحق بخدمة أحد الكبراء فى القاهرة وكان آخر عهدى به منذ عام ، ولما تسقطت أخباره قال لى أناس : إنه تزوج ، وقال لى آخرون : إنه لا يزال عازبا حتى الآن .

ــ أكنت تحبينه ؟

فضحكت مطرقة ولم تجب . فقلت :

ــ إنك سخية القلب .

فلم تفهم ما أعنى ، ثم سألتها :

ــ ولكن .. أتكرهين حامدا .

ــ ولا أحبه .

ــ اتفقنا . إذن فمن المحتمل جدا أن تنشأ بينكما بعد الزواج رابطة حب عنيف . اسمعى يا زينب : يخيل إلى أن بقائى فى هذه الأرض غير طويل وأنت وحامد من الذين أخلصوا لى وأحبونى ، ويسعدنى ويرضينى أن أراكما زوجين . إنه رجل . وحكمى عليه وأنا رجل مثله أصدق من

حكمك عليه وأنت فتاة لا تحسنين تقدير المصير . أجيبينى : أأنت موافقة ؟

ـ لا أستطيع أن أعصيك .

ـ لا .. ليس الأمر بجرد طاعة ، ولكن أأنت مرتاحة ؟

فقرأت فى عينيها الرضا وعلى قسمات وجهها القبول .

وفى مساء ذلك اليوم أبلغت حامدا ما فعلته من أجله ، فمال يقبل يدى وجبينى ، وهو يقول :

ـ كنت أحبها يا سيدى ولكنها كانت غير راضية ، وقد عرضت عليها الزواج مرة بعد مرة فما كان منها إلا أن رفضت ، وكان رفضها فى بادئ الأمر مطمعا أقرب شيء إلى القبول ، ثم تغيرت بعد ذلك لسبب لا أعلمه فما كانت تطيق أن تلقانى فى طريق ، ثم جاء يوم تحققت أمنيتى على يديك .

وما مضى شهران حتى كانت الأغاريد ودقات الدفوف تتجاوب فى سكون الليل بين مساكن الفلاحين وتحملها إلىّ نسمات الخريف حلوة مطربة ، وأنا مشرف من إحدى النوافذ .

وكنت فى هذه الليلة فى نشوة من السعادة لا تقل عن نشوة حامد نفسه ، لأن قلبى المجروح استطاع أن يدرك مدى جراح القلوب .

١٤

ما كان أسعدهما من زوجين بعد زفافهما !! رأيت ذلك بنفسي وحدثني به حامد فأحسست لذلك انقباضا على الرغم من أنني أحب للعروسين الهناءة . وكان انقباضي راجعا إلى أنني توهمت أن هذا موقف قد يتكرر . ففرضت أن أميرة صارحت أباها بحبها ، وأن هذا الرجل الهادئ العطوف الوديع ، قابل اعتراف فتاته بابتسامة الواثق من حل المشكلة ، ثم تضورت حديثا بينهما فيقول الأب فيه لابنته :

ـ أتحبين ؟! ليس في الحب الشريف عار ، ولكن أتعتقدين يا بنيتي أنه من الضروري أن تبنى البيوت على الحب ؟! لا . ليس ذلك ضروريا . وكم من بيوت تقوضت أركانها مع أن الحب كان أول لبنة في بنائها . وكم من زوجين نشأت بينهما بعد الزواج علاقة لا يستطيع الموت أن يمحو آثارها من صفحات القلوب .

ثم تصورت أن أميرة شخصت ببصرها وأعملت ذهنها لترى مدى صحة هذا القول في عالم الواقع ، فما لبثت أن وضعت يدها على حقيقة زينب وحامد .

وهنا تنهدت . ثم قلت في نفسي ما سبق أن قلته للحبيبة :

لا تدبير مع المقادير !! آه .. وماذا يكون لو أنني فقدتها ؟.. كثير من الناس شغلهم حب عن حب وألهاهم جديد عن قديم .. بكوا ثم مسحت يد الزمان دموعهم ، ثم خلصهم النسيان من سعير العذاب .

وعدت فابتسمت ساخرا من نفسي ، حين تحولت فكرتي إلى مجرى آخر :

رأيت السعادة العظمى هي في أن تجمع المصادفات بين روحين خلقتا من معدن واحد وقدر لهما يوم خلقهما أن تزاولا في الحياة مهمة

مشتركة كما يصنع الصانعون شقى المقص ، وهم مقدرون أنهما إذا اجتمعا أديا على أتم وجه غرضا صنعا من أجله . ومن الجائز بعد ذلك أن تفرق حادثة ما بين شقى المقص ، فيجتهد الناس فى أن ينقبوا لكل شق عن قرين ، ولكنهم قلما يجدونه إذا ألغينا من حسابنا مشقة البحث والتنقيب .

وهذا هو الصيف الثالث أو الفصل الرئيسى من فصول خياتى . بدأت الحوادث فيه تجرى سريعة رعناء كما تجرى الأنهار بفيضان مفاجئ .فقد كنت فى منزل الأستاذ الليلة نسمر ونتحدث فى أمور خاصة وعامة ، وفى جو تسوده علاقة قاربت أن تكون قديمة . فخفت فيها المجاملات واختفت منها الرسميات ، كنت هناك حين طرق باب الشقة زائر لا أدرى لم أنكرت طريقته ... أحسست أن وراءه أمرا غير عادى فشاع فى نفسى شىء من الظلمة ، وعرانى انقباض باكر قبل أن يلج الداخل علينا باب الحجرة التى كنا جلوسا فيها . وقبل أن أسمع الأستاذ يهتف بحنان : ولدى سامى ؟! وعلى حين رأيت أميرة ـ وكنت قد وجهت إليها كل انتباهى ـ ترتجف أهدابها الطوال كعادتها إذا أحرجت أو فوجئت ، ثم سمعتها تقول بعد فترة صمت : أهلا بالأستاذ . كنت لا أزال واقفا فى انتظار أن يحيي كل منا صاحبه ، وخيل إلى أن وقفتى طالت كثيرا ، لأن الأستاذ جعل يغمر جبين ابن أخيه بقبلاته ، وما إن فرغ حتى تحول الضيف إلى الآنسة وجعل يسلم بكلتا يديه ؟ فهل تتصور هذا ؟ صافحته أميرة فأبقى يمينها فى يمينه ثم عمد أن يضع يسراه على ظاهر كفها التى فى كفه حتى رأيت أكفا ثلاثا تهتز بالسلام . وكنت أنقل بصرى الزائغ من واحد إلى واحد وأراقب نظرات الأستاذ ، فأراها تفيض بالفرح والمحبة ، ولا أكتمك أننى نقمت عليه فى هذه اللحظة ... لا تلمنى ، فإنه منطق القلب !!

وأخيرا ، وبعد انتظار خلت فيه أن الزائر لا يرانى أو أنه يتجاهلنى ،

أقبل فسلم فى صمت وكِبر ثم جلس بين عمه وابنة عمه ، وجلست أنا حيث كنت جالسا .

كان الشيخ يقول :

ـ فرصة سعيدة يا بنى ، ولكن أما كان من الخير أن ترسل إلينا قبل مجيئك حتى نستطيع أن نوفر لك الراحة فى الطريق بين المحط والعزبة ؟

فقال :

ـ ليست مشقة ... وربما كنت قد فعلت ذلك لأجعلها مفاجأة سارة

ثم نظر إلى أميرة وهو يبتسم ويسألها بعينيه أن تعلق على فكرته

فقالت :

ـ ولكن حرصنا على راحتك يفوق حرصنا على التمتع بالمفاجآت

ولم تكن قسماتها تشارك لسانها فيما يعبر عنه ولكن « ساميا » باغتنا بضحكة عالية أسند معها رأسه إلى ظهر الكرسى الذى يجلس عليه ثم قال :

ـ أشكر لك هذا الشعور يا أختى ... وإنها لفتة جميلة .

ولم يدع الموقف لى فرصة واحدة أستطيع أن أستأذن معها فى الانصراف ، فقد كنت جالسا أتململ وأحسست أننى فى هذا المكان شىء لا لزوم له الآن . وكان الشيخ متواصل الحديث مع سامى ، كثير السؤال عن أفراد الأسرة . أما « أميرة » فقد كانت مرتبكة ، دائبة التلفت تحاول جاهدة ألا تلتقى نظراتها بنظراتى ، وتنقر على أرض الغرفة المفروشة طرقات متواصلة مضطربة .

ثم فتر الحديث بين الثلاثة ، فقمت من مجلسى واستأذنت فى تأدب ، ولكن « أميرة » سارعت فقالت قبل انصرافى

ـ لا شك أن الحديث قد صرف والدى عن أن يقدم كلا منكما للآخر .

وأشارت بيدها وهى تقول :

- الأستاذ سامى بك المحامى ، والأستاذ عبد العزيز ناظر العزبة .
فأومأ ضيفهم فى كبرياء وعظمة ، ولكن أميرة أردفت :
- ولا أنسى أن أقول شيئا مهما : هو أن الأستاذ أديب أعجب به أبى .

وقبل أن أسمع ما هم الأستاذ أن يتكلم به ، أو أن أرى مدى اللمحة التى ظهرت على وجه سامى ، أحنيت رأسى بالتحية ووليتهم ظهرى للخروج .

ثم عرفت مع الأيام من يكون هذا الأستاذ سامى ؟ فهل تحب أن تعرفه ؟

طراز من الشباب ناعم مدهون ، حملته الحياة على أكف سخية فهدهدته وغنت له . اسمه فى سجل المواليد « سامى » ويدعوه أصدقاؤه « سامى بك » وقد يلقبونه فى مكتبه باسم « الأستاذ » ويدللونه فى البيت باسم « سوسو » فأنت ترى الآن أربعة أسماء لشخص واحد ، قد توحى إليك بأنه من الجائز أن يكون لصاحبها أربع شخصيات ، وقد يكون فى الرجال خلقا فريدا ، ولكنه مع الأسف ليست له نصف شخصية .

لا تقل إنه غريمى ، لأننى سأسرد عليك مجمل خلاله :

ألذ الأوقات التى يقضيها فى أربع وعشرين ساعة ، وقت يمضيه عند الحلاق أو فى الحمام أو واقفا أمام واجهة أحد المحال ليرى أكثر الألوان انسجاما على ذوى الوجود البيض ، وهو أبيض الوجه . يحبه « التزى » ويكرهه .. يحبه لأنه كثير الملابس ، ويكرهه لأنه يعيد إليه الحلة ليصلحها عشر مرات . يجيد التحدث عن « الأفلام » ويحفظ أسماء الممثلات خاصة ، حتى لقد نظمت إحدى المجلات الأسبوعية مسابقة عويصة الموضوع ، فكان الفائز فيها . وكانت هذه المسابقة هى أن رسمت المجلة عشرة أزواج من عيون الممثلات بين غربيات ومصريات ،

وكتبت فى أعلى الصفحة : « أتستطيع أن تعرفهن من عيونهن ؟ »
وكان الأستاذ سامى هو الذى عرفهن جميعا بما له من عبقرية .

يمضغ الكلمة مرة أو مرتين قبل أن يتفضل بها عليك فيخرجها من فمه ثم يرسلها من بين شفتين تأخذ علياهما وضعا آخر عند مخرج الكلمة ، وحين تتحدث إليه ، تجد نفسك غير مشغول بما يقول ، ولو أنك تكون ولا شك ناظرا إلى فمه باهتمام شديد . ثم يفرغ الأستاذ من حديثه وتراجع نفسك فتسألها عما كانت تهتم به ، فتجيبك بأن عنايته بأسنانه الناصعة البراقة هى التى استأثرت باهتمامك طول حديثه .ثم لا تلبث أن تقول : لن يتحقق مثل هذا البياض لأسنان هذا الشاب إلا إذا كان ينقعها فى منظف طول الليل .

يحرك عنقه بتقدير لأنه يخاف على بنيقة قميصه المنشاة أن تكسر وعلى عقد رباط العنق أن تتحول . يؤذيه البرد بسرعة ، وتلفحه الشمس إن رأته كأنما تفتحت عنه وردة !!

لسان « مختلط » عام وهو لا يكاد يحسن لغته ، ولست أقصد أنه يجيد معظم اللغات الحية ، وإنما أقصد أنه إذا تكلم فى شأن ما ، بلغتنا الفصحى أو الدارجة ، وقف فجأة فى أثناء الكلام كمن يعالج معنى لا يجد له لفظا ، يقلب كفه فى حيرة ، ويقطب جبينه فى استغراق ، ويطمح ببصره فى شرود ، ثم يزلزل الجبل فيقذف حصاة ، حين يلجأ إلى التعبير عن المعنى الذى ظنه عميقا ولم يجد فى لغتنا لفظا ، بكلمة فرنسية أو إنجليزية فى عاميتنا وفصحانا ألف مرادف لمعناها .

وهو بعد ذلك غير مبرز فى ميدانه ، محام عادى ، ولن أقول إنه أقل من العادى ، حتى لا تتهمنى . نزق سريع الغضب ، مندفع لا يتدبر العواقب .

وأن الله الذى يلقى فى قلوب الناس حبا من أول نظرة . قد ألقى فى قلبى وقلبه مقتا من أول نظرة كذلك ، لم تعجبنى خلة فيه لأننى رأيته

لا يمنح الشيء ما يستحقه من اهتمام . فهو يبالغ فى العناية بهندامه إلى حد قد لا تصبر عليه الفتيات ، ويتحدث فى أمور لا تعتبر من الأهمية بحيث تشغل ذهن السواد الأعظم من الناس . حتى إذا ما دفعت به ظروف إلى أحد ميادين الفكر التى يجدر بكل مثقف أن يتكلم فيها ، ألفيته فج الأفكار ، ضعيف العبارة ، سقيم الحجة ، وهو نبات متسلق لا يتأتى له أن ينهض إلا معتمدا على سياج ، أو متشبثا بجذع شجرة ، من أجل ذلك يتملق عمه تملقا مكشوفا يستطيع أن يسميه الأستاذ توددا وتحببا واعترافا بالجميل ، أما أنا فلا أعتقد فيه إلا أنه متملق .

وأحسست فى الصباح التالى لمقام الأستاذ سامى أن ذلك الريف الساكن وهذا الكون الوادع تدردب فى أرجائه الطبول ، وأن آهل شوارع القاهرة بالمركبات وقطارات الترام وأصوات البائعين والشارين ، أهدأ بكثير من عزبة الأستاذ فريد . لكنه لم يحدث بينى وبينه أكثر من أن نلتقى فيحيى كل منا صاحبه تحية عادية ، أتعمد فيها أن أكون رسميا ويتعمد هو أن يكون عظيما ، ثم تختلف بنا الطريق .

ويمر أسبوع تنهى إلى زينب بعد انقضائه أن الأسرة ستحتفل بعيد ميلاد سامى بعد أيام ، وأن بطاقات الدعوة كتبت إلى كثير من الأقارب ، وأن الآنسة أميرة قالت وهى مقطبة : ستكون « آمال » ضمن الذين يحلون ضيوفا علينا بمناسبة عيد ميلاده .

وتعود آمال إلى العزبة مرة أخرى ، وإذا بها تريد أن تجبرنى على أن أمثل معها المسرحية القديمة وأنا فى هذه الفترة ضائق بنفسى ، أقاسى من الغيرة نارا تكاد تحرق أوصالى ، وقد كنت فى زورتها الماضية على استعداد لأن أمثل ما دامت مواقف التمثيل ستكون سببا فى أن أحظى بقلب أميرة .

وعادت إلى الحديث عن زهرة « البانسيه » التى لم تكن فى حقل الأزهار فى هذا الفصل . اعترضت طريقى ذات يوم وأنا راجع قبيل

المساء على المشى الذى اختارته لنزهتها بين الحديقة والغابة ، وتبادلنا التحية فقالت لى وإحدى يديها على خصرها ويدها الأخرى ترسل بشعرها إلى الوراء :

ـ لا تنس فى الربيع المقبل يا حضرة الناظر أن تزرع لنا من زهرة « البانسيه » قدرا كبيرا .

فقلت وأنا واقف تجاهها أنظر إليها فى شرود وعجب :

ـ بمشيئة الله ... سأحقق لك هذه الرغبة

ـ وسأزوركم فى الربيع .

ـ ذلك يشرفنا ؟

ـ ألا زلت من الذين يحبون هذه الزهرة ؟

ـ أى زهرة ؟

ـ البانسيه !

ـ أأفكر فى شىء لم يجئ موسمه بعد ؟!

ـ لكن الذين يشتغلون بالأشياء شغلا حقيقيا يفكرون فيها دائما ولا ينسونها .

فابتسمت وقلت وأنا ألقى عليها نظرة مؤنسة :

ـ معذرة إن أنسانى أمر أمرا ، فإننى كثير المشاغل ، لا يستطيع شىء واحد أن يستأثر بكل تفكيرى .

فقالت وكأنها تسخر :

ـ زراعي .. وأديب .. وممثل .

وكانت ترسل بين كل كلمة وأخرى من كلماتها الثلاث ضحكة قصيرة ، فأحسست أننى أهنت وتحركت فى نفسى كل عقدها فتراجعت خطاى بعد أن كنت هاما بالمسير ، وقلت لها بصوت متهدج ونظراتنا تتصافح كما تتصافح السيوف :

ـ هل تسمح الآنسة بأن توضح لى بعض معان غامضة فى حديثها ؟!

أما أنني زراعي فذلك مفهوم ..

فإذا بها تسارع بجيبة :

— وأما أنك كأديب ، فلأن الآنسة أميرة أطلعتني على بعض ما كتبت ، وأما أنك ممثل ، فلأنك تلبس في كل فصل ثوبا !!

فسرت كاظما غيظي لأنني عللت هذا الهجوم بإحدى علتين : فإما أن تكون آمال مدفوعة بنفسها إلى الانتقام مني لأنني قطعت من ناحيتي شوطا بدأناه معا في الربيع الماضي ، وإما أن تكون مدفوعة بدافع آخر خارج عن نفسها هي . ومن الخير في كلتا الحالتين ألا ألقي على نارها حطبا .

ما كنت ألقى أميرة إلا مصادفة ، وكنت أرى دائما على وجهها الشرود وفي عينيها عدم الرضا ، ولم يدعني الشيخ في هذه المدة كلها إلا مرة واحدة إلى العمل معه ، ولم أذهب بلا دعوة بطبيعة الحال ، وما كنت أراه إلا وهو في طريقه إلى الغابة ذاهبا أو راجعا . وقلما رأيت في صحبته كتبا وتخيلته لفرط هزاله كأنه في أخريات حياته ، وكأن المجد الذي حققه لنفسه هذا العام بكتاب أخرجه في عالم الأدب هو خاتمة مطافه ، وكأنه إكليل زهر صنعه بيديه قبل موته ليضعه الأحياء فيما بعد على قبره .

وهكذا تناهبتني عوامل نفسية مظلمة أنكرت معها مقامي الذي كان سعيدا فيما مضى . حتى كنت أراقب نافذة أميرة طول الليل فإذا ما كانت فيها جالسة إلى معزفها أو مستقبلة النسيم أمام شباكها ، ودخل سامي أظلمت عيناي ، وتراقصت أمامهما الأغصان في الساحة واضطربت المرئيات ، ثم تصور الغيرة لي أن « ساميا » يميل عليها وهي جالسة فيقبلها ، وأتخيل أنها مستسلمة راضية ، فأفرك عيني بكفي وأدمن النظر بحرص ولهفة ، فلا أرى إلا أنه يغدو أو يروح أو أنها تخرج من الحجرة .

وساعدتنى هذه المحنة على أن أكـون لشـخصية الأستاذ فريـد صـورة واضحة :

رأيته من الرجال ذوى الشخصية المزدوجة ، وكثير مـن النـاس أشـباه له . هو فى عالم الأدب جرىء صريح حلال مشـكلات ، أمـا فـى عالمـه الخاص ، فهو متردد ، يتنـاول القضايـا بعاطفتـه قبـل عقلـه ، ويسـتجيب لكل رأى ، أعنى أنه لا يوازن بين الآراء جملة واحـدة ، ثـم يتخـير منهـا أصوبها وأحسنها ، ولكنه يحب فى كـل ناحيـة الحسـن فيـه ، كالشـاب الذى يقف على أبواب الزواج مترددا بـين محاسـن خمـس عرفهـن ، فـإذا فرضنا أن أميرة عرضت عليه مشكلة قلبها فى هذه الأيـام فإنـه ولا شـك سيميل إلى ألا يحطم قلب فتاته ، ومع ذلك سـيميل إلى ألا يقـوض آمـال ابن أخيه ، وسيجنح مع هذين إلى ألا يفجع شابا مثلى فى أحلامه ما دام اللّه قد من عليه بقلب طاهر كقلب أميرة ، بصرف النظر عن أننى فقير ، وأننى ناظر عزبته .

ويقلب الأسـتاذ وجـوه الـرأى غـير مـوازن بـين المزايـا والعيـوب ، وتطول فترة التفكير على هذا النحو حتى تتمخـض المشـكلة نفسـها عـن حل لها كمـا خلقـت حـواء مـن ضلـع آدم . وهنـا يسـلم الشـيخ بـالأمر الواقع .

وضاقت النفس ذات يوم لأننى أرى أمـيرة تسـبح فـى نطـاقى وعلـى القرب منى ولا أستطيع أن أتحدث إليها . ولم تعد زينب فى هذه الأيـام تحمل إلى من أنبائها شيئا ، لأن أمـيرة أصبحـت دائمـة الصمـت حريصـة على الكتمان حتى تركتنى فى موقف حائر لا أدرى معه مـاذا تنويـه فـى أمر مستقبلنا . ضـاقت النفـس فرأيتنـى مندفعـا مـن الحقـول أسـعى نحـو الحديقة ووقفت هناك أرقب انحـدار الشـمس نحـو مغربهـا ، وأستمع إلى طنين النحل وهى ترف نحو خلاياها فى هذا المكان الذى ولد فيه حبـى . وما طال موقفى حتى سمعت وقع أقـدام فـى طريقهـا إلىّ ، ونظـرت فـإذا

الأستاذ سامي قادم يمشي بين أميرة وآمال ، وكنا كثيرا ما نلتقي ولكن قلبي في هذه المرة حدثني أن أمرا سيقع . وفتشت عن شخصيتي الحادة التي كنت فيما مضى ألقى بها من صارت اليوم شغل قلبي ، فتشت عنها حتى وجدتها ، ووقفت مرهف الحواس متأهب الخاطر كأنني أتأهب للمبارزة . ووقع بصري أول ما وقع على وجه سامي ، فأيقنت أنني أمقته ، ثم نظرت إلى آمال فخيل إلى أنها تمقتني ، أما أميرة فإنها كانت حائلة اللون كأنما هي على أبواب مرض . وكنت في هذه اللحظة على استعداد كامل لأن أؤول أدنى الكلمات إلى الحسنى بأسوأ تأويل ، فتخيلت أن ساميا نظر إلى هندامي ثم ابتسم قبل أن يلقي إلىّ التحية ، وأن هذا الأنيق لا تعجبه ثياب رجل يدير بها شئون مزرعة ، ثم قال بعد ذلك :

ــ أهذه هي خلايا النحل يا أميرة ؟ هذه أول مرة أرى فيها خلايانا . وقد كنت متصورا أنها من الكثرة بحيث تشغل نصف أرض الحديقة . (ثم ضحك وقال) ومن الغريب أن كل خلية دهنت بلون ، حتى ظهر مجموعها شيئا يدعو إلى الضحك .. ولكن من الجائز أن تكونوا قد راعيتم السكان في اختيار الألوان .

فأخذت آمال نوبة من الضحك لا تستطيع دفعها ، أما هو فإنه سره أن أعجبها حديثه ، وكنت أنا جامدا في مكاني أستغفر الله الذي يحشو بعض الجماجم بالتراب وأصحابها أحياء . ولم تنبس أميرة ببنت شفة ، على حين استطرد الأستاذ فقال :

ــ معذرة يا ..

فأكملت نداءه قائلا :

ــ يا ناظر العزبة .

ــ لست أقصد ، وإنما حاولت أن أذكر اسمك الذي شرفتني به ابنة عمي ليلة التقينا ..

فلم أرد عليه ، فواصل حديثه :

ـ أريد أن أقول : ربما كان نقدى هذا مردودا لاعتبارات فنية ، فهل لديك شيء من هذا القبيل ؟

ـ إن الآنسة آمال تعرف الكثير عن تربية النحل ، وهى موافقة على وجهة نظرك ، ولو أنها رأت بها ما يجب الرد عليه لتطوعت مختارة .

فابتسمت أميرة وآمال ، وقال هو من جديد :

ـ ذلك حسن ، ولكننى أحب أن أسأل المختصين ، أم تراك غير مكلف أن ترد على ؟!

ـ ليس فى الأمر ما يغضب يا أستاذ سامى ، ولا تنس مهمتك فى الحياة كمحام يعرف حدود الحريات ويحترمها ، ويعلم أن المحاكم تستعين بالخبراء فى مشكلات القضايا .

قال بكبرياء :

ـ هل ترى فى موقفى ما يدعو إلى الاعتذار ؟! إنك تتناول الأمور فى المزرعة كما يتناولها الأدباء لا الزراعيون .

ـ أعود مرة أخرى فأذكرك بالحريات .

ـ أنت ناظر مدلل ، وهذه خلاصة الحديث .

ثم غادر موقفه فى حدة ما كنت أتوقعها ، وتبعته آمال ثم سارت وراءهما أميرة بعد أن ألقت إلى نظرة عتاب ، كأنها ما كانت تود أن يقع بيننا مثل هذا . وكم وددت فى هذه الللحظة أن أتبعهم من فورى فأبطش أول كل شيء بأميرة ، بهذه التى أصبحت أصل متاعبى ، ثم أتناول الأستاذ ساميا بما هو أهل له ، فأفهمه أنه فى الوجود لا يزيد على أن يكون شجرة لبلاب ، إن هوى ركنها الذى تعتمد عليه تطرحت على الأرض إلى غير قيام . أما أنا فقد شققت طريقى بالفأس فى صخرة !! وتمنيت بعد ذلك أن أقول للأستاذ فريد :

ـ أيها الرجل ... أيها لأديب ... إن كنت على علم بموقفى فأنت منافق حين تستبكى العيون وتستثير عطف القلوب فى مآسى يلفقها

خيالك ويوشيها بيانك ... وما كان أجدرك أن ترثى لقلبين رأيا أنه لا حياة لأحدهما وحده لكنك وضعت بينهما سيفا إن موقفك من الناس ما دمت كذلك لأشبه شيء بموقف النادبات أو المهرجين . هؤلاء يثرن الدموع ، وهؤلاء يثيرون الضحك وهم بمعزل عن الألم واللذة جميعا كأنهم آلة صماء .

وما أن فرغت من حديث نفسي حتى أفقت على دمعة حرى تجرى على خدى ، لأنني ذكرت الرغيف !

وانقضى أسبوعان ثقيلان ، سافر الضيوف فيهما تباعا ، وبدا الريف يسترد هدوءه ، وأخذت العزبة مكانها الأول من الأرض ، بعد سفر الأستاذ سامى ، لأننى كنت خلتها تحولت عن مكانها ، ولم يعد فى منزل الأستاذ فريد أحد إلا أسرته ، وكان قلبى يتنزى للقاء أميرة ... كنت أريد أن أراها فأحدثها بما يطفىء غيظ نفسى ... أريد أن أقول لها ما أشتهى ثم أتحمل بعد ذلك كل شيء ، ولو حزمت متاعى وخرجت بالليل . فإن فى الأرض متحولا للكريم .

والتقينا بين دوح الغابة ، وخف منذ الآن تحرجى الذى كنت أحسه حين ألقاها ، وكانت غاضة من بصرها بطول مجلسنا كأنها أتت بجريمة ، قلت لها فى أول الحديث :

ـ أرأيت ما لقيته من ابن عمك ؟ !

ـ ربما خمنت السبب .

ـ لا أعرف سببا إلا أن كلا منا قد استثقل ظل صاحبه ، أعنى أننا تباغضنا بعد النظرة الأولى .

ـ ربما كان هناك عامل خفى لا أعلمه ، ولكن الذى أثق فى وجوده هو أن « آمال » قد تناولتك عنده بشيء يثير الحفيظة ، وأنه لامنى على طريقة تقديمك إليه ، فزعم أننى أبديت اهتماما بك يزيد على المألوف وعلى كل حال أرجو ألا يحزنك أن الأمور تسير على غير ما يرام .

ــ هل حدثت والدك بشيء ؟

ــ لم أفعل بعد .

ــ إذن فأنت غير مخلصة فى أن تنشدى للمشكلة حلا ، سمعت وقرأت أن كثيرات من الفتيات يلقى الحب فى قلوبهن نورا يبددن به ظلمة المشاكل ، ولكننى أراك على النقيض حائرة مضطربة ، كمن يرى الغريق فى الماء فلا يسبح ولا يستغيث من أجله ، قولى أى شيء فإننى ضجرت من هذا الجمود . قولى : لا تعترض سبيلى ، أو قولى : غب سريعا عن آفاقى وارحل إلى مكان آخر ، وإن شئت قولى : إننى أكرهك ، ولكن بغير الطريقة التى سقتها بها يوم أشهدنا الكون على حبنا المضطهد . إن كنت غير قادرة على التضحية فأنا قادر عليها ، وأستطيع أن أحتمل فى سبيل سعادتك ما تقترحين وما لا تقترحين ، ولكننى حتى الآن أرى أن سعادتك لن تكون إلا فى ظلالى .

فرفعت وجهها بعد إطراقها ، فرأيت قطرات الدمع عالقة بأهدابها الطوال ورأيتها مرتجفة الشفة ، فاختلج قلبى بالحنان وأدركت أنها فى حيرة حقه . فقلت :

ــ يخيل إلى أنه لا مناص من أن نتعامل مع الزمن تحت الحساب » فترة أخرى .

فقالت :

ــ نعم .

ثم شخص بصرنا برهة استمعنا فيها إلى حفيف الأغصان فى الغابة ، وكأنما هى توقع لحنا حزينا وقال كل منا لصاحبه بغير كلام : ما أظن أن القدر سيحول الآن سيفا شهره بيننا ، فهل توافقنى ؟ « ثم لا أدرى كيف التقت شفتانا » !

* * *

وانقضت أيام اعتادت الأسرة أن تقيمها فى العزبة كل صيف ، وختمت أميرة ليالينا هناك بأن قالت لى :

— أعترف لك يا صديقى بأن كثيرا من التردد يشوب طبعى ، ولكن يجب أن تصبر ، معتقدا أننى ساهرة على قضية قلبى ، وأن الله الذى يقضى فى كل يوم بحل آلاف الآلاف من المشكلات لن يضن على مشكلتنا بحل .

وهكذا طفرت فى نفسها تلك اللمحة التصوفية التى تعتاد النفوس إن ألح عليها الكرب أو أسأمها النعيم ، فلم يسعنى إلا أن أبتسم مسلما . ورحلوا . وأقمت أعالج عيشا لا طعم له تغلب فيه الآلام عن الآمال .

ثم سافرت إلى القاهرة بعد ذلك بشهر . وقصدت إلى الضاحية حيث يقيمون ، ولم يكن فى حديقة البيت ولا بالقرب من الباب أحد يرانى ، وهممت أن أضغط الجرس فإذا بيدى تتراجع ، وإذا بى أقلب طرفى فى نواحى المنزل ثم أتلفت وأسير . وما أن بلغت عينى المحط ووقفت أرقب القطار الذى سيقلنى إلى العاصمة ، حتى استحسنت هذا الخاطر ، فقد وثب فى ذهنى أنه من الجائز أن تكون « أميرة » قد كاشفت أباها بأمر قلبينا ، وأن يكون الرجل قد أسخطه ذلك على ، وماذا يحدث لو التقينا ؟ سيكون لقاء لا أرتضيه ، فلأبق إذن حيث أنا حتى يقضى الله فى أمرنا كما يشاء .

ولم يظلنى هذا المساء إلا وأنا فى منزل صديقى صالح . كنت مستلقيا على فراشه قبل أن يجئ وأنا أساور نفسى لأقنعها بعرض المشكلة عليه عرضا صريحا لعلى أحظى منه برأى سديد . وقد سبق أن كان صاحب الفضل أيام كنا فى شوطنا الأول .

ودخل صديقى وكان لقاؤنا كما تعرف . وأخذنا نقطع الليل باستعادة الذكريات وتخيل المستقبل ، ولكنه لم ينس أن يحدثنى عن

حبه . قال عنه :

ـ لقد أدركت يا صديقي « بعد كثير من التجارب » أن هنالك لونا من الحب لا ينال العاشقون منه إلا أن يستردوا قلوبهم من أيدى من أحبوا وهى تالفة الشغاف مخضلة بالدم ، وأصحاب هذه القلوب هم الذين يلجأون إلى الأديرة فى أخريات الحب فيضمدون جراحهم بالمسوح ، ويحيلون النقمة التى تنهش قلوبهم إلى رحمة وشفقة واستغفار ، وديننا ليس فيه رهبانية ولكن الذى ينال منه الحب هذا المنال ينقلب دون أن يشعر إلى راهب ، ولكن فى غير دير . يسعى بين الناس بعيدا عن الناس ويكره خلق الله لكنه يستغفر لهم .

ودب ظلام نفسه إلى نفسى حتى خلت وأنا إلى جانبه أننى لاقيت هذه النهاية .

ـ استمع إلى يا صالح .. إننى أحب ، وقد حفلت حياة حبى بحوادث منها الغامض ومنها الواضح .

ثم قصصت عليه قصتى ، فأمال إلى رأسه وهو يبتسم قائلا لى :

ـ أحسنت ... تحاول دائما أن تنتفع بالقاموس قبل أن تبلى نسخته الوحيدة ، عبد العزيز : أأنت شجاع ؟!

ـ لا ... وأقسم .

فضحك طويلا ثم قال :

ـ ولكنى أريدك شجاعا كما كنت فى المرة الأولى .

ـ نسيت يا صديقى ما فرضته على ، لقد أردتنى ممثلا فحسب ، ولم تحملنى على أن أتشجع .

ـ الموقفان متقاربان . غير أن الأخير يحتاج إلى جهد أشق ، فهل لك أن تسمع اقتراحى ؟

المسألة مسألة حياة أو موت ، أقصد أنك إذا فقدتها فربما كان فى ذلك فقد نفسك . ولا أعنى أنك ستموت ، ولكنى أعنى أنك

ستدفن وأنت حى .

— أفزعتنى يا صالح !

— ذلك ضرورى لشحذ همتك ، ولو لم تكن هذه الفتاة مترددة لأقدمت على عمل ما ، لفرت معك .. لصارحت أباها .. لهددت بالانتحار .. لعملت أى شيء ، وهى تحبك ولا شك ، ولكن عجز الرأى دائما مضيعة للفرصة ، وأنت الآن الطرف الذى يجب عليه أن يعمل .

— أنتما تلتقيان طبعا ...

— نعم نلتقى .

فتنهد ، ونظرت إليه فرأيت وجهه تحت نور المصباح قد تراقصت عليه لمحات من الريبة أنكرت رؤيتها . فأدركت من فورى أنه سيتكلم بما لا يرضاه ضميرى ... ودعك من الضمير ، أقسم أن قلبى كذلك ينكره . فصرخت فى وجهه ووضعت كفى على فمه واستحلفته ألا يتكلم . فإذا به يقوم إلى المصباح فيطفئه ويصعد إلى الفراش وهو يقول :

— نم يا صديقى طويلا قبل ليالى السهر الطويل .

وعدت إلى العزبة فى صباح اليوم التالى لأستأنف أيام عيش ثقيل .

حمل البريد اليوم خطابا عرفت خطها على غلافه ، ففضضته وقرأت عباراته المختصرة :

— أخى . ولن أدعوك بغير ذلك !!

تستطيع أن تحضر إلينا فإذا ما لقيتنا ادعيت أنك جئت مصادفة . وعسى أن نتراءى بخير ..

هبط قلبى نحو أحشائى واستنكرت هذا الغموض . وركبت أول قطار إلى القاهرة فكنت عصر اليوم على باب مسكن الأستاذ أدق جرسه الخارجى . واسترعى نظرى أن البيت فى سكون غير عادى ، حتى إذا ما أجاب الخادم وخرج بادرنى بأن قال :

ـ أتسأل عن سيدى ؟

ـ خيرا .

ـ نقل إلى المستشفى اليوم على أثر حرق خفيف أصاب يده .

فأدركت بسرعة أن الحوادث تجد وأن حياة الرجل مهددة بالخطر وغمرتني موجة من الأسف والشفقة واللهفة ، حين أنبأني قلبي أن وجود الشيخ ربما كان حائلا لا نعرف قدره يحجز بيني وبين العواصف . ونسيت قضية حبي ، وتمنيت له النجاة ولو على حساب هناءة كنت أرجوها .

وركبت الترام إلى ظاهر المدينة حيث يرقد الأستاذ في إحدى غرفات مستشفى خصوصي . كان هناك سريران أحدهما له والآخر لأميرة ، وكان السكون مخيما على المكان ويخيل إلى أنه فاض من وحشة نفسي لا من عزلة الموضع ، ودخلت الغرفة فبصرت به ممددا في فراشه وكأنه مريض من شهر مضى ولم أستطع أن أملك دموعي ولا أن أدفع حرق الأسى حتى حسدت في هذه اللحظة أناسا تسارع قلوبهم إلى الشماتة ، وأناسا يجهزون على المحتضرين ليأخذوا أسلابهم .

ظهرت الشيخوخة التي جاوزت الخامسة والستين في ثوبها الحقيقي ، فاختفت النضرة التي أجرتها على وجهه يد النعيم ، وغارت العينان اللتان نقبتا في تراث الخالدين سنوات طويلة وتسلب قوامه النحيف من لحمه الخفيف ، وشخصت عظام الخدين وخفت الصوت الذى كان هادئا بطبعه ، وغمرت جسمه موجة من الحرارة .

وجعلت أميرة التي كانت تنظر في ذهول متوقعة لطمة الزمن ، تقص على موجز الحادث ، فقالت :

ـ سهر أبي منذ ليلتين على دأبه ، وامتد به السهر وقتا غير معهود فأخذته سنة من النوم أفاق منها على لسعة لفيفة كانت في يده ، واستصغرنا الأمر . وعاده أحد الأطباء في المنزل ، ولكنه كان في اليوم

التالى مهددا بالتسمم لأن السكر ساعد على تحرج الحالة . ثم رفعت بصرها إلى السماء وكأنها تسألها العون .

كان المقربون يدخلون عليه وكان غيرهم يترك بطاقته ، وقد رأيت فى هذه الليلة ظلال الموت وكأنها تزحف نحو سريره شيئا فشيئا ، وفتاته إلى جواره ترقب الموقف وتستنجد الطب ، والتقت نظراتى بنظراتها فقلنا فى صمت : لسنا ندرى !!

وبت فى القاهرة هذه الليلة بيتة شخص ينظر إلى المستقبل فلا يراه إلا كهفا هائل الجوف حالك الظلمة . ثم يممت المستشفى قبيل ظهر يومى الثانى ، وما أن وصلت إلى باب غرفته حتى رأيت أحد الأطباء خارجا من بابها وعلى وجهه آيات لم أرتح لها . فدفعت الباب برفق ، ودخلت فإذا بإحدى الممرضات واقفة وراء السدفة « البرفان » المنصوبة فى المدخل فوقفت إلى جوارها لأرى الشيخ مرسلا ذراعه الذابلة خارج الفراش ، وكفه قابضة على كف سامى وأميرة وهو ينقل بصره بين وجهيهما . وكانت أميرة تبكى منتحبة ، أما ابن عمها فإننى لم أسمع له صوتا ، ولم أطق هذا الوداع القاسى فخرجت أكفكف دمعى إلى حيث حجرة الراحة فى المستشفى فجلست أضرب فكرة بفكرة وأطرق كفا بكف ، حتى محت ظلال الموت نور الحياة ، وقضى الشيخ وأنا لا أزال فى مكانى .

كان وقع هذا الخبر على الفلاحين فى عزبة الأستاذ سيىء الأثر حتى خلت أنهم — وأنا معهم — فى حيرة واضطراب تشبه حيرة السمك جف غديره فتأهبت له يد الصياد ، ثم عدنا فتركنا السفينة للأمواج وانتظرنا ما تجرى به المقادير . وانقضى فصل الشتاء عابسا كئيبا يحدثنى كل يوم من أيامه بأننى فى غربة وأن مقامى فى هذا المكان لن يطول ، وأفضيت بهذا الكلام لحامد وزينب ، فأعربا عن رغبتهما فى أن يتبعانى إلى حيث أرتحل إن كان فى مقدورى أن أدبر لهما العيش على مقربة منى .

وفترت بيننا الرسائل فى هذه الأشهر التى أكبرت فيها حزن أميرة ، ثم استدعتنى إلى القاهرة فى مقتبل الربيع ، ودخلت البيت للمرة الأولى بعد أن تخلى عنه صاحبه والتقينا معا فى الحجرة التى كنا نجلس فيها ريثما ينزل إلينا الأستاذ . وكانت فى ثياب حزنها فتنة حزينة ، لا أكاد أرسل بصرى إليها حتى أسترجعه وأنا نهب بين شوقى وحيائى ، وطال بيننا الصمت كأننا فى مأتم ، وكان الموقف يدعو إلى التأمل لأنها كانت غير التى أعرفها ، ظهرت فى صورة فتاة أذلها اليتم وهى فى غير سن اليتم ، وأنهكتها صدمة الزمن كأنها الأولى لها .

ثم درج الحديث بيننا فاترا ضعيفا ، فخضنا فى شأن الزراعة ، ولا أدرى ما الذى حملنى على أن أفجأها فأقول لها :

ــ من المحتمل يا آنسة أن تتحول حالى إلى طريق لا أرضاه ، ولذلك أرانى مضطرا إلى أن أدبر شأن نفسى فى القريب فأبحث عن عمل آخر .

فإذا بها تغادر مكانها وتجلس إلى جوارى وكنت لا أزال مطرقا شاخص البصر إلى الأرض ، فرفعت ذقنى بكفها وأدنت وجهها من وجهى ناظرة فى عينى وهى تقول بصوت مرتجف خائف :

ــ أحق ما تقول ؟ !

فقلت :

ــ سيكون جونا كثير الغبار فيما يبدو لى !!

لكنها لم تجب ، بل ألقت ذراعها على كتفى ووجهها لا يزال مسامتا وجهى وأنفاسها الحرى تلفح خدى ، وشفتاها الذاويتان ترددان :

ــ أحق ما تقول ؟!

وأحسست أننا فى موقف خارق .. فى لمحة من العمر تعبر مرة واحدة ، كما يقولون عن الكوكب الذرى أنه يعبر السماء مرة لا غير .. وأدارت رأسى ملامحها المحزونة ، وغمرتنى موجة مختلطة ، من حب وشفقة ورثاء وخوف من المستقبل ، فإذا بها بين أحضانى حتى نسينا

باب الحجرة المفتوح وإن كنا غير جالسين فى تجاهه . ثم أفقت من هذه النوبة التى اعترتنى ، نظرت إليها فإذا هى لا تزال تحت سلطان الغمرة عيناها نصف مغمضتين ، وذوائبها السود بعضها متراجع وبعضها حائر على الوجه ، والصدر الذى شاب بياضه سواد الثوب يعلو ويهبط مساوقا حركة الأنفاس .

و لم تطل مدة التأمل ، و لم يكن بيننا الساعة حديث ، ولكن شريطا متتابع الصور استعرضه خاطرى بسرعة البرق : لقاء أبيها أول يوم .. ودفعه إياى برفق فى طريق الحياة على قدر ما استطاع . ورعايته سبيل رزقى فى أخريات عمره .. والأستاذ سامى .. وجرحه لكرامتى .. وأخيرا .. حديث صالح . فتململت كأنما لسعتنى عقرب ، وأدنيت فمى من أذنها وهتفت بها كما تهتف بالسكران ليفيق :

ـ أميرة .. أميرة .. لا تنسى ما بيننا من حواجز !!

فانتفضت كأننى صببت على رأسها ماء ، ثم اعتدلت فى مجلسها وهى تقول بصوت خنقه الدمع .

ـ نحن .. نحن أشقياء !!

« آه هل يستطيع الزمن الذى يبلى كل شىء فينا أن يجرى على ذكرياتنا أكف النسيان ؟ إنه لا يستطيع .

الزمان كالنهر يا صديقى له موسم فيضان ، وهذا موسمه بالنسبة إلى فهو يجرى بالحوادث جدا سريعا » .

* * *

و لم ينقض الربيع حتى زارتنا أميرة فى العزبة وليلى فى صحبتها ، وما كان أشق أن أرى الصغيرة فى ثياب الحداد !! .. كانت تجرى وراء الفراش فى الممشى بين الحديقة والغابة كما تعودت ولكن صورتها كانت غريبة على ، لأنها كانت فى إطار من الحزن .

وأعلنت أميرة عند مقدمها أنها لن تقيم إلا يومين اثنين ، والتقيت معها

فى مدخل الغابة وفى وضح النهار لئلا تأخذنا خواطر الفلاحين بالريبة ، وجلسنا متباعدين على المقعد الذى اتخذ من فروع الشجر ، والذى كان فى يوم مضى مسرح أحلام وآمال . وبدأت أميرة تتكلم بحدة وثقة واعتداد بالنفس ذكرتنى جميعا بأميرة التى رأيتها أول يوم تناقشنا حول الجمال والإنتاج ، فنظرت إليها منكرا شخصها ، وقلت فى نفسى : أفى الوجود مثل هذه الغرابة ؟! وذكرت موقفنا الأخير يوم كانت بين يدى جثة فيها نصف روح ، لو لم تكن بين يدى رجل شريف لتغير وجه حياتها . وسرت فى بدنى حرارة الغيظ حتى أحسست أن إبرا محماة تخرج من منافذ جلدى فأصغيت إلى حديثها تقول :

— اعتبرنى منذ الآن فتاة تعرف وجهها فحسب ، كما تعرف إحدى جاراتك أو إحدى عابرات سبيلك إن كنت موظفا فى المدينة تخترق كل صباح شارعا بعينه .

فحملقت ولم أجب بشىء ، وكانت هى محولة بصرها نحو أظفارها تقلبها وتفحصها . قلت فى هدوء متكلف :

— ثم ماذا ؟

— ثم إننا نتمتع بشىء « تحت الحساب » ولا يدفع ثمنه فورا .

— هذا حسن . لكننى أراجعك لأعلم رأيك الآن وأخيرا فى شخصى الذى تبدل الحكم عليه بهذه السرعة .

— رأيى فى شخصك لم يتغير .

— كلام متناقض ، لأن تغيير الرأى لا يولد إلا إذا طرأ على الشخصية عامل جديد .

— لا ترهقنى من فضلك فلست على استعداد لمحاكمة طويلة .

— من حقى أن أتقاضاك ما يفرضه الحب ، ولست أقصد إلا أننى أعرف سر تحولك .

فهبت قائمة وأدارت ظهرها إلى كما تستدبر إعصارا ، ثم التفتت

لفتة قصيرة وهى تغادر مكانها وألقت على عبارة خيل إلى أن أرجاء الغابة اهتزت لها :

ـ لن أستطيع .. غير ممكن أن أتزوج رجلا ..

فأكملت وأنا ساهم مأخوذ :

ـ رجلا فقيرا !!

ثم رأيت خيالها من خلال دموعى وهى تخرج من الباب نحو الساحة وكنت لا أزال لاصقا بالكرسى لا أستطيع أن أزايله وشفتاى تهمسان :

ـ أيتها الغادرة ! ..

١٥

لا تسألني عن أثر هذه الصدمة في نفسي إلا إذا أردت أن تستجوب رجلا أتلفت مخه هراوة غليظة ، فلقد شعرت بعدها بأنني طفل وأحسست حاجة عظمى إلى الهدهدة والحنان فسافرت إلى قريتي .

وأنكرتني أمي حين رأتني ، وألح أبي في المسألة فلم يسعني إلا أن أدعي أنني ناهض من فراش المرض ، ومر طعم الحياة وقطبت لى الدنيا ، ودخلت على أمي وأنا جالس وحدى في إحدى الأمسيات فجلست أمامي وأدنت بصرها مني تتفرس وجهي الذى فاض بآيات السأم ، ثم مسحت شعرى وربتت كتفي وخدى وسألتني بصوت كان صادرا من قلبها رأسا :

ــ ما بك يا بنى ؟؟

فلم أملك أن أحجز دموعي ، وقصصت عليها القصة ، فما كان إلا أن هونت من عسرة أمرى العسير قائلة :

ــ النسيان .. آه غدا تنسى ؟ أما بقاؤك في هذه العزبة فلا أراه صوابا . النساء يا بنى شرور كلهن .. سأنسيك كل هذا بالزواج ، ولا تحفل بأمر المال ، فنحن والحمد لله قد صرنا في سعة .

كانت تقول هذا وهي تنقل مس يدها الرقيق من رأسى إلى خدى ومن كتفي إلى كفي ، فأحسست برد الراحة وهدأت ثورة نفسي .

ولم يطل مقامي بين أبوى ، ثم سافرت إلى هناك ، وتراءت لى مناظر العزبة وأنا على الطريق بينها وبين محط سكة الحديد ، فأنكرتها ، حسبتها فيما مضى جنة النفس ، فلقيت اليوم منها سعير الحياة، ولم تمض أيام حتى تسلمت هذه الرسالة :

« حضرة ..

« مع اعترافنا بما قدمت من خدمة خالصة واجتهاد محمود ، أبلغك أننا سنستغنى عن خدماتك بعد شهر واحد من تسلمك هذه الرسالة ، وهو التاريخ الذى يتجدد فيه العقد من نفسه إن لم ينذر أحد الطرفين الآخر بفسخه .

وحررنا هذا للعلم .. »

وذيله الأستاذ سامى بإمضائه الكريم ، ولم يكن هذا الخطاب موضع عجب منى ، لأننى كنت متوقعه بين لحظة وأخرى ، ولكنه كان موضع عجب وأسف معا من زينب وحامد ، فقد ذرفا بعد علمهما به دموعا غزيرة . أما أنا فإنه لم يسعنى إلا أن أكتب إلى وزارة الزراعة طالبا أن أكون ضمن الذين سيمنحون إقطاعا زراعيا ، وكنت أسطر طلبى وأنا مظلم قانظ ، لأن هذه الحادثة هيجت فى نفسى ذكريات عن الوظيفة كادت النفس تنساها .

وأرسلت طلبى بالبريد موقنا أننى بعثت به إلى القبر ، لأننى لن أسعى فى سبيله ، وليس عندى استعداد كثير ولا قليل لأن أعيد مأساة الوسطاء كما أنه لم يكن عندى استعداد لأن أقيم فى قريتى متبطلا ، ولست أرضى كذلك بأن أعود مرة أخرى إلى مصنع المنتجات الزراعية .

ولبست نفسى ثوبها الأول حتى كأنها لم تخلعه يوما من الأيام : رأيتنى كأنى ذلك الشاب الذى تخرج فى كلية الزراعة منذ شهر واحد ، تضطرم نفسه تلهفا إلى المال ، وربما كنت اليوم أرغب فيه مما مضى . لقد أنزله الحب من قلبى المنزلة الثانية ، ثم عاد الحب فأنزله اليوم من قلبى المنزلة الأولى ، بعد أن هوت « أميرة » بكلتا يديها على أحلامى هدما وتحطيما .

وحدث لى أن كنت فى زيارة أحد وجهاء المنطقة ـــ وقد عرفت معظمهم ـــ وكان قد سبق له أن زار عزبة الأستاذ ورأى مجهودى فيها وعنايتى باتباع أحدث طرق الزراعة وأنجحها ، ودار بيننا حديث عادى

رأيت فيه فرصة سانحة ، فأشرت من بعيد إلى أننى قد أتخلى عن خدمة ورثة الأستاذ فى وقت قريب ، فرأيت الوجيه قد انبسطت أساريره وإن أخفى سروره عنى . ثم قال بعد ذلك :

ـ إن كثيرا من الملاك يرحبون بك إن كنت ترغب !

ثم كان يوم لن أنساه .. يوم رأيت الأستاذ « ساميا » يهبط العزبة قبل موعد رحيلى عنها بأسبوع ، وكان طبيعيا أن يجئ لتصفية الحساب .

آه .. كان وحده ، ولشد ما لمت نفسى واحتقرتها حين تمنيت أن ترى « أميرة » بصحبته ، على الرغم من كل ما كان !!

واجتمعت به مرارا فى الحجرة العامة التى تدار فيها شئون الزراعة ، ومن الغريب أنه لم يكن بادى النزق ، ولا سريع الطيش فى هذه الزورة الأخيرة ، وإن كنت أنا مرهف الحس إلى حد بعيد ، وعرف كل منا ماله وما عليه . ثم سافر الأستاذ مودعا بنقمة قلوب الفلاحين واختفى من أفق حياتى إلى الأبد ، وطفقت أعد مقامى على أصابع يدى ، وذاع خبر استبعادى عن العزبة فى المنطقة كلها ، وللريفيين فى إذاعة الأخبار قدرة تقرب من قدرة الصحف اليومية ، فما لبثت أن استدعانى الوجيه المذكور وأبدى رغبته فى أن يتعاقد معى ناظرا لزراعته ، فقبلت بالطبع .

كنت أريد أن أغيب عن مسرح حزين الحوادث كثير الدموع قليل البسمات ، فلم أمانع أى شرط شرطه على . وكنت موقنا أن طلب الإقطاع الزراعى سيلقى فى وزارة الزراعة ما لقيته فى ردهاتها وعلى أبواب موظفيها من إهمال ونسيان ، لذلك لم أعقد عليه أملا .

وهأنذا اليوم فى أصيل أحد أيام الصيف ...

رأيتنى واقفا بلا تدبير فى أحب مكان إلى قلبى . فى مكان قلت لك عنه : إنه صار أعز من مسقط رأسى !! فى الطرف الشمالى من حديقة

الفاكهة حيث خلايا النحل . أرقب الغروب الحزين ، وأرى عمراننا صنعته يداى وأتأمل خرابا جوزى به قلبى ، وتسطع فى أنفى رائحة لا أعرف مأتاها ، فإخالها عطر الغادرة ، وأجهد ذهنى ليكون صورة عن الرجل الجديد الذى سيدبر شئون الجنة من بعدى .

وغابت شمس اليوم الأخير فى هذ المكان ، ولم يبق على الأفق إلا أثر من أرجوان الشفق ، فاستدرت خارجا من الحديقة وأنا أكاد أصطدم بأشجارها ، وسرت على الممشى بينها وبين الغابة تتهاوى على الذكريات من كل جانب .

ثم لجأت إلى سكنى حيث وافانى حامد وزوجه فى أوائل الليل ، ليسمرا معى مودعين ، وأؤكد لك أننى كنت أنتظر وقت خروجهما بصبر نافد لأذهب إلى النافذة وأرقب منزل الأستاذ فريد تحت ظلمة الليل . لم تكن فيه نافذة مفتوحة ولاشعاع يضىء لكننى لم أحول عنه بصرى حتى استرجعتنى من ذهولى أصوات مرتلة ودقات على صفائح قد اتخذت طبولا ، يدور بها جماعة من الفلاحين حول مساكن العزبة وهم يرددون ما يهتف به أحد الصبيان : « ياللا يا بنات الحور سيبوا القمر ينور » فاعتدلت من متكئى مخففا عن ذراعى اللتين دب فيهما الخدر ، وقلبت طرفى إلى السماء لأرى القمر المخسوف ثم تطرحت بعد ذلك فراشى .

ولو كنت واقفا فى ضحا اليوم التالى على امتداد محط سكة الحديد وعزبة الأستاذ ، لرأيت عربة ذات عجلتين تدرج على الطريق خارجة من العزبة ، وعليها متاع قليل أظهر شىء فيه الكتب ، ولم يكن هذا إلا متاعى .

* * *

دعنا نطوى السنين يا صاحبى بحديثنا كما تطوينا السنون بأحداثها .. فلن أقص عليك ما وقع لى بعد رحيلى عن موطن حبى وإلا أمللتك

.. وأنت معى الآن فى ضيعتى الصغيرة التى تبلغ أربعين فدانا ، والتى تقع فى شمال الدلتا والتى تقول عنها : إنها جنة .

هل تستكثر على هذه النعمة وأنت ترانى أخطو إلى الستين ؟!

آه .. لقد أطلت عليك ولكن لا مناص من أن تستمع إلى قصة الشيخ :

لم أشتر هذه الأرض بمال ، لأنه لم يكن لى من المال ما أشترى به أرضا ، ولكننى قضيت سنة فى العزبة الثانية ثم كتبت إلى وزارة الزراعة بأنها منحتنى إقطاعا فى هذه البقعة ، وكان بلا واسطة لأنه لا يناله إلا الفقراء . وهكذا مرت على فرصة من العمر أحسن الفقر فيها إلى ، وكنت قد ادخرت ما أستطيع أن أدبر به شئون الإقطاع ، وأذكر أنى دخلته وأنا مكتمل الشباب لا أتجاوز التاسعة والعشرين ، فسكنت دارا صغيرة بنتها الحكومة من اللبن وبدأنا العمل بآلات قليلة وماشية غير كثيرة فكنا فى هذا الأرض أشبه بالصيادين يغالبون الموج لينتزعوا من بين أغواره السمك . وقد أحضرت حامدا وزينب وأقاما معى ، وعمرت حقولى ثلة من أبنائهم ، ولا يزال حامد على قيد الحياة وقد جاوز الستين ، يذكرنى فى الفترة بعد الفترة باليوم الذى عرجت فيه على عزبة الأستاذ فريد وأنا قادم من القاهرة ، ودخلتها فى إحدى الأمسيات ولكن من طريق غير الطريق الذى عبرته يوم أن دخلتها ناظرا » . وكان ذلك بعد عامين من رحيلى عنها . دخلتها من طريق ضيق يمشى إزاء قناة ويدخل إلى مساكن الفلاحين ثم قصدت منزل الرجل الوفى ورآنى هو وزوجه فاحتبست الكلمات فى حلقهما بهتة ودهشة ثم أفاقا وكأنهما فى حلم ، وزففت إليهما خبرا رأياه سعيدا ، واقترحت عليهما أن يستعدا للرحيل إلى بعد أيام قليلة . وخرجت من هذه العزبة فى الليلة نفسها وهواتف الذكريات تلح على قلبى . واكتحلت عيناى بنظرة إلى بيت أميرة هناك وكان مظلما ، لكنها كانت على القلب بردا وسلاما .

وخضت غمار الزمن كما يخوضه أى إنسان . وذقت من حلو الحياة ومرها ، وشيعت إلى القبر أمي التى بشرتنى بضوء النهار فى أحلك أيام الظلمة من حياتى ، ثم أبى ، وعشت دعامة تطوف حولها بقية أفراد أسرتى فهيأت للبنات بيوت زوجية هنية ، واستقدمت أخى الذى حدثتك عنه فى أول قصتى ليزاول معى شئون الزراعة ، وجددت فى أعمالى فجربت زراعة الموز فى هذه البقعة ونلت منها أرباحا أحسد عليها .

أما صديقى صالح فلابد أن تعرف ختام قصته :

لقد انقلب هذا العربيد فجأة ومرة واحدة ، إلى متصوف زاهد ، وكان ذلك بعد أن بلغ الثلاثين وبعد أن استنفد صحته وماله ، فقد عاش بعد ذلك مريضا بالقلب ، ولكنه حول شقته المنزوية فى ركن السطح إلى محراب للعبادة ، وجعل الخزانة التى لا تخلو من زجاجات النبيذ خزانة تزحمها كتب التصوف ، ثم قضى وهو فى شباب كان جائزا أن يطول لو أنه أنفق منه بمقدار .

لا تقلق فإنى أراك مشتاقا إلى حلقة تبدو فى حديثى كأنها مفقودة ، لأننى أعرضت شيئا ما عن شخصية تراها مهمة وهى شخصية أميرة .

آه . رأيت نفسى بعد محنتى فيها مبلبل الخاطر غير محدود الأمل لا أرى لى هدفا فى الحياة واضحا أسعى إليه . فكنت كمن يضرب فى الصحراء ضالا ، فهو لا يرى طريقا خيرا من طريق ، ولكنه يمشى كما اتفق .

رأيت المال فى أول حياتى كل شىء ، ثم أحببتها فقلت : لا .. بل الحب كل شىء ، ثم وقع بيننا ما وقع فعدت أقول : أنا مخطىء المال هو كل شىء . وما بلغت الأربعين حتى كنت رخى الحياة ، فسألتنى نفسى : هذا هو المال ، فأين السعادة ؟! وفتشت عنها فرأيتها فى الحب .

وأين الحب ؟! لقد فقدته منذ أعوام فى الغابة وأنا على المقعد الخشبى يوم خلفتنى لاصقا بمكانى وأسرعت خارجة وهى فى ثياب الحداد .

فقدته فقدان يأس فلم أشأ أن أبحث عنه . وقال لى الأصدقاء : تـزوج وإلا فاتك القطار . فاستصوبت ما قالوا ، وعقدت ألف خطبـة ، ولكن لا أدرى كيف فسخت . ربما كان ذلك لأننى فتشت دون أن أحس عن شبح امرأة فى قرارة باطنى وأعماق نفسى ، أنشدها باللاشـعور فـأرفض بالشعور كل امرأة سواها .

وبقيت هكذا حتى فات الأوان ، فبدأت أتفلسف فأقول :

ـــ أمن الضرورى أن أتزوج ؟ ليس من الضرورى . إن الأحيـاء لينشدون الخلود بوسائل تتفـاوت بتفـاوت مستواهم : ينشـده الشخص العادى فى أن ينسل ويترك من وراءه من يحمل اسمه لعدة أعوام ، وينشده الممتازون فيما يتركونه بين المجتمع من آثار طيبة يذكرهم بها . وهذا كله صورة من صور الخوف التى تساور النفس حين تذكر الفناء .

على أنه لو وقع لى أننـى تزوجـت لألفيتنـى أقـول : ذلـك ضـرورة . حب وسكن ، وإبقاء على الجنس ، وسعادة بالبنين ، وتزويد للوطن بأيد وعقول .

وهكذا تقع الأحداث أولا ثم نلتمس لها العلل !!

على أن يأسى فى حبى قد قادنى برفـق إلى روضة الأدب ، فجعلت القراءة والكتابة هم نفسى ، وفررت إليهما كما يفر إلى المخدر .

وأنت ترانى اليوم بين الأدباء فى منزلة ليست بأرفع المنازل ، ولكننـى مذكور . وقد تخليت عن أعمال الزراعة فلا أهبـط هـذه العزبـة إلا زائـرا أو مستجما ، وأقمت فى القـاهرة منـذ أعـوام لأننـى أزاول التحريـر فـى إحدى المجلات الحديثة ، وأردت من عهد قريب أن أكتب قصة طويلـة ، فلم أر خيرا من أن أكتب قصة نفسـى ، وأن أخـرج للنـاس مأسـاة بعـد تغيير الأسماء والأماكن ، فرأيـت بعـد أن قـرأت نقـد النـاقدين أن الذيـن وفقوا من قديم الزمن إلى أن يضعوا أيديهم على أدق خلجات النفس إنمـا

كتبوا عن تجاربهم ونشروا على الناس صحائف قلوبهم ، فلا خير إذن من أن تكتب قصة نفسك .

ونظمت المجلة بابا للمشكلات الاجتماعية ، وكنت أنا أتلقى الرسائل التى ترد فى هذا الشأن وأتولى الرد عليها ، فحدث أن قرأت هذه الرسالة بين ما قرأت :

- « هو يتهمنى بأننى غادرة ، ولكن لا يزال سر نفسى فى قلبى وحدى . كان ترددى سببا جر علينا البلاء معا ولكننى أنا التى أحمل الوزر . تحاببنا فى شبابنا ثم افترقنا فراقا أجج الحقد فى قلبه ولا يزال حتى اليوم حاقدا على ، على أننى لو لقيته وكشفت له عن السر ، لصفح وغفر ، وإن لم يعد لأحدنا أمل فى صاحبه ، أرانى مترددة خائفة ، مثقلة الضمير ، فهل تشير على بأن ألقاه ؟؟ » .

وظهر العدد التالى من المجلة حاملا هذا الرد :

« لا تهابى لقاءه يا سيدتى ما دمت تنشدين غاية شريفة ، وإن كنت واثقة أنه رجل شريف . ليس أشهى إلى الأحباب إن طال الأمد أن تهب على قلوبهم نفحة من نفحات الماضى ، لأنه قطعة من العمر تعز على كثير من القلوب ، حتى إن بعض الناس يعيشون فيه ذاكرين أيامه ، مغمضين عيونهم عن الحاضر والمستقبل . كأنهم يمشون بظهورهم فى طريق الحياة . لا تترددى بعد اليوم ، وحسبك من التردد ما قد لقيت منه » .

كان ذلك من نحو عشر سنوات ، أيام كنت فى الخمسين من عمرى ، فانظر إلى سخرية القدر !!

إننى أروى لك هذه القصة وكأنه ليس بينى وبينها الآن علاقة ، وكأنها قصة غيرى ، لأن السنوات التى طرحتها وراء ظهرى

أطفأت حدة إحساسي وغيضت ينبوع دموعي الذى كان يسيل لأتفه الأسباب . نحن فى شبابنا نتفاعل مع الحياة تفاعلا سريعا .. نرسل فيها ونستقبل بطبيعة السن كأننا جهاز لاسلكي دقيق ، أما الشيخوخة فكل ما نفعله فإنما هو مغترف من ومضات الشباب ومن ذكرياته .

كنت فى دار المجلة غارقا فى العمل حين دخل الخادم يعلن إلى أن سيدة تطلب مقابلتي . وفتح الباب فبصرت بها محتشمة جميلة . يسترعى نظرك منها أول ما تنظر ثيابها السود وسبيبة حريرية تغطى فضلتها كتفيها وظهرها ، شدتها على رأسها فى انحراف إلى الحاجب الأيمن ، وشفت عن أعلى جبينها الناصع ، ومفرقها الواضح ، كأنه خط من النور .

ورفعت صوتها بالتحية فتراجعت فى خضم السنوات حتى رأيت كأننى فى الثامنة والعشرين من عمرى أستمع إلى نبرات صوت أميرة . فانتفضت من مجلسى بحركة غير منتظمة تبعثرت معها الأوراق من أمامى وهمست أقول :

ـ أحقيقة ما أراه ؟

ثم أفقت وجلسنا .

نالت الأيام منها كما نالت منى ، فمالت إلى النحافة ، وبدت على وجهها تجاعيد خفيفة كأنها من رسم قلم دقيق ، لكن العينين والأهداب الطوال لم يبطل سحرهما الزمن . كان المكتب يفصل بينى وبينها حين فتحت حقيبتها وأخرجت منها كتابا ورسالة مغلقة حال بياضهما فمال إلى الصفرة ، ثم ألقت بهما كليهما أمامى وأنا أنظر كأننى مسحور ، وانقضت فترة صمت قلت بعدها :

ـ أأنت صاحبة الرسالة التى حملت المجلة ردا عليها ؟

ـ نعم .

ـ إذن فهناك سر .

_ أكنت تظن أن ما كان بيننا ينهدم بسهولة ؟ ! و لم أسألك وقد ظننت ذلك ؟

ثم مدت يدها فتناولت الكتاب قائلة :

_ هذه هي قصتك الأخيرة التي سرني على البعد أنها نالت إعجاب القارئين ، وإن لم تنل إعجابي . جعلتني بطلتها فخلدت بين صفحاتها أيامنا السعيدة ، وأيامنا الباكية كذلك ، لكنك لم تنصفني ، فقد بالغت في اتهامي وخلعت على صفحات من الغدر ونكث العهود وأبكتني وأنا أقرأ حتى سالت دموعي على الصفحات ، لقد نبشت جرحا خلت أنه اندمل مع الأيام ، فإذا بي أراني مدفوعة إلى أن ألقاك وأن أوضح لك كل شيء . وقد حاولت بعد فراقنا وزواجي من سامي أن أكتب إليك بحقيقة موقفي ، لكني عدت فاستصوبت ألا أفعل عل هذا يساعدك على النسيان .

وماذا كنت تظن قلبك فاعلا لو أنني كتبت إليك ؟! أنا واثق أنني كنت سأحظى برثائك ، ولكنك ما كنت تنساني ، أما وقد وقفت منك موقف الغادرة وضننت عليك بسري ، فلعل هذا قد أثار في قلبك نقمة جعلتك تدبر أمر حياتك وحفظت عليك نفسك من التلف ..

فابتسمت ، و لم أعترض على منطق فات أوان الاعتراض عليه . فأضافت :

_ لكن ضميري ظل في يقظة طويلة .. كنت أستمع إليه وهو يقول : لابد من ضمادة لهذه الجراح ، فأسدل على مسامعي .. ثم جعلت الأيام تمر حتى خفت صوت الضمير ، مرة أخرى ، فجئت إليك .

أعترف لك يا صديقي ..

« ويا أخي .. ولن أدعوك بغير ذلك » كما قلت في آخر رسالة .

فأطرقت .

_ وأقسم أنني كنت صادقة . لا داعي للعتاب !!

ونظرت ، ولمعت عيناها اللتان ما زالتا عينيها ، ببريق أسف ورجاء ، وقالت :

- نعم لا داعي للعتاب ، فإننا الآن كمن يدخل مقبرة أثرية ليمتع ناظريه فيها بنقش جميل ..

أعترف لك أن ترددي هو الذي جر علينا البلاء ، ولكنني كنت صادقة العزم في أن أعمل من أجلنا عملا ، ولكن الحوادث عارضتني ، وجرت الأيام بغير ما كنت أرجوه .

تكاشفنا بالحب ورجعت من موقفي معك بعد الغروب وأنا مصممة على أن أصارح أبي بأمري وأن أحطم كل حاجز يحول بيننا مهما يكن قويا . كنت في طريقي إلى المنزل أحدث نفسي بهذا الحديث ، فلما دخلت والتقت عيناي بعيني أبي أطرقت وخجلت بيني وبين نفسي حتى خيل إلي أنه يعرف سري . وكثيرا ما كان يحدثني في أمر زواجي من ابن عمي فيكاد لساني ينطق بما تهتف به نفسي ولكنني لا ألبث أن أعود إلى صمتي .

وسكتت قليلا ريثما تهدأ أنفاسها المتداركة ، ثم نظرت إلي نظرة فاحصة حادة وقالت ، كأنها ترد تهمة خالتها تخامر قلبي .

- وستعلم الآن أن ذلك الرجل الطيب الرقيق لم يكن له ذنب فيما وقع . جعل ليلة ونحن في القاهرة يلح علي ويقول :

- أنا يا أميرة كما ترينني رجل مدبر ، هامة اليوم أو غدا ، ولن يطول أجلي بعد إلحاح المرض وانهيار الشيخوخة ، أفلا ترين من الخير يا بنيتي أن أعجل بزفافكما ، حتى أقضي ما قد يكون من بقية أجلي ، في راحة وسعادة ؟

فاعترضت عليه باعتراضي الخالد :

- إنني سعيدة يا أبي بقربي منك ، فدعني أسهر على راحتك فترة أخرى .

ثم تعللت ببعض الشئون وقمت من مجلسه قبل أن يرى فى عينى دمعة تفضح سرى .

ثم كان صيفنا الأخير الآهل بالأحداث والمتاعب . حين هل سامى وجاءت آمال ، وتولت هذه المخدوعة إشعال نار الغيرة بينك وبينه لأمر تعرفه أنت .

فقلت :

— ولعلك تعرفينه .

فأجابت :

— لقد عرفت فيما بعد .

واشتد على إلحاح أبى كما اشتد على إلحاح حبى ، فاعتكفت فى غرفتى فى القاهرة أناجى همى وأدبر مخلصا من أمرى العسير . ودخل على أبى يسألنى عن حالى بعطف وحنان خلت معهما أنه سيضحى من أجلى بكل شيء لو أننى كاشفته . قال : ما بك يا أميرة ؟ وأقبل نحو فراشى وبه لهفة أب وأم معا ، فلم أستطع أن أسيطر على دموعى وادعيت أننى مريضة ، وأن بى انقباضا لا أعرف مأتاه فحنا على يقبل جبينى ، ونظرت إلى وجهه فرأيت عليه مسحة نراها على وجوه الأحياء حين يؤذنون بتوديع الدنيا ، فاشتد بكائى حتى رأيت دمعة تترقرق فى عينيه ، وحاولت أن أبثه هم نفسى فلم أستطع .

ولكن هذا كله لم ينسنى أن تدبير أمرنا ضرورى ويستدعى السرعة كذلك ، فهدانى تفكيرى إلى أن أكتب له بما لم أستطع أن أتحدث فيه . فسهرت طول الليل ، أكتب وأمزق ثم أعيد ما مزقته كتابة ، ثم أنحو على ما كتبته تمزيقا ، حتى كانت رسالة رأيت أنها تعبر عما أقصده تماما . ثم عدت فترددت فى طريقة وضعها بين يدى الوالد : أأضعها على مكتبه مكشوفة أم أدسها فى درجه ، أم أرسلها بالبريد ؟ وأخيرا بعثتها بالبريد .

ثم كان أن وقف القدر منها مقهقها ساخرا !!

لم يتسلم هذه الرسالة التي حملها البريد إلى أبى أحد ، إلا أميرة ، كان طريح الفراش فى اليوم التالى ، فريسة للحمى .

قلت :

ـ آه .. فهمت كل شىء .

فقالت :

ـ أتظن أن القصة قد انتهت ؟ إن لها بقية أعجب مما تتخيل .

كان من المستطاع لو وقف الأمر عند هذا الحد ألا آبه لشىء من أمر سامي ولا من غيره ، فأعمل على أن تجمع بيننا كلمة الله ، ناسية أو متناسية أن ابن عمى أشربت نفسه حب الانتقام ، وأنه وقع بينى وبينه فى الصيف الأخير ما أرى معه من الوفاء له ولك ألا أذكره ، وإن عرفته أنت بوحى من قلبك . نعم كان من المستطاع أن أعمل شيئا ، لكنه حدث أن أبرقنا إلى سامي بعد حضورك ليرى عمه الذى عددناه فى الدنيا ضيفا ، ثم كانت لحظاته الأخيرة ، وفارقت الحياة كل جوارحه إلا عينه ، ووقفت أنا وسامى نرى آية الموت وهى تمحو آية الحياة ، فأمسك أبى بكفى وكف ابن أخيه جامعا بينهما فى يده ، وأخذ ينقل نظراته بين وجهينا وشفتاه تتحركان ولكن بدون كلام فإنه ما كان يقوى . وفهمت أنا بالطبع أنه يوصينا بالزواج . فشبت فى قلبى نار الحزن على رجل حى ورجل يموت . وأنا أقول فى نفسى : آه لو تعلم يا أبى .

فهززت رأسى موافقا لأننى رأيت هذا بعينى وأنا واقف مع إحدى الممرضات من وراء السدفة .

وهنا قدمت إلى الرسالة المغلقة الحائلة البياض ، فرأيت عليها طابع بريد قديم ، واسم الشيخ الذى ظننه قاتلى ، وكان الخاتم الذى يحمل التاريخ واضحا ينادى بصدق ما تقول .

فقلت :

ــ والآن فهمت كل شيء !!

فقالت :

ــ بل بقي شيئان : ثم زرتني في القاهرة .. (وأطرقت غاضة من طرفها) .

وكان أن التقينا في حجرة الاستقبال للمرة الأخيرة . أتذكر ؟

أردت أن أهيىء لك وداعا لا يشوبه الحرمان الذى فاض على علاقتنا الشريفة . لا تستصغرني ، لقد كنت أشبه شيء في نظرى برجل قضى عليه بالموت ، فرأيت أن أضع بين يديه كل ما يشتهى في لحظاته الأخيرة . لأنه لم يكن في مقدورى إلا أن أنفذ وصية أب لم يسئ إلىّ في حياتي مرة ، وإنما كنت أنا الجانية على نفسي ، ولو كنت قادرة على أن ألغي ساميا من حياتي وأبي موجود فما كنت قادرة على أن ألغيه من حياتي وأبي ميت ، حتى لا تتناولني الألسن والناس لا يعلمون كما أعلم أنك رجل شريف ، وأنك كبرت في نظرى إلى حد يفوق الوصف بعد لقائنا آخر مرة .

لم يكن أمامي بعد ذلك إلا خطوة أخيرة ، شاقة عسيرة ، وهي أن أنحي عن طريقي أعز نفس على قلبي .. وتستطيع أن تتصور معي بؤس امرأة تجبرها الظروف على أن تمسك خنجرا لتغمده في قلب حبيبها ، فسافرت إليك ثم التقينا في الغابة ، وجعلت قبل لقياك أجمع أشتاتا من الرذائل والشراسة والغدر والنسيان ثم أضفيها على نفسي ليخدعك ظاهرى عن حقيقتي ، فأعمي عليك الموقف . وما زلت كذلك حتى استطعت أن ألمح إليك بكلمة كم تمنيت بعدها أن يخلصني الموت من متاعب آثارها !؟

وكانت محدثتي لا تزال مطرقة ، لكنني رأيت على خديها دمعتين كبيرتين تجريان على صفحتهما الناصعة كما ينزلق الندى على بياض الزنبق .

ومرت فترة سكون خلت معه أنفاسنا ستحتبس معه إلى الأبد ، ولكننا تناظرنا بعده فى وقت واحد وتنهدنا فى لحظة واحدة . قلت :

ـ وهل تظنيننى إلا صافحا ؟

فقالت :

ـ صافحا .. وكريما .

ـ أتذكرين .

فهزت رأسها مستوضحة .

ـ ذلك الفتى الذى شدنا بتضحيته فى قصة كتبها أبوك ، حين ظهر فى أفق حبيبته وقال لها : سأتزوج أختك ليقوم بينى وبينك أربعة حوائل : الزوج والعهد ، والولد ، وأننى زوج أختك ؟؟

ففتحت فاها ، واتسعت عيناها تذكر الماضى البعيد ، على حين كنت أنا أقول :

ـ أنا فى موقف أشد ، لأننى لم أتزوج ليلى .

ـ إن كان الأوان قد فات وظهرت فى أفقك حين لا ينفع الظهور ، كالثمرة المتخار ترجعها الشجرة ، فإننى قد كسبت أن تخففت من عبء ضميرى .

فقلت لها :

ـ وهل أنت سعيدة ؟

فلم تجب إلا بأن سألت :

ـ وهل أنت سعيد ؟؟

ثم تصافحنا ونحن فى غمرة من الماضى تقرب أن تكون ذهولا .

* * *

هذا أنت يا صديقى ترى أن موكب الحياة قد يلفظ أناسا فيتخلفون عنه وهم فى مقتبل العمر ، فتجيش نفوسهم بآمال مختلطة يتحقق بعضها الآخر ولكن العظيم منا هو ما تبخل به علينا دنيانا .

وطلبت المال فوجدته !! وطلبت الشهرة فنلت منها ما يرضيني !!!
وأحببت الأسرة فأقمت دعائمها وأحطت وجودها !!
وكانت هذه كبريات أماني .
وتسألني اليوم بعد أن غربت شمسي ولم تبق لي من الحياة إلا آثار نور يرسلها الشفق وحده على أفقي ، تسألني هل نلت كل ما تتمناه ؟ فأقول لك : إلا شيئا واحدا أعده اليوم وحده أعظم أماني جميعا ..
الولد !! الولد !!
وهل تتصور أنني أحسد « حامدا » وأتمنى أن لو كان لي مثل حظه ، حين أسمع تصايح أولاده بين الحقول وفي باحة الدار ؟!
معذرة يا صديقي ..
كأننا لا نفهم حقائق الأماني إلا في أخريات العمر !! ..
بعد ألا يبقى لنا من آثار الحياة إلا النور الذي يرسله الشفق وحده !!... أعني بعد الغروب !!

« ملقتات »

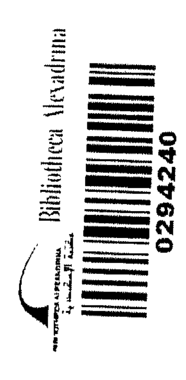
مؤلفات الأستاذ محمد عبد الحليم عبد الله

(١) لقيطـــة
(٢) بعد الغروب
(٣) شجرة اللبلاب
(٤) شمس الخريف
(٥) غصن الزيتون
(٦) من أجل ولدى
(٧) سكون العاصفة
(٨) الماضى لا يعود
(٩) ألوان من السعادة
(١٠) أشياء للذكرى
(١١) النافذة الغربية
(١٢) الضفيرة السوداء
(١٣) حافة الجريمة
(١٤) الوشاح الأبيض
(١٥) الجنة العذراء
(١٦) خيوط النور
(١٧) الباحث عن الحقيقة
(١٨) البيت الصامت
(١٩) أسطورة من كتاب الحب
(٢٠) للزمن بقية
(٢١) جولييت فوق سطح القمر
(٢٢) قصة لم تتم
(٢٣) الدموع الخرساء
(٢٤) لقاء بين جيلين
(٢٥) الوجه الآخر
(٢٦) غرام حائر
(٢٧) حلم آخر الليل
(٢٨) عودة الغريب

رقم الإيداع : ٥٤٥٩
الترقيم الدولى : ٩٧٧



مكتبة مصر
٣ - شارع كامل صدقي - الفجالة



الثمن ٤٥٠ قرشا

دار مصر للطباعة
سعيد جوده السحار وشركاه